أقْبيةُ التّاريخ

(تاريخُ مصر.. تاريخُ العالم)

الطبعة الأولى
1441 هـ / 2020 م

اسم الكتـــــاب: أقْبيةُ التّاريخ (تاريخُ مصر.. تاريخُ العالم)
المـــؤلـــــف: بسام الدويك
موضوع الكتاب: تاريخ
عدد الصفحات: 224 صفحة
عدد المـــلازم: 14 ملزمة
مقاس الكتـاب: 14 x 21
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقــم الإيـــداع: 22138 / 2019
الترقيم الدولي: 8 - 767 - 278 - 977 - 978 :ISBN

التوزيع والنشر:

دار البشير للثقافة والعلوم
القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

بسام الدويك

أقْبيةُ التّاريخ

(تاريخُ مصر.. تاريخُ العالم)

دار البشير
للثقافة والعلوم

إهداء

إلى هؤلاء الذين صَنعوا التّاريخ، وشكّلوا حركته، وارتبطَ تاريخُهم بتاريخِ العالم أجْمع، حتّى صار من المُستحيل فصلُ هذا عن ذاك، إلى جموع شعبِ مصر منذُ عصر ما قبل التّاريخ وحتّى الآن..

بسام الدويك

مقدّمة

مَن هو فرعون موسى؟ أين اخْتفى قبرُ الإسكندر؟ هل تعرف شيئًا عن ثورة البشموريّين التي قام بها أهالي الدّلتا ضدّ الدّولة العباسيّة؟ ما هو عصرُ الاضمحلال؟ هل تتخيّل أنّ معظم تاريخ العالم قد تمّ تشكيلُه بمصر؟ إذا أشعلتِ الأسئلةُ السّابقة فضولَك؛ فأنت تمسِكُ بالكتاب الصّحيح.. إجابات؟ لا إجابات قاطعة في التّاريخ يا صديقي، لكنّى أضمنُ لك معلومةً موثّقة بالمراجع، ومتعةً لن تنْساها قطّ، فقط كلّ ما عليك أنْ تطوي هذه الصّفحةَ لتبدأ رحلتك داخلَ أقْبية التّاريخ المتشابكة.. فقط عليك أن تعلمَ أنّ قطارَ رحلتنا يتوقّف في أربعِ محطّات رئيسية:

١ – ما سجّله تحوت.

٢ – لفائفُ الإسكندرية.

٣– متونُ الورّاق.

٤ – وثائقُ يوسف أفندى.

وبداخل كلّ محطّةٍ ستتعرّف على حقبةٍ معيّنة من تاريخ مصر وتاريخِ العالم معًا.. أخشى أنّني أطلتُ عليكم؛ لذا دعونا نتسكّع قليلًا بين أقْبية التاريخ.

الجزءُ الأوّل

ما سَجّله تحوت

تحوت، إلهُ الحكمةِ والمعرفة والعلمِ عند المصريّين القدماء، هو مَن علّمهم الكتابةَ والتّدوين، بينما العالَمُ بأسْره يتخبّط في دروبِ الجهل والظّلام، وحده ظلّ شاهدًا على ما حدَث، وحده ظلّ صامتًا يسجّل دونَ كللٍ ما يمرّ من أحداث، وحدَه ترك تاريخَ الملوك للمؤرّخين، وسجّل تاريخَ وعظمة شعب، وترك لنا مخطوطاتِه التي سجّل فيها كلّ صغيرةٍ وكبيرة مرّت على أرض ذلك الوادي المبارك، اسمُه تحوت، وهذا ما تركه لنا لنحفظه.

المخطوطةُ الأولى: ما قبلَ الجفاف:

الأمطارُ تنهمرُ بغزارة طوالَ العام على ذلك الجزء الشّمالي من أفريقيا، الذي ندعوه الآن الصّحراء العظمى، الأحراشُ والغابات تغطّي مساحاتٍ واسعة من تلك الأرض، بينما تتقافز قطعانُ الحيوانات من مكانٍ لآخر، في ذلك المرْعى الخصيب، الحياة تبدو مثاليّةً هنا.

الحياةُ تبدو مثالية- أيضًا- لذلك الصّياد الذي يعيش في العصر

الحجريّ الحديث حيث يحمل سكّينَه المصنوع من حجر الظّران (الصّوان)، متنقّلًا من مكانٍ إلى مكان خلفَ قُطعان الماشية، إنّه يعتمد- حتّى الآن- على الصّيد وجمْع الثّمار، ولم تظهرْ بعدُ أيّة بادرةٍ لأيّ تجمّعات إنسانيّة تتخطّى الأسرة، الحياةُ تسير على وتيرةٍ واحدة، والإنسانية تتقدّم ببطء، ومازال همّ الإنسان الأوّل والأوْحَد هو سدَّ احتياجاتِه الأساسية وتلبيةِ غرائزه الأوليّة، ولكنّ دوامَ الحال- كما يقولون- من المُحال.

الأمطارُ تجفّ تدريجيًّا حتّى صارتْ نادرة، التصحّر يغزو المشهد، بينما ذلك الصّيادُ ينتابه القلق ويتراجعُ تدريجيًّا أمامَ غزو الصّحراء، وقد سبقتْه قطعانُ الحيوانات، حتّى وجدَ نفسَه أخيرًا بجوار ذلك النّهر، النّهر الذي يعني توافرَ الماء باستمرار، وأحراش دائمة تسكنُها الحيوانات، بينما صنعتِ الصّحراء من حوله درعًا منيعًا يحميه من غزوِ أيّ مُغير، لقد بدأ عصرٌ جديد، وعادتِ الحياةُ تبتسم له مرّةً أخرى.

المخطوطةُ الثّانية: في رحاب الوادي:

نحنُ الآن عام ٥٠٠٠ ق. م تقريبًا، العديدُ من أمثال ذلك الصّياد يسكنون الوادي بجوار النهر، مازال يعتمدُ على الصّيد، ولكن بدرجة أقلّ بعدَ أنِ استطاع بعضُهم استئناسَ بعض الفصائل من الحيواناتِ والماشية، كما أنّه بدأ يلاحظُ كيف ينمو النّبات، وسيقوم بعدها بإجراءِ أولَى تجارب الزّراعة، الحقُّ أنّه لم يعدْ مضطرًّا إلى التنقّل بعد الآن؛ فبدأ

بإقامة أكواخٍ يسكنها، هي التي ستكون النّواةَ الأولى لإقامةِ مجتمع، فقد اتّفقت تلك الأسرُ المتناثرة على حاجاتٍ أساسية مشتركة مثلَ الدّفاع ضدّ هجماتِ الحيوانات المفترسة، ومقايضة البضائع فيما بينهم إلى إقامةِ مجتمعات سكانيّة بسيطة، تعقّدت تدريجيًّا متّخذةً شكل القرى، وبدأت تتشكّل بعضُ النّظم السياسية البدائية الممثّلة في شيخ القبيلة أو الكاهن الذي يحكُم القرية، وتكوّنت بعضُ الفرق من الرجال الأشدّاء لحماية القرية، وتمّ إنشاء السّوق لتبادل البضائع، إنّهم في طريقهم نحو المدن بخطًى ثابتة.

مرّت ألفُ سنة أخرى، فنحنُ بالقرب من عام ٤٠٠٠ ق.م، المشهدُ تغيّر تمامًا، فقد اتّحدت كلّ هذه المدن تحت لواءٍ واحد، مكوّنةً دولتين؛ شماليّة وجنوبية، كما تطوّرت نظمُهم السياسية والاجتماعية والدينيّة، ظهرت المعبوداتُ المختلفة مثل وادجيت التي عبدها سكّان الشمال، ورمزوا لها بالأفعى، بينما عبَدَ أهلُ مملكة الجنوب المعبودة نخبت في صورة أنثى النّسر.

المخطوطةُ الثّالثة: نظريّات الخلْق:

ها قد غربتْ حضارة نقادة التي ظهرتْ بالقرب من مدينة قنا، والتي استمرّت من ٤٠٠٠ ق.م وحتّى ٣٠٠٠ ق.م، الآنَ لدينا مملكتان؛ واحدةٌ في الشّمال وأخرى في الجنوب، لقد وفّرت الزّراعة واستئناس الحيوان مصادرَ وفيرة للطّعام، فلم يعدِ الإنسان قلقًا حيالَ طعامه، كما توافرت له سبلُ الأمان بعد استقرارِه في المدن والقرى،

وبعد أنْ أشبع حاجاتِه الأساسية بدأ يلتفتُ لإشباع حاجاتِه الرّوحية، فبدأ يتساءل عن نشأةِ الخلق، ومِن أين جاء، وإلى أين سيذهب؟ بدأ الإنسان المصريّ يتأمّل حوله ليلاحظ أنّ لكلّ شيء مقابلًا، النّور مقابل الظّلام، الليل والنهار، الخصب الممثّل في كيمت (وادي النيل) والجدب الممثّل في ديشرت (الصّحراء)، كلّ هذه الأسئلة والملاحظات التي دارتْ في مخيّلته بالإضافة إلى اختراع الكتابة؛ جعلتْه في حاجةٍ ماسّة إلى الدّين، خاصّة مع تنامي ظهور المعبودات في كافّة الأقاليم، فاتّخذ كلّ إقليم معبودًا خاصًّا به، ونسج حوله الأساطير لتقدّم التّفسيرات التي يحتاجها لإشباع حاجته الروحيّة.

ولكنّ السّؤال الذي يطرح نفسَه الآن: كيف أجاب المصريّ القديم عن إشكاليّة بداية الخلق؟

الحقيقة أنّ نظريات بدايةِ الخلق اختلفتْ باختلاف المدن التي نشأت فيها، فكانت كلّ مدينةٍ تحاول أنْ تضفي قدسيّةً وأسبقية على معبودها الخاصّ؛ لأنّ ذلك يعني بالضرورة ارتفاعَ شأن معبودها كوْنه الخالق الرّئيسي، وبالتّالي تزداد الأوقافُ الممنوحة لمعابدِه وكهنتِه، ولذلك تكوّن لدينا ثلاثُ نظريّات رئيسية للخلق، وهم:

١- نظرية أون.

٢- نظرية الأشمونين.

٣- نظرية منف.

أوّلًا: نظرية أون:

في البدْء كانت نون (المياه الأزليّة) والتي تحوي في باطنها طاقةَ الحياة الكامنة، ومنها يولَد الإلهُ رع (الشّمس) التي تسلّط أشعّتها على الماء فتنحسرُ حتّى يتكشّف تلٌّ من الرّمال يسمّى (بن بن)، بينما كانت تلك الأشعّة تحوي المادّةَ الإلهيّة لرع، واتّحدت جنسيًّا مع بعضها البعض ليولد الجيل الأوّل من الآلهة، والذي سيقوم بخلق باقي الآلهة والعالم.

على هذا التلّ الأزليّ وُجِد آتوم، الذي عطس فتكوّن من الهواء الجافّ الإله شو، في حين تكوّنت من الرّطوبة الإلهة تفنوت، الآن صارَ من الممكن أن يتزاوجَ الآلهةُ بطريقة طبيعيّة، فنتج عن تزاوجِهما إلهان جديدان، هما: جب إلهُ الأرض، ونوت إلهةُ السّماء، اللّذيْن تزوّجا بدورهما لينجبا لنا أربعةَ آلهة رئيسيّة، سيشكلون وعيَ ودينَ المصري القديم لفترةٍ طويلة من الزّمن، وهم على التّوالي: أوزوريس- إيزيس- ست- نفتيس.

ثانيًا: نظرية الأشمونين:

وطبقًا لنظريّةِ الخلق في الأشمونين أنّه لم يكنْ شيء في البداية سوى اللّاوجود أو الفوضى، والتي تخيّلها المصريّون القدماء عبارة عن (المياه الأزليّة) كما ذكرنا آنفًا، وكان لهذا الماء الأزليّ (نون) أربع خواصّ يمثّل عن كلّ منهم إلهان من ذكرٍ وأنثى، فالخاصيّةُ الأولى هي (العمق العظيم) ويجسّدها (نون ونونت)، ثمّ (اللّانهاية)

ويجسّدها (حوح وحوحت)، ثمّ (الظّلام المخيم) ويجسّده (كوك وكاوكت)، وأخيرًا (الخفاء) ممثّلًا في (آمون وآمونت).

ثالثًا: نظرية منف:

كما ذكرنا سابقًا أنّ الدّين كان يلعب دورًا هامًّا في الحياة السياسيّة والاجتماعية في حياة المصري القديم؛ لذا فكان تأسيسُ منف كعاصمةٍ مركزية للبلاد - كما سنذكر لاحقًا بالتفصيل- واتّخاذ الإله بتاح كإلهٍ رسميّ للبلاد، توجّب على الكهنة أن يقدّموا نظرية خلقٍ جديدة لا تتعارض مع نظريات الخلق الأسبق في أون والأشمونين؛ لذا فقد نصّت نظريةُ الخلق في منف على أنّ بتاح هو الإله الأعظم الذي سرى في كلّ أرواحِ الآلهة الفعّالة ليعطيها القدرةَ على الخلق، فقلبُ بتاح ولسانُه كانا يمثّلان آتوم ذاته؛ لذا فإنّ كلمة الخلق استقرّت أوّلًا في القلب، ثمّ نطقَ بها اللسان، ليتمّ خلق كلّ الموجودات.

ملاحظات:

- اشتركتْ معظمُ عناصر الخلق الأوّل مثل المياه الأزليّة نون والتلّ الأزلي بن بن بين كافّة نظريات الخلق، واختلفت فقط في نسبتِها إلى المكان الذي حدثَ فيه الخلق، ولكنْ ألا تلاحظ معي تشابهَ تلك الفكرة مع فكرةِ الطّوفان في قصّة سيدنا نوح؟

- لاحظْ تشابه الأسماء بين آتوم الإلهِ الأوّل وآدم الإنسان الأوّل، نون المياه الأزلية ونوح النّبيّ الذي ارتبط بالطوفان.

- لاحظ تشابهَ فكرةِ الخلق في نظريّة منف حيث اعتمد الإلهُ الخالق على الكلمة، وبين التصوّر الإسلاميّ للخلق «إنّما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كنْ فيكون».

***

المخطوطةُ الرّابعة: أسطورةُ العاشقين ١

لقد أنجبَ جب ونوت أربعةَ آلهة كما قرأنا في المخطوطة السّابقة، هُم: أوزوريس، إيزيس، ست، نفتيس. وقد تولّى أوزير حكمَ مصر، وتزوّج من أخته المحبّة إيزيس، الحقّ أنّه كان ملكًا طيبًا، أحبّه المصريّون للغاية، ونعموا أثناءَ حكمه بالخير الوفير إلّا دوام الحال من المحال كما يقولون.

ستّ الذي كان حاكمًا على الصّحراء قد أكلتْه الغيرة من أخيه المحبوب من العامّة، والذي تزوّج من إيزيس الُمخلصة، في الوقت الذي يسكن ستّ الأرض الُمجدبة التي زادته قسوةَ وحدة طباع تكرهه العامة، وكانوا يتّقون شرَّه بكافّة السّبل، لن يستمرّ هذا الوضع طويلًا، فثمّة شيء خطير يدبّره ستّ، ولكنْ ما هو؟

كان ذلك الحفل الذي أقامه ستّ مُبهرًا بحقّ، الكثيرُ من البتاو والحنقت (الخبز والجعّة)، وقد بدا أوزوريس مسرورًا بالتّغير الذي طرأ مؤخّرًا على أخيه ستّ، الذي وقف في منتصف البهو، وقال:

- والآن أيّها السادة الحضور، ويا أشراف كيمت العظيمة، أدعوكم إلى مفاجأة الحفل.

خفتتْ كلّ الأصـوات، وتركّزت حوله الأنظار، ينتظرون بشغفٍ ما ستسفرُ عنه المفاجأة، قبل أن يدخلَ الخدم يحملون تابوتًا مزيّنًا بالذّهب والفضّة والأحجار الكريمة خطفت أبصارَ الحضور، وكلّ منهم يمنّي نفسَه أن يكون لديه تابوتٌ مثله، تعالى صوتُ ست وهو يقول:

- هذا التابوتُ سيكون هديةً لشخصٍ واحد فقط، الشّخصُ الذي سيتناسب حجمُه مع حجم التّابوت سيحصل عليه هديةً منّي.

ولأنّ الموت له قدسيّة خاصّة عند المصري القديم، فقد كانت تلك الهدية لا تقدّر بثمن، فهُرِع كلّ الحضور لتجربةِ الاستلقاء بداخل التّابوت، وسرْعان ما أُجهِضت أحلامُ الجميع بالحصول على التّابوت، إلى أنْ قال ستّ من جديد:

- لِمَ لا يجرّب أخي الملك أوزوريس التّابوت؟

فابتسمَ أوزوريس بطيبتِه المعهودة، واستلقى داخل التّابوت، وما أنِ استقرّ بداخل حتّى أقبل ست وأعوانُه فأغلقوا التّابوت بإحكام، وألقوه في النّيل أمام نظرات الحضور الذّاهلة.

انعكسَ ضوء خونسو (إله القمر) على صفحة النّيل التي تحمل صندوقًا من خشب الصّندل، دون أنْ يدري أحدٌ أنّه يحوي جسدَ الملك الجليل، مسافة طويلة تلك التي قطعَها التّابوت حتّى وصل إلى مدينةٍ تسمّى الجبيل (تقع بلبنان الآن)، واستقرّت هناك حيث نبتتْ شجرةُ الجميز المقدسة فوق التّابوت، في الوقت الذي لم تدّخر

إيزيس وسْعًا لإيجاد أوزوريس، وأخذت تجوب أقاليمَ مصر واحدًا بعدَ الآخر، متّبعة مسارَ النيل، وبعده خاضت البحر تبحثُ عن زوجها الفقيد، وقد انضمّت لها أختُها نفتيس، حتّى وجداه أخيرًا بالقربِ من شجرة الجميز..

«ملقًى على الشّاطئ تجدينه، ابكِ أخاك يا إيزيس»

تقولها نفتيس في لوعة، فتجيبها إيزيس بلوعةٍ أشدّ:

- ابكِ أخاك نفتيس، فلم يعدْ على هذه الأرض خيرٌ من بعده.

ثمّ باستخدام قدراتِها السّحرية والعلاجيّة تساعد إيزيس زوجَها وأخاها أوزوريس على العودة إلى الحياة.

الفرحةُ تغمرُ وادي النّيل بعد عودة الملك أوزوريس، الكلّ تملؤه السّعادة، وحدَه ست تملّكه الغيظُ وقرّر أن يتأكّد من مقتل أوزوريس هذه المرّة، وفي الليلة التّالية ينقضّ عليه، بينما يسير على ضفافِ النّيل، ويطعنُه بخنجره، فيقضي عليه في الحال، ثمّ يقطع جسدَه إلى اثنين وأربعين جزءًا ويرتحلُ عبْرَ أقاليم مصر، فيجعل في كلّ إقليم جزءًا من جسده، هذه المرّة لن ينجو أبدًا.

ولكنْ هل هذه هي نهايةُ أوزوريس بالفعل؟! لقد انتهتِ المخطوطة إلى هنا، ولم يعد لدي ما يكفي من الشّموع لقراءة المخطوطة التّالية، أظنّ أنّنا يجب أن نؤجّل معرفة بقية الحكاية إلى الغد.

«فليشملك الإلهُ برحمته، أيّ إيزيس المسكينة، أيّتها الزّوجة المخلصة الوفيّة، فليرعاك الإله، يا مَن طفْتِ أقاليمَ مصر الاثنين والأربعين، تجمعين أشلاءَ أوزوريس، بينما دموعُك تنهمر سيولًا حتّى فاض بها النّهر المقدّس، كم كانت رحلتُك شاقّة أيّتها المباركة، لكنّك نجحت في النهاية في جمْع كافّة أجزاء الجسد باستثناء أنفه، ولكن لا يهمّ، فها هو جسدُ أوزوريس أمامَك مسجّى على أرض كيميت الطيّبة، ودموعُك الطّاهرة تغسل عنْ وجهِه آثارَ الوحل والطّين، برعايتك أيّ إيزيس وبمساعدة أنوبيس، تحنّطين جسدَ أوزوريس، وتمْنحين زوجَك الخلود، ومن الروح الكامنة فيه يلقي بداخلك بذرته، تلك البذرةُ المحمودة التي تنمو في أحشائك تسعةَ أشهر، حتّى إذا جاءك المَخاض، وتلدين حورس الصّقر، ثمّ تدْفعين به إلى تحوت ليعلمه الحكمة والمعرفة، وتربّينه في أحْراش الدّلتا، حتّى يشتدّ ساعده، ويطلب ثأرَ أبيه، بوركت أيّ إيزيس الطيبة».

وعلى مدار سنواتٍ طوال قضتْها إيزيس مع ابنها حور في أحراش الدّلتا يعانيان شظف الحياة وقسوتَها، إلّا أنّها لم تنسَ ثأر زوجها قط، فهي تعدّ حورس ليأخذ بثأره، ويعود ليرثَ عرشه وحكمَ مصر، سنوات طوال قضتْها إيزيس وهي تحكي لحورس عن أبيه وعدله وطيبتِه، وعن يد الغدر والشّر التي حاولت مرارًا قتلَه واغتياله، بينما حورس ينصتُ لها بانتباهٍ، ويتشرّب قلبه كراهية عمّه ستّ يومًا بعد يوم.

وأخيرًا، نضج حورس، وصار شابًّا فتيًّا، وعليه أن يستردّ عرشَه، وبالفعل يتوجّه حورس للمحْكمة العليا المكوّنة من الآلهة التّسعة الأولى ليقدّم مظلمته، بينما يقدّم ست دفاعاته، بدا للجميع أنّ الطّريقة السلميّة لن تجدي نفعًا، لذا كان لزامًا عليهما أن يلجأ كلّ منهما إلى العنف، بينما انقسمت الآلهة لفريقين، كلّ منهما يؤيّد أحدهما، لقد صار الوضع غايةً في الخطورة.

ثمانون عامًا من الصّراع المرير، ثمانون عامًا من المعارك المدمّرة، فقدْ فيها حورس عينه اليُمنى حتّى أعادتها له أمّه إيزيس بقدراتها الشّفائيّة، بينما أصيب ستّ بإصابات بالغة، لقد حاول أتباعُ كلّ إلهٍ مساندتَه في معركته، ولكن في النهاية كانتِ الغلبةُ للحقّ، والنّصرُ للوريث الشّرعي، لقد انتصر حورس أخيرًا.

وفي حفلٍ مَهيب اجتمعت فيه الآلهة جميعًا تمّ تتويج حورس حاكمًا شرعيًّا لكيميت، بينما تمّ نفي ستّ خارج البلاد، وصارت منذ ذلك الوقت إيزيس أيقونةً للزّوجة الوفيّة والأمّ الرّحيمة، وصار حورس رمزًا لانتصار الحقّ على الشّر الذي مثّله ستّ.

ملاحظات:

- لاحظِ التّشابه في الصّراع بين أوزوريس وستّ، وبين هابيل وقابيل.

- لاحظِ التّشابه بين ولادة حورس وبين ولادة السّيد المسيح، كلاهما ولِدَ بغير علاقة بين ذكر وأنثى.

- منذُ تلك اللحظة التي اعتلى فيها حورس العرشَ أصبح كلّ مَن يأتي بعدَه يتمثّل به وكأنّه ظلُّ حورس، ابن حورس، ممثّل حورس.

- أصبحتْ عينُ حورس رمزًا قويًّا من رموز الماسونية؛ حيث تدلّ على الوعي والمراقبة معًا.

- بعضُ النّاس يقارنون بين عين حورس وعين المسيخ الدّجال، ولكن هذا ما لم يثبت صحّته.

المخطوطةُ السّادسة: سيّد الأرضين

الآن تشهدَ كيميت (مصر) مخاضَ التّوحيد بين المملكتين، تحدّثنا المخطوطاتُ عن محاولاتٍ عدّة قام بها العديدُ من حكّام المملكتين لتوحيد البلاد تحت رايةٍ واحدة، وقد اقترب أحدُهم بشدّة من إجراءِ هذه الوحدة، وهو الملك العقرب- هو ملكٌ مصريّ حقيقيّ، وليس ذلك المصارع الشهير الذي قدّم سلسلة أفلام هوليوديّة بذات الاسم- حيث استطاع العقرب توحيدَ البلاد، لكنّه لسبب مجهولٍ لم يستطعِ الحفاظَ على هذه الوحدة طويلًا، وسرعان ما عادت كيميت للانقسام مرّة أخرى.

ها قدْ أشرقت شمسُ رع سعيدةً على سيّد الأرضين وصاحب التّاجين، نسر الجنوب، ثعبان الشّمال، تباركُه أشعّةُ رع في قاربه المقدّس، مينا نارمر، الذي جاء من طيبة في أقصى الجنوب ليوحّد كيميت، ويخضع مملكة الشّمال، فالمجدُ لسيّد الأرضين.

شدّ الملك مينا قامتَه باعتدادٍ وهو يمرّ بين قادته وأمرائه، وقد ارتدى التّاج الأبيض المميّز لحاكم الجنوب بعد أنْ أخضع كافّة إماراته وأقاليمه تحتَ حكمه، حتّى استوى جالسًا على عرشه، ثمّ أشارَ إلى

الأمراء بالجلوس فجلسوا متأدّبين في حضرته، بينما أمسك بال «حقا» (صولجان الحكم المصري) بيده اليُمنى بقوّة في إشارةٍ لإمساكه بزمام الأمور، قبل أن يقول بصوتٍ عميق هادئ النّبرات، واثقها:

- مرحبًا بكم أي حكّام الأقاليم الجنوبيّة في قصري المتواضع، أرجو أن تكونوا قد ارتحتم من سَفَركم، فأنا أريدُ استشارتكم اليومَ في أمرٍ هام.

⏮ ارتفعتْ همهماتٌ متسائلة، بينما قال أميرُ طيبة:

- كلّنا رهنُ إشارتك يا مولاي.

- كما تروْن جميعًا، فقد سادَ النّظام في مملكتنا بالجنوب، واجتمعت كلمتُنا على قلب رجلٍ واحد، واستقرّت الحياةُ بنا، ولكنّي أطمحُ في أن أخضع مملكةَ الشّمال، وتصبح كيميت مملكةً واحدة قويّة.

جاوبه الأمراءُ بعباراتِ الاستحسان والمديح..

- نعْمَ الرّأي يا مولاي.

- فلينصرْكَ رع يا مولاي.

- المجدُ لسيّد الأرضين وصاحب التّاجين.

أدخلتِ العبارةُ الأخيرة السّرورَ على قلب مينا، والأمراءُ مِن حوله يهتفون، المجدُ لسيّد الأرضين وصاحب التّاجين.

قضى مينا شهورًا عديدة يجهّز جيشَه، ويتابع تدريباتِه أوّلًا بأوّل، حتّى شعر أنّه قد أصبح جاهزًا لإخضاع مملكة الشّمال، فانطلق من

أبيدوس (قرب سوهاج)، متّجهًا شمالًا بحذاء النيل وهو يخضع أقاليمَ الشّمال واحدًا تلو الآخر، بينما أخبارُ انتصاراته تجوب أرجاءَ كيميت، وأخيرًا انْهارت بوتو عاصمةُ الشّمال، وأصبحت مصر موحّدةَ تحت قيادة واحدة وحكومة مركزية واحدة.

بعد استسلامِ ملك الشّمال، وإحْكام السّيطرة على كافّة أنحاء البلاد، أقام مينا قلَعةً في منتصف المَسافة بين المملكتين (ميت رهينة، مركز البدرشين) ليستطيعَ من خلالها حكمَ البلاد، وأسماها «من نفر» أي الميناء الجميل، والتي أطلقَ عليها الإغريق- فيما بعد- ممفيس، والتي احتفظتْ بأهميّتها الدينيّة والسياسية لعقود طويلة.

كانت وحدةُ مصر أمرًا حتميًّا لا جدال فيه، وسواء طالَ الزّمان أم قَصُر، فقد امتازت مصر بعدّة امتيازاتٍ جعلت من وحدتها أمرًا ميسورًا، فقد سكنها شعبٌ واحدٌ له خصائص ومميزات واحدة، بل ويتشابه في سُبل المعيشة، واعتماده على الزّراعة، واستئناس الحيوان، وصيد الأسماك، كلا الشّعبين تكلّم ذات اللّغة، واعتنق ذات المعتقدات، كما أنّ التّبادل التجاري المستمرّ طوال العام بين الشّمال والجنوب، جعل البلاد شبه موحّدة فعليًّا حتّى لو انقسمت سياسيًّا وإداريًّا، بالإضافة ربط نهر النّيل بين المملكتين ممّا سهّل التّواصل والانتقال بينهما، كلّها عوامل جعلت من الوحدة قدرًا محتومًا، فقط احتاج الأمرُ لرجل قويّ أعدّ عدّته جيدًا، ويجعل الهدف واضحًا نصبَ عينيه ليحقّق الحُلم، الحكومة المركزية الأولى في تاريخ الإنسانية.

ملاحظات:

- تمّ تخليد ذكرى انتصار مينا على الشّماليّين في لوحة نارمر، المحفوظة في المتحف المصري بالقاهرة، والتي أوضحت أسْرَ ستّة آلاف أسير من جنود جيش الشّمال.

- أصبح مشهدُ انتصار الملك على أعدائه من المشاهد المميّزة لكلّ حكّام مصر بعد ذلك، حيث سجّلوا هذه المشاهدَ على صروح المعابد وجدران المقابر.

- اسمُ الملك مينا هو تحريفٌ للكلمة المصريّة القديمة «مينى» بمعنى يؤسّس أو يشيد.

- هناك جدلٌ حول شخصيّة الملك مينا، هل هو الملك العقرب، أم الملك عحا، أو أنّه شخصية مستقلّة؟

المخطوطةُ السّابعة: دجسر «الجسدُ المقدّس»

كيمت تزدهرُ ويعلو شأنُها، لقد انتظمتِ الإدارات، وخضعت الأقاليمُ لملك مصر سيّد الأرضين وصاحب التّاجين، كان نظامُ الدّولة أقربَ إلى الإقطاع، حيث يعمل الفلّاحون ثمّ يبيعون محاصيلَهم إلى الدولة لتخزنها في شون معروفة مسبقًا، بعد أن يقوم الفلاحُ بالاحتفاظ بجزء من محصولِه لاستخدامه الشّخصي، وللقيام بعمليّات المقايضة المختلفة، وباستقرار النّظام السّياسي وانتشار الأمن، تبلْورت الأفكارُ الدينية عند المصري القديم، وحين نتحدّث عن الأفكار الدينية في مصرَ القديمة فنحن نتحدّث عن أهمّ ركيزتين فيها:

- عقيدةُ الملك الإله: حيث كان لملكِ مصر قداسةٌ معيّنة، تغيّرت باختلاف العصور، بين أنْ يكون ابنَ الإله أو النّاطق باسمه، أو ظلّ الإله؛ أيّ مَن ينوب عنه، وبين أن يكون هو إلهًا في ذاته.

- عقيدةُ البعث والخلود: رفضَ المصري القديم أنْ تنتهي حياته بهذا الشّكل، كما أنّ مراقبته الدّائمة والدقيقة للظّواهر الكونية والطبيعية من حول مثل شروق الشمس وغروبها، ثمّ شروقها من جديد، مجيء الفيضان كلّ عامٍ بانتظام، حركة الأفلاك والأجرام السماوية، كلّ هذه الظواهر جعلتْه يؤمنُ أنّه ينطبق عليه ذات القوانين، فهو يحيا ثمّ يموت، وبعدها يبعث من جديد.

هاتان العقيدتان ستكونان محورَ الأحداث على أرض كيمت في كلّ العصور القادمة، والتي من أجلِهما ستبنى مقابرُ وأهرامات ومعابد، ومن أجلها ستقوم ثورات، وتفكّك الوحدةُ من جديد.

نحنُ الآن في عهد الملك دجسر- أي الجسد المقدّس- أو زوسر كما يعرفه العامّة، دعونا نجلس في ذلك الرّكن القصيّ من القاعة، ونراقب في صمتٍ ما يحدث، فها هو الوزير أمحوتب قادمٌ يتقدّم نحو العرش، قبل أنْ ينحني باحترامٍ شديد وهو يقول:

- السّلام على النّاطق باسم حورس، سيد الأرضين، مولاي دجسر العظيم.

- أهلًا بك، أي وزيري أمحوتب، تتغيّب عنّي كثيرًا هذه الأيام يا أمحوتب! ما الأمر؟

ينحني أمحوتب بخضوعٍ أكبر، في محاولةٍ منه لتلافي غضب دجسر، ويقول:

- أعتذرُ عن غيابي المتكرّر يا مولاي، ولكنّي أفكّر في أمرٍ ما قد يكون من شأنه أنْ يسعد جلالتكم.

- أيّ أمر هذا الذي سيُسعدني، ويتسبّب في تغيّبك بهذا الشّكل؟

يتنحنح أمحوتب بصوتٍ مسموع، وكأنّه يستعدّ لإلقاء خطبةٍ عصماء قبل أن يقول:

- أنت تعلمُ يا مولاي أنّ كلّ مَن سبقوا جلالتكم من ملوك كيميت العظام كانت لهم مقابرهم في مدينة أبيدوس في الجنوب، ولكنّي أفكّر أن نجعل مقبرتك هنا بالقرب من منف، كما أنّني أفكّر في أنْ تكون المقبرة صرحًا هائلًا، وليست مجرّد بناء مستطيل الشكل «المصطبة».

- ممم، كلامُك يبدو معقولًا رغمَ غرابته يا أمحوتب، ولكنْ ما شكلُ ذلك الصّرح الذي ستبنيه؟

أجاب أمحوتب بحماس، وقال:

- سنبني بضعَ «مصاطب» فوقَ بعضها، بحيث تكون كلّ «مصطبة» أصغرَ قليلًا من سابقتها، حتّى تصبحَ على شكل هرميّ مدرّج، تساعد روحُ مولاي في ارتقائه حتّى تصل إلى قارب رع المقدّس، وتشاركه رحلته إلى العالم الآخر.

- فكرةٌ جيّدة يا أمحوتب، ولكن......

بدا التّردّد على وجْه الملك ممّا دعا أمحوتب إلى أنْ يقول في قلق:

- ولكن ماذا يا مولاي؟

- فكرتُك هذه ستكلّفنا الكثير، فسنحتاجُ إلى آلاف العمّال والمعماريّين، وقد يؤثّر هذا على الزّراعة، ويعرّض كيميت للمجاعة.

- عندك حقّ يا مولاي، سأنظرُ في هذا الأمر، وأجيئك بحلٍّ قاطع له.

انصرفَ أمحوتب تاركًا دجسر هائمًا يفكّر في هذا الصّرح الهائل الذي سيخلّد اسمه، ولكنه في المقابل سيستنزف مواردَ الدولة.

والآن، دعونا ننتقلُ عبْرَ الزّمان والمكان معًا لنرى إلى أين وصل الحلُّ بصديقنا دجسر ووزيره أمحوتب، نحنُ الآن في صحراء سقّارة، بينما وقف دجسر ووزيره فوق ربوةٍ عالية يراقبون آلافَ العمّال وهو ينقلون الأحجارَ من المحْجر القريب، وحتّى موقع البناء، في حين يقوم آخرون بنحتِه وصقلِه، وآخرون يضعونَ كلّ حجرٍ في مكانه في البناء حسب تعليمات المعماريّين الذين يشرفُ عليهم أمحوتب شخصيًّا الذي قال:

- كما ترى يا مولاي؛ فقد جمعنا الفلاحين في موسم الفيضان حين لا تتطلّبهم الزراعة، ليقوموا بالبناء في مجموعةِ جلالتكم الجنائزيّة، وما أن يحلّ موسمُ البذر حتّى نعيدهم إلى الحقول، وبذلك لن تتضرّر الزراعة.

ظهرتْ علاماتُ الرّضا على وجه دجسر ملك مصر العليا والسّفلى، وهو يتابع العملَ السائر على قدمٍ وساق، دون أنْ يلاحظ

أنّه بذلك قد حرم شعبَه من الرّاحة، وأنّهم سيضطرّون للعمل المتواصل طوال العام.

ملحوظات:

- تمّ العثورُ على لوحة حجريّة تنتمي للعصر البطلمي، تتحدّث عن سبع سنوات من الجفاف مرّت بها مصر في عهد دجسر.
- هل للأمر علاقةٌ بسنوات سيدنا يوسف العجاف؟! ربّما.
- هل كانت تلك السّنوات بسبب انتزاع الفلاحين من أراضيهم قبل التوصّل إلى حلّ اختيار موسم الفيضان؟ ربّما.

المخطوطةُ الثّامنة: بناةُ الأهرام

ماذا تقول؟ أحدُهم أخبرك أنّ بناةَ الأهرام كانوا من قوم عاد؟ وماذا أيضًا؟ هممم، كائنات فضائيّة؟ أطلانتس؟ لا.. لا، هذا الأمرُ لا يجوز السّكوت عليه، حسنًا تابع الحلقة مع أصدقائنا لتعرف مَن هُم بناةُ الأهرام، هيّا بنا.

الحقّ أنّ الأمر محيّرٌ بالفعل، تلك الصّروح العملاقة أضخمُ من أن يستوعبها العقل، أيّ عقل يمكن أن يستوعب أنْ تُجنّد مواردُ دولة بكامل ثرواتها وشعبها لبناء صرحٍ كهذا يُدفن فيه الملك، ولماذا كلّ هذه الضّخامة؟ لقد دفعت ضخامةُ الهرم الأكبر الكثيرين لإيجاد تفسيرات شاذّة وغريبة لتتّسق مع إعجازه، إلّا أنّني لا أرى ما يمنع أن يكونَ المصري القديم بإمكاناته المحدودة والبدائية آنذاكَ في بناء صرحٍ بهذا الشّكل، الأمرُ فقط يحتاج إلى أنْ ننظر من زاوية رؤيةٍ مناسبة.

الكهنةُ يعملون على قدمٍ وساق على بلورة عقائدِ الديانة، وكما ذكرنا آنفًا العملَ على ترسيخ عقيدتيِ البعث والخلود والملك الإله، والإنسانُ يميل بفطرته للتّدين وللبقاء، فسيطرت عليه فكرة الدّين الذي سيمنحه حياةً أخرى دائمة، والملك الإله الذي يملك أرضَ كيمت ويحكمُها، وهو حلقة الوصْل بين عالمنا وعالم الآلهة، لقد استقرّت هاتان العقيدتان في وجدان المصري القديم، وآن لها أن تُثمر، دعونا نرى..

ارتفعَ صوتُ الملك خوفو، وقد احمرّ وجهُه غضبًا وهو يصيح في قائدِ الجند قائلًا:

- ماذا؟ سُرقت!!؟ أيّ هراء هذا!

- أأأ، يا مولا..

قاطعَه خوفو صارخًا:

- لا أريد مبرّرات يا سخم - وي، كيف تسرق مُقتنيات مقبرة أمّي الملكة حتب- حرس؟ أين كان جندُك يا قائدَ الجند الهمام؟!

- يا مولاي، أرجو أن..

مِن جديد، يقاطعه خوفو وقد استبدّ به الغضب:

- اغربْ عن وجهي الآن.

انصرف سخم - وى شاكرًا رع أنّ الملك لم يقطع عنقَه بعد، بينما جلس خوفو على عرشه، ولهيبُ أنفاسه يكاد يحرقُ القاعة الملكيّة من شدّة سخونته، قبل أن يتمالك نفسَه قليلًا، وينادي بصوتٍ أهدأ:

- أين الوزير؟ استدعوا حم - إيونو حالًا.

لم تكدْ تمرّ دقائق حتّى دلف حم - إيونو، وهو ينحني في كلّ خطوة يخطوها باتّجاه عرش مليكه داعيًا كلّ الآلهة في سرّه أنْ تحميَه من غضب خوفو، وقال:

- أمرُ مولاي خوفو سيّد الأرضين المحمي من خنوم؟

- اسمعني جيّدًا يا حم - إيونو.

شحذَ حم- إيونو حواسَّه مستمعًا لخوفو وهو يقول:

- أريدُك أنْ تأتيني بلصوص المقابر هؤلاء لأنفّذ فيهم مشيئتي، وتستعيد محتويات المقبرة بالكامل.

- أمرُ مولاي خوفو.

- كما أنّني أريدُ البدء في بناء مقبرتي، ولكنّي أريدها صرحًا هائلًا يشبه هرم أبي سنفرو، ولكنّه أضخمُ بكثير، بكثير يا حم - إيونو.

- كما تأمرُ جلالتكم، سنبني هرمًا لا مثيلَ له، ولكن..

نظرَ له خوفو نظرةً جمّدت الدّماء في عروقه وهو يقول:

- ولكنْ ماذا؟

أجابَ حم- إيونو بصوتٍ مهتزّ النّبرات:

- أخشى يا مولاي أنّ هذا قد يستغرق فترةً طويلة.

- لا يهمّ يا حم - إيونو، المهمّ هو هرمُ خوفو العظيم.

قالها وعيناه تشردان نحو الأفق بأمل، وطموح، بلا حدود.

وعلى مدار عشرين عامًا من العمل الدّءوب، وبتسخيرٍ لكافّة موارد الدّولة لبناء مقبرة الملك الإله، الكلّ يمنّي نفسَه أن يتذكّره

الملك في العالم الآخر، فيشفع له عند الآلهة، ويمنحه الخلود في حقول اليارو (تصوّر الجنّة عند المصري القديم).

وأخيرًا تمّ البناءُ الذي أراده خوفو، لقد بدا الأمرُ وكأنّه ترسيخٌ لعقيدة الملك الإله، وليس مجرّد بناء فحسب، إنّه مشروعٌ قوميّ تساهم فيه كلّ طوائف الشعب، عن رضا تارةً وبالإجبار تارة أخرى، لقد أقامتِ الصّين شيئًا مشابهًا عندما بنَتْ سورَ الصّين العظيم، مشروع يجتمع كلّ أفراد الشعب حوله، كان المصري القديم يبني رمزًا، ويجسّد عقيدة، وليس مجرّد صرح هائل.

تكرّر الأمرُ بعد وفاة خوفو، وتولّى ابنه خفرع حكمَ مصر، ليبني هرمًا مشابهًا لأبيه، وإن كان أقلّ منه ارتفاعًا، وكذلك فعلَ مَن بعده من – كاو – رع، لقد كان عهدًا عظيمًا معماريًّا وفنيًّا ودينيًّا.

ملاحظات:

– لا أصلَ لكلّ الرّوايات التي تقول إنّ بناةَ الأهرام من قوم عاد؛ حيث أنّهم كانوا يسكنون أرضًا بالجزيرة العربية تسمّى الأحقاف، كما أنّ المصري القديم توافرت لديه كلّ العلوم الفلكيّة والمعمارية والهندسية، بالإضافة إلى الأدوات المطلوبة لبناء الهرم.

– القولُ بوجود كائناتٍ فضائيّة لم يتمّ إثباته من نفيه، حتّى نؤمن بأنّهم بناة الأهرام.

– لاحظِ التدرّج الذي حدث في ارتفاع أهرامات الجيزة ودقّة بنائها لترى كيف أنّ موارد البلاد قد تأثّرت بشكل غير عاديّ.

- بداية من الأسْرةِ الخامسة لم يعدِ الاهتمام بشكل الهرم الخارجي، وظهرت متونُ الأهرام لأوّل مرّة، والتي سنتحدّث عنها بالتفصيل.

وأخيرًا، انتظروا حلقةً مميّزة، وخاصّة جدًّا غدًا إنْ شاء الله.

المخطوطةُ التّاسعة: الثّورة

الأمرُ بدأ منذ عهد الدّولة القديمة، الملك يجمع كلّ السّلطات في يديه: ملك، إله، مسيطر، مهيمن، الكلّ يخضع لإرادته، الكلّ ينفّذ مشيئته، ولذلك تجمّع حوله من كبار الموظّفين المنتفعين من وظائفهم- في كلّ زمانٍ ومكان-، ويزدادون ثراءً تدريجيًّا نتيجة الضّياع، والأراضي التي يهبها لهم الملك، حتّى وصل الأمرُ في منتصف عهد الأسْرة السّادسة أنْ عادت مصر إلى سيرتها الأولى، مجموعة من الأقاليم المستقلّة، وتفكّكت الوحدةُ من جديد، وصارت البلادُ عبارة عن مقاطعاتٍ تتنافس فيما بينها على المواردِ وفرضِ النفوذ، حتّى لم يعدْ للملك أو السّلطة المركزية أيّ دورٍ يُذكر..

لقد بدأ الشّعب يعي للمرّة الأولى في تاريخه عبرَ ألف عامٍ أنّ الملك ليس بهذه القوّة، ليس كما صوّره له الكهنةُ والفنّانون عبر التّماثيل بتلك الضّخامة والمثالية والقوّة، لقد أدرك الشّعبُ- لأوّل مرّة- أنّ الملك عليه واجباتٌ تجاه شعبه، وعليه أنْ يقوم بها، لا أن يبدّد موارد الدولة لمجده الشّخصي؛ لذا ثار الشّعبُ وتوقّفت الزّراعة، وقام مجموعةٌ من المفكّرين والفلاسفة أو المصلحين الاجتماعيّين بإعادةِ صياغة وتكوين وعي الشّعب المصري، كما سنرى.

أشرقتْ شمسُ رع في الأفق، وهي ترسلُ أشعّتها الذّهبية إلى كيمت لعلّها تستفيق من كبوتها التي أصابتْها، فليلةُ أمس لم تتركْ حجرًا قائمًا على حجرٍ في كيمت، النّاس أصابها الجنون، الماشية هائمةٌ على وجهها لا تجدُ مَن يرعاها، الأرضُ الزراعية تفتقد فلّاحيها، الخراب يعمّ كلّ شيء، بينما جلس الحكيمُ إيب - ور في منزله يتأمّل بحسرةٍ ما آل إليه حالُ كيمت الحبيبة، بينما ترتجف ريشتُه بين أصابعه وهو يكتبُ على برديّة أمامه ما يلي:

الوباء في كلّ أنحاء الأرض..

الدّم في كلّ مكان، النّهر هو كالدم..

نتيجةً للهلاك الذي حلّ البارحة؛ لقد استلقى الناسُ مُتعَبين مثل الكتان المقطّع،

إنّ مصر الدنيا تبكي..

القصرُ بكامله دونَ موارده التي كانتْ ترِدُه من القمح والشّعير والإوزّ والسّمك،

المغفرة، لقد هلكتِ البذورُ في كلّ جانب،

إنّ الارتباك والضّجةَ المخيفة امتدّت في كلّ الأرض،

لم يكنْ هناك خروجٌ من القصر، ولم يستطع أحدٌ رؤية وجه رفيقِه لمدّة تسعة أيام..

لقد تدمّرت البلدان بالمدّ المحتوم (الطّوفان)، لقد عانت مصر العليا من الخراب..

الدّم في كلّ مكان..

والطّاعون ينتشر في جميع أنحاء البلاد، لا أحد حقًّا سيبحر إلى بيبلوس اليوم،

ماذا سنفعل من أجل الإوز، من أجل مومياثنا؟ لقد نضب الذّهب،

لقد عاد الرجالُ مشمئزّين من تذوّق الكائنات الحية وهم متعطّشين للماء..

ذلك هو ماؤنا، وتلك هي سعادتنا، ماذا ستفعل بالنّسبة لذلك؟ كلّ شيء تدمّر..

لقد تدمّرت البلدان، وأصبحت مصر العليا قاحلة،

لقد انقلبت المساكن بلحظة،

ها هو الفرعون قد فُقِد في ظروفٍ لم يحدث مثلها من قبل..

ملاحظات:

- بعضُ المصادر تقارنُ بين ما ورد في بردية إيب - ور، وما وردَ في القرآن من الإنْذارات العشر التي أرسها الله إلى فرعون «الدم- الضفادع- القمل- الطوفان،.. إلخ»

- ببعض الخيال يمكنُ أن نربط بين لوحةِ المجاعة التي تحدّثنا عنها من قبل في عهد زوسر وبين ما ورد في بردية إيب - ور؛ حيث إنّه من المعروف أنّ سيدنا يوسف قد أتى إلى مصرَ هو وبني إسرائيل، ومن نسله جاءَ سيدُنا موسى، ثمّة تسلسل منطقيّ للأحداث ولكنْ لا يوجد أيّ دليل تاريخي عليه حتّى الآن.

- على الأغلب أنّ ما حدث في مصر كان ثورةً شاملة توقّف على إثرها الإنتاجُ الزّراعي والصّناعي، وانعدم فيه الأمنُ نظرًا لضعف السّلطة المركزية وانشغال الإقطاعيين بالتّنافس والحرب- ألا يذكّرك هذا الوضع بوضعٍ مُشابه؟- وزيادة نفوذهم.

المخطوطةُ العاشرة: مونتو راضٍ

أربعةُ قرون مرّت على أرض كيمت وهي مفكّكة الأوصال، يتنازع حكّامُ أقاليمها فيما بينهم، النّاس يعانون شظفَ العيش، الكلّ يشعر بالهزيمة والعار، الكلّ يشعر باليأس، لقد انهارت كيمت.

وحدَه لم ييأس ولم ينْهزم، لم يفكّر في انكسارٍ دام أربعة قرون، خرج منتوحتب من قلب طيبة (الأقصر) ليوحّد الصفوف من جديد، واستطاع أخيرًا أنْ يوحّد كيمت تحت حكمه، وانقضى عهد الفوضى وغياب الأمن، فقد أخمد الثّورات التي قامت ضدّه حتّى استتبّ الأمن، وفرح شعب مصر بعودة الوحدة من جديد.

بدأ منتوحتب حياتَه أميرًا لطيبة خلفًا لأبيه، وحملَ لقبَ «سي عنخ إيب تاوي» ومعناه «الذي يحمي قلب الأرضين»، وظلّ سلطانه محصورًا بين الجندل الأوّل جنوبًا حتّى أهناسيا شمالًا، وقامت بين مملكة أهناسيا (محافظة بني سويف) ومملكة طيبة هدنةٌ مؤقّتة ما لبثت أنِ انهارت في العام الرّابع عشر من حكمِه، عندما حاول ملك أهناسيا استعادةَ مدينة «ثني»، كان خيتي الثالث حاكم أهناسيا فقَدَها في حربه مع إنتف الثّاني حاكم طيبة، ممّا أدّى إلى استئناف العداء بين طيبة وأهناسيا، وقاد منتوحتب

الثاني هجومًا ضخمًا على أهناسيا، أسفر هذا الهجومُ عن سقوطها، وبسط سلطان منتوحتب الثّاني على مصر العليا كلّها، وبعد ذلك أخذ يبسطُ سلطانه على مصر السّفلى، وقد استغرقَ هذا العمل سنواتٍ طويلة ربّما حتّى العام التاسع والثلاثين من حكمه، ففي هذا العام اتّخذ لقبًا جديدًا هو «سما تاوي» ومعناه «الذي وحّد الأرضين» أي مصر العليا والسّفلى، وهناك لوحةٌ في متحف تورين بإيطاليا تعود إلى العام السّادس والأربعين من حكم منتوحتب الثاني تُحّدث بأنّ «تقدّمًا طيبيًّا قد حدث بسبب منح الإله منتو الأرضين للملك منتوحتب الثّاني».

حاول منتوحتب الثّاني- في سياسته الداخلية- أنْ يركّز سلطان الحكم في عاصمته، وأن يحدّ من سلطاتِ حكّام الأقاليم، ومنع تداول حكم الأقاليم وراثيًّا، وقد نجح منتوحتب الثاني فيما أراد، فاختفى لقبُ «حاكم الإقليم العظيم»، وغيرُه من النّعوت الضّخمة التي انتحلها حكّام الأقاليم لأنفسهم في عصر الانتقال الأوّل، ولم يعدْ حكّام الأقاليم ينحتون مقابرَهم في أقاليمهم، بل نحتوا أغلبَ مقابرهم حول مقابر الملوك في غرب العاصمة طيبة، كما قام بتعيين الموالين له من طيبة في الوظائف الهامّة والحسّاسة، واستحدث وظيفةً جديدة؛ وهي حاكمُ مصر السّفلى، بعد أن نقل العاصمةَ إلى طيبة.

ولكنّ الأهمّ من ذلك كله، أنّه رغم حبّ المصريين له إلّا أنّه نشأ وعي جديد في كيمت، فبعد أن كان اللّحاقُ بموكب الإله رع حقًّا للفرعون وحده، فكّر النّاس لم لا يكون حقًّا لهم هُم أيضًا، لقد بدأتْ

أولى إرهاصات «الدّيمقراطية»- إذا كان يمكن أن ندعوها كذلك- فصار الشّعب ينظر للفرعون على أنّه واحدٌ منهم، ومثلهم، يقوم بإدارة البلاد لصالحهم، وهو النّهجُ الذي سيسير عليه معظمُ ملوك الدّولة الوسطى كما سنرى، كما ظهر نوعٌ جديد من الكتابات يدعى متون التوابيت، مستوحى من نصوص الأهرام التي ظهرت في الأسرةِ الخامسة، كما سنفصّل لاحقًا في رحلة الميت للعالم الآخر، فابقوا معنا...

المخطوطةُ الحادية عشرة: عصرُ الإصلاحات

لقد آتتِ الثّورةُ ثمارها، وبدا ذلك واضحًا في التطوّر الذي حدث في ظلّ الدولة الوسطى، فقد حرصَ ملوكها على تأسيس بنيةٍ تحتيّة قوية في كيمت، فعمدوا إلى بناء الجسور وشقّ القنوات وزيادةِ الرّقعة المزروعة، حتّى أنّهم نقلوا عاصمةَ البلاد إلى قرب الفيوم، وأقاموا السدود في منطقة اللاهون لحفظ مياه الفيضان أطولَ فترةٍ ممكنة، واستغلالها في الزراعة، بالإضافة لتأسيس أوّل مدينةٍ صناعية للعمّال في منطقة كاهون، ورغم كلّ هذه الإنجازات لم يغفلوا الجانب العسكري لبسط نفوذ الدّولة على المنطقة، فنجد أنّهم حرصوا أشدّ الحرص على إرسال الحملات التّأديبية على الحدود الغربية والجنوبية لكيمت، وبسط سيطرتها على النّوبة وأجزاء من ليبيا، وحملات أخرى استكشافيّة لاستخراج المعادن والفيروز من سيناء، كلّ ذلك ساهم في إنعاش اقتصاد البلاد، وعمّ الرخاء، خاصّة بعد أن حفر سنوسرت الثّالث أوّلَ قناة تربط بين البحر الأحمر والمتوسط

عن طريق نهر النيل؛ ممّا سهّل حركة التّجارة مع بلاد بونط وكريت ولبنان، لقد أشرقت شمسُ كيمت من جديد.

«ما رأيك يا مولاي؟»

قالها خع - كا - رع، وزيرُ الملك سنوسرت الثالث، بعد أنْ عرض عليه فكرةً ألمعيّة بحفر قناة تربط بين البحر الأحمر والبحر المتوسط عن طريق النّيل، وقد بدا أنّها نالت استحسانَ سنوسرت ممّا جعله يبتسم في رضا ويقول:

- فلتباركَكَ آلهة كيمت يا خع - كا - رع، إنّي أحسب أنْ يكون في حفر هذه القناة فائدةٌ عظيمة لبلادنا.

- بالتّأكيد يا مولاي، فبعْدَ حفر هذه القناة سيكون من السّهل علينا نقل البضائع من بلاد بونت إلى فينيقيا (بلاد الشام)، وبلاد مينوس (جزيرة كريت) مباشرة دون الحاجة لنقلها على الدّواب، ممّا يسهّل حركة التجارة بيننا وبينهم، ويعمّ الرّخاء أكثر على أهل كيمت.

- أحسنتَ التّفكير يا وزيري الأمين، إنّي أصدرُ لك أوامري باسم آمون - رع أنْ تحفر هذه القناة.

- شرفٌ لي يا مولاي أن تكلّفني بهذه المهمّة.

قالها الوزير خع - كا - رع وهو ينحني تبجيلًا لمليكه قبل أن ينصرف تاركًا سنوسرت يرى بعينِ خياله، مستشرفًا المستقبلَ القريب حين يعمّ الرّخاء كيمت في عهده، وليخلّد التاريخ اسمَ سنوسرت على جدران المعابد.

وجديرٌ بالذكر أنّ آخرَ ملوك الأسرةِ الثّانية عشرة كانت الملكة سوبك نفر، وقد تولّت الحكمَ بعد وفاة أخيها أمنمحات الرّابع الذي توفّي ولم يكنْ له وريثٌ شرعيّ ذكر، وتعتبر سوبك نفر هي أوّلَ ملكةٍ تحكم مصر بدليلٍ ماديّ ثابت حيث وردَ اسمُها في بردية تورين، وقد حكمتْ ما يقارب الأربع سنوات تقريبًا.

على أنّه- كما علمنا التاريخ- دوامُ الحال من المحال، ففي نهاية الأسرةِ الثّانية عشرة، وبعد وفاة سوبك نفر، بدأت قوّةُ مصر في الضعف مرّة أخرى، لتتعرّض مصر لحادثةٍ هي الأولى من نوْعها في تاريخها، وهي غزو الهكسوس لمصر، ولكن هذه قصّة أخرى.

المخطوطةُ الثّانية عشرة: حقاو خاوست

ماذا!! لا تعرف الـ حقاو خاوست؟ حسنًا يا صديقى، استعدّ إذًا لمقابلتهم، فاليوم سأقدّم لكم بطلًا جديدًا على مسرح كيمت، الـ حقاو خاوست، حكّام الأراضي الأجنبية.

دعوني أصطحبكم في منطادي المتواضع، أعلمُ أنّه لم يتمّ اختراعه بعدُ أيّها المتحذلق، فقط تخيّلوا أنّه يمثّل آلة الزمن أو ما شابه، هيّا.. نحن نعلو ببطء، لا تقلقي يا عزيزتي إنّه آمنٌ تمامًا، نحن الآن نرى أرضَ كيمت بأكملها، ولكنّنا نتّجه شرقًا حيث سيناء، نعم ها هي تستقّر آمنة بين أصبعى بحر القلزم (الأحمر)، لقد تجاوزناها الآن، مازال المنطادُ يحملنا نحو الشّرق، انظروا هناك، هل ترونَ هؤلاء القادمين من منطقة الأناضول؟ إنّهم يسمّون الجنس الهندو-

أوروبي، يبدو أنّهم في طريقهم للهجْرة لسببٍ غير معروف، لكنّهم يجبرون السكّان الأصليّين للشام على الهجرة جنوبًا حيث كيمت، ويبدو أنّه انضمّت إليهم بعضُ الشّعوب السامية في شمال الجزيرة العربية، إنّهم يتّجهون نحو كيمت في أعدادٍ كبيرة، ها هُم أولاء يعبرون سيناء باتّجاه الوادي، ترى هل ستصمدُ كيمت أمامهم؟!!.

في ذلك الوقت كانت كيمت تمرّ بأسوأ فتراتها منذُ عصر الاضمحلال الأوّل، لقد أعلن حكّامُ الأقاليم استقلالهم، فبينما يسيطرُ حكّام الأسرة الثّالثة عشرة على الدّلتا في منطقة سخا (قرب كفر الشّيخ) وشمال مصر، يسيطر حكّامُ طيبة من الأسرةِ الرّابعة عشرة على الجنوب، ونتيجة الصّراعات الدّاخلية بين حكّام الأقاليم تمّ إنهاك الجيش المصري وتفكيكُه إلى فرق متقاتلة، وانعدم الأمنُ، وانتشرت الجرائم، ونتيجةً لذلك ضعفتِ الحالة الاقتصادية لكيمت، لا أظنّ أنّ ذلك هو أفضلُ وضعٍ يمكن تواجه به كيمت الخطرَ المحدق بها.

كما أخبرتك من قبلُ، بدأ هؤلاء الأجانبُ الآسيويّون يفدون إلى مصر بأعدادٍ متزايدة تدريجيًّا بحثًا عن لقمةِ العيش، وهربًا من الجفاف، ومن الجنس الهندو- أوروبّي، كان هذا في أواخر عهد الأسرةِ الثانية عشرة، إلّا أنّهم سرعان ما ازداد عددُهم باطّراد، ولاحظوا ما في كيمت من ضعف وتفكّك، فوحّدوا صفوفهم، واختاروا منهم ملكًا، وهجموا هجمتَهم الشّرسة على مصر حتّى وصلوا إلى منف، وسقطت كيمت في أيديهم.

يرجّح المؤرّخون أنّ الـ حقاو خاوست- أيّ حكام الأراضي الأجنبية- أو الهكسوس قد سيطروا على مصر بأكملها في البداية، ولكنْ تدريجيًّا انحسر نفوذهم، وانحصر في الجانب الشرقي من الدّلتا، وحتّى مصر الوسطى، واتّخذوا من «أواريس» قرب منطقة (تلّ اليهود) عاصمةً لهم، في حين تمتّع الجنوب بنوعٍ من الاستقلال، خاصّة في عهد الملك المصري سقنن- رع، واتخذوا الألقابَ الملكيّة المصرية، وبدءوا المقاومةَ ضدّ الهكسوس لاسترداد ملكهم.

استمرّ حكمُ الهكسوس لمصر ما يزيدُ عن المائة عام، توالى على حُكم مصر ما يقارب من واحد وثمانين ملكًا من الهكسوس، أشهرُهم ديوديموس وخيان وأبو فيس، وقد حرص أكثرُهم على اتّخاذ الألقاب الملكيّة المصرية، والتشبّه بالمصريّين في الملبس والثقافة، كما عبدوا الإله ست واعتبروه شكلًا من أشكال معبودهم بعل، وأقاموا له المعابد، وقدّموا له القرابين، على أنهم لم يهملوا الآلهةَ المصرية الأخرى، فتقرّبوا منها وعبدوها.

ملاحظات:

- كان من ضمن الشّعوب التي جاءت إلى مصر مع الهكسوس شعبٌ يسمّى العبرانيّين، وهو الذي سيخرج منه بعد ذلك بنو إسرائيل.

- هل لاحظت اسمَ المنطقة التي أقام عندها الهكسوس عاصمتهم (تلّ اليهود)؟

- حاول الهكسوسُ الاندماج مع المصريين، والانصهار وسطهم لأنّهم كانوا يبحثون عن وطنٍ بديلٍ عن الذي تركوه، وليس مجرّد توسّع استعماري.

- نشطتِ التّجارة في عهد الهكسوس؛ حيث وجد الأثريّون تمثالًا على شكل أسدٍ في بغداد منقوش عليه اسمُ أحد ملوكهم، كما وجدوا ختمًا منقوش عليه نفس الاسم في أثينا.

- انتصرَ الهكسوس بسهولةٍ شديدة على المصريّين نظرًا لحالة الضّعف والتفكّك التي مرّت بها مصر، كما استخدمَ الهكسوس العجلةَ الحربيّة التي يجرّها الخيل في الوقت الذي لم يكنْ يألف فيه المصريُّ القديم ترويضَ الحصان، ممّا ألقى الرعب في نفوس الجنود المصريّين، أيضًا استخدم الهكسوس نوعًا من الأقواس المركبّة بعيدة المدى عكس الأقواس المصريّة المحدودة، بالإضافة لاستخدامهم أنواعًا خاصّة من السيوف والخناجر لم يعتدْها المصريّ القديم، كلّ ذلك ساعدَ على انتصار الهكسوس، في حين كان الجيش المصريّ يتكوّن من المشاة فقط، وبأسلحة هزيلة للغاية.

المخطوطةُ الثّالثة عشرة: المجاعة

اليوم، أريد أنْ أحذّركم، كلّ ما ستقرؤه الآن هو محضُ افتراضات واستنتاجات وتفسيرات، قائمة على أدلّة واهنةٍ للغاية، نحاول فيها الرّبط بين ما ورد في القرآن والتّوراة وبين ما وجدناه في الحفائر مِن أدلّة قليلة جدًّا وغير قاطعة، لكنّها كافية لتعطينا تصوّرًا ما عمّا حدث في تلك الفترة.

كلّنا يعرف قصّة سيدنا يوسف، وكيف تآمرَ عليه إخوته من أبيه ليتخلّصوا منه، ثمّ أنقذه الله من تدْبيرهم، وجعله عزيزَ مصر، وأتى بهم من البدْو إلى حضَرِ مصر، ولكنّ المشكلة تكمن في «متى جاء يوسف إلى مصر؟»، وفي أيّ عصر تقلّد الوزارة؟

الحقيقةُ أنّ هناك أكثرَ من احتمال، منها مثلًا:

١-أنّه جاء في عهد الملك دجسر (تذكرون حين تكلّمنا عن لوحة المجاعة التي حدثت في عهده)، بالإضافة إلى أنْ كان لدجسر وزيرٌ اسمه أمحتب، والذي كان عالمًا حكيمًا على علمٍ بالطبّ والهندسة، وهي كلّها صفاتٌ تتّفق مع صفات سيدنا يوسف.

٢-أنّه جاء في عهد ملك من ملوك الهكسوس، وأرجحُ الأقوال أنّه جاء مع انهيار آخر أسرة مصريّة وبداية حكم الهكسوس.

٣-أنّه جاء في عهد إخناتون، وهذا أمرٌ غيرُ مرجّح من وجهة نظري؛ حيث لا يوجد أيّ رابطٍ بينهما سوى مناداة إخناتون بالتّوحيد، وهو أمرٌ ربّما يكون تأثّرًا بتعاليم يوسف.

إذًا، على الأغلب جاءَ يوسف إلى مصر في بداية حكم الهكسوس لمصر، وكما علمنا في الحلقة السّابقة أنّ الأوضاع- خاصّة الاقتصادية- كانت في أسوأ حال، وهنا يرى ملكُ الهكسوس رؤيا تفزعه..

- أيّها الحاجب.

يصرخُ أبو فيس ملكُ الهكسوس مناديًا، فيُهْرع إليه حاجبه وهو ينحني تبجيلًا ورهبة قائلًا:

- أمرُ مولاي المطاع.
- اجمعْ لي كلّ رجال البلاط والكهنة والعرّافين، وكلّ مَن يتّصف بالعلم في أرجاء كيمت.
- أمرُك سيّدي.

ينصرفُ الحاجب متعجّبًا من أمر مليكه، بينما يتنهّد أبو فيس بقوّةٍ محاولًا إزالة القلق عن قلبه، فتلك الرؤيا الغامضة تأبى أنْ تتركه يهنأ بنومه منذ عدّة أيام، حتّى لم يعدْ قادرًا على النوم خشية رؤيتها من جديد، قلبُه يحدّثه أنّ تلك الرؤيا لها شأنٌ عظيم، لذا فقد أمرَ بجمع كلّ رجاله ليطلعهم على الأمر؛ لعلّ أحدهم يأتيه بخبرها.

لم يمضِ وقتٌ طويل حتّى التفّ حوله الجمعُ من رجال البلاط والكهنة والعرّافين، فقصّ عليهم خبرَ الرؤيا فلم يجدْ منهم سوى ذلك الرّد البائس.

- إنّها أضغاثُ أحلام يا مولاي، ونحن لا نعلم تفسيرها.

وحدَه ساقيه قال إنّه ربّما يأتيه بتفسير رؤياه؛ بعد أن تذكّر رجلًا عرفه في السّجن يفسّر الرؤى والأحلام.

وبعد أنْ فسّر يوسف الرّؤيا، لم يكتفِ بذلك فأعطاهم نصيحتَه لكيفيّة الحفاظ على القمح أطول فترةٍ ممكنة، كلّ ذلك وهو مازال مسجونًا، فيستدعيه الملك للقائه إلّا أنّه يأبى الخروج من السجن حتّى تظهر براءته وتتحقّق العدالة، فيحقّق الملك في الأمر بنفسِه، ويسأل النّسوة الأشراف اللّائي قطّعن أيديهنّ من شدّة جماله، فأقرّوا

بعفافه وطهارته، فأخرجه من السّجن، وعيّنه وزيرًا للاقتصاد أو المالية في مصر، ثمّ تتوالى الأحداث كما ذكر لنا القرآن من مقابلته إخوته ودعوتهم جميعًا للإقامة في مصر، وهو ما حدث بالفعل.

ملاحظات:

- تمّ اكتشاف مقبرةٍ بالقرب من عين شمس في منطقة (تلّ الحصن) تحتوي على مناظر لرجلٍ آسيويّ يُعتقد أنّها لسيدنا يوسف، أو على علاقة به، لكن لا يوجد دليلٌ تاريخيّ على ذلك.

- يوجد عدّةُ مواقع أثريّة بطول مصر يُطلق عليها اسمُ مخازن يوسف، ويعتقد أنّها هي بذاتِها المخازنُ التي استخدمها يوسف أثناء المجاعة.

- عاشَ سيدُنا يوسف في وجدان المصريّين بصورة البطل، وكان محبوبًا من الجميع لأنّه هو مَن أنقذ مصر من المجاعة، والدّليلُ على ذلك آية مؤمن آل فرعون «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ * حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا * كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ»، ممّا يدلّ على معرفتهم الوثيقة به، وأنّه كان مرسلًا إلى المصريّين والهكسوس معًا.

- استقرّ بنو إسرائيل في مصر، وكان عددهم آنذاك لا يزيدُ على المائة على أقصى تقدير، ولكنّهم وقتَ خروجهم كان عددهم يزيد عن ستمائة ألف.

المخطوطةُ الرّابعة عشرة: التّحرير

غابتِ الشّمس في ذلك الوقت من خلف الغيوم، وكأنّها تتوارى خجلًا كي لا ترى كيمت الحزينة المنكسرة تحت وطأة الهكسوس، الذين بلغ بملكِهم التبجّح إلى أنْ يرسل برسالة استفزازٍ إلى حاكم مصر العليا سقنن رع مَفادُها أنّ أصوات أفراس النّهر في طيبة تزعجه في عاصمته أواريس التي تبعد عن طيبة ما يقارب الخمسمائة ميل، يا لها من مذلّة تلك التي تتعرّض لها كيمت، لكن هذا الوضع يجب أن ينتهي.

- ولكنْ يا أبي، نحن لم ننتهِ بعدُ من تجهيز الجيش.

قالها الأمير كاموس مُعربًا عن قلقه، وهو ينظر لأبيه سقنن رع الذي شرع في ارتداء زيّ الحرب الخاصّ به بإشفاق، وقد ارتسمتْ على ملامحه أعتى آيات الصّرامة والغضب قائلًا:

- وحقّ رع لن أتراجع عن الحرب ولو بمفردي، ألم ترَ رسالة ذلك المتبجّح لي!؟ أيّ هوان هذا أن يأتي إلينا حاكمُ الأراضي الأجنبية ليأمرنا في ديارنا؟

- كلّ ما تقوله عينُ الحقّ والصّواب يا أبي، ولكن كلّ ما أطلبه منك أنْ نتمهّل قليلًا ريثما نستعدّ لمثل هذه المواجهة.

- قضيَ الأمرُ يا بني، سأخرج لملاقاته وليكنْ ما يكون.

تحرّك سقنن رع متقدّمًا جيشه لملاقاة أعدائه خارجَ طيبة، نظر حاكمُ الجنوب نحو جيش أبي فيس ملك الهكسوس الذي يفوقه عددًا وعدّة، قبل أن ينظر باتّجاه جنوده وهو يصرخ:

- مِن أجل كيمت.

أجابه الجنود بهتاف مدوٍ، وانطلقوا بصدورٍ عارية باتّجاه جيش العدو دون خوف أو تردد.

أوّاه يا كيمت.. ليت شعري، لو أنّ الشّجاعة وحدها تكفي للنّصر لما كان لأحد سوى لسقنن رع، لكنّ الحرب لا يحسمُها النّبل بل القوّة، لذا ففي مشهدٍ مأساويّ سقط سقنن رع بين جنود الهكسوس وهُم ينهالون فوقه بأسلحتهم، حتّى أسلم الروح، بينما جسدُه مغطّى بالدماء الطاهرة.

تولّى كامس الحكمَ بعد استشهاد أبيه، بقلبٍ يعتصره الألم والغضبُ معًا، وقد أقسم أنْ يأخذ بثأر أبيه، فقاد بضعَ حملات ناجحة على معسكرات الهكسوس، كما أنّه أرسل حملات تأديبية إلى بلاد كوش في النّوبة بعد أن تحالف ملكُها مع الهكسوس لمحاصرته، إلّا أنّ القدر لم يمهله لاستكمال مسيرته، فسرعان ما توفّي بعد ثلاث سنوات من الحكم، ليجلس على العرش أحمس وهو مازال حدثًا لم يتجاوز الثّانية عشرة من عمره.

تعهّدت إياح - حتب، زوجةُ سقنن رع، وأمّ أحمس؛ تربيته وتنشئته نشأةً عسكرية، فتعلم فنون القتال منذُ نعومة أظفاره، وبمجرّد أن اشتدّ عوده حتّى جهّز جيشًا قويًا، استعان فيه بأسلحة الهكسوس، فأدخل العجلةَ الحربية التي تثقل كفّة الأعداء إلى جيشه، كما طوّر العديد من الأسلحة التي يستخدمها جيشه، وبدأ زحفه نحو عاصمة الهكسوس

بدءًا من صعيد مصر، وقد التفّ حوله الشّعب الكيمتي، فقام بتدريبهم بكفاءةٍ حتّى أصبحوا محاربين أقوياء ومهرة، وظلّ يحارب الهكسوس من صعيد مصر حتّى وصل إلى عاصمة الهكسوس (بجوار مدينة الزقازيق الحالية) حتّى فرّوا إلى شمال الدلتا، ثمّ استمرّ في مطاردتهم حتّى سيناء، ثمّ إلى فلسطين حيث تحصّنوا في شاروهين، إلّا أنّ أحمس حاصرهم ونجح في القضاء عليهم، ولم يرجع أحمس إلّا بعد أنِ اطمئنّ على حدود مصر الشّرقية، واصل أحمس السيرَ بجيشه حتّى وصل إلى بلاد فينيقيا، كما هاجم بلاد النّوبة لاستردادها مرّة أخرى إلى المملكة المصرية التي وصلت حدودها جنوبًا إلى الشلال الثّاني، وقد صوّرت حملات أحمس في مقبرة اثنين من قوّاده، هما: أحمس بن إبانا وأحمس بن نخبت، يصفان على جدران مقبرتيْهما مدى شجاعتهما وإقدامهما أثناءَ المعارك مع الهكسوس.

ملاحظات:

- حاول الهكسوسُ الهجومَ على مصر عدّة مرّات بعد انتصار أحمس عليهم، ولكنّهم فشلوا في استردادها.
- اختفى الهكسوسُ تمامًا من التّاريخ، والأرجح أنّهم ذابوا مرّة أخرى بين شعوب آسيا.
- كان انتصارُ أحمس تغيّرًا جذريًّا في الثقافة العسكرية للمصري القديم، فقد انتبه للمرّة الأولى في تاريخه إلى أنّ حدوده وحدها لم تعدْ تكفي لحمايته، لذا فقد تبنّى سياسة الهجوم خيرَ وسيلة للدفاع.

- يعتبر انتصارُ أحمس بمثابة النّواة التي اعتمدت عليها الدولة الحديثة في تكوين إمبراطورية مصرية وصلت حتّى الجندل الرابع في أفريقيا وسيطرت على العراق والشّام وبعض أجزاءٍ من ليبيا، بالإضافة إلى سيطرتِها على البحر المتوسّط والأحمر.

- ثمّة آراء تقول بأنّ أحمس هو فرعونُ موسى لأنّ في عصره تمّ طرد الهكسوس، وبالتّالي فقد يكون طردُ بني إسرائيل ضمنيًّا، إلّا أنّ هذا ليس راجحًا لأنّه أثناء حكم فرعون موسى كان بنو إسرائيل مقيمين، ومستعَبدين في مصر، وإلّا لو كانوا خرجوا مع الهكسوس فلماذا بعث الله سيّدنا موسى إلى فرعون ليرسل معه بني إسرائيل؟

- أرجّح أنّ الهكسوس قد خرجوا من مصر إلّا أنّ بعض القبائل «المحايدة» فضّلت البقاء في مصر، ومنهم بالطّبع بنو إسرائيل، وأقاموا في مصر كمواطنين من الدّرجة الثانية.

المخطوطةُ الخامسة عشرة: إمبراطوريّة كيمت العظمى

كيمت تتعافَى من جديد، تنفض عنها ما لحقَ بها من وهنٍ وضعف، وتقرّر أن تستعيد مجدها التّليد، لقد مرّت أحلكُ اللحظات، وآنَ لها أن تصلَ إلى ذروة مجدِها، العصر الذّهبي لكيمت يشرق على العالم، دعونا نرى، انتصرَ أحمس في معركتِه الأخيرة ضدّ الهكسوس، وطردهم شرّ طردة، إلّا أنّه لم يكتفِ بذلك، فهو لم ينسَ بعد ما فعلته مملكة كوش والنّوبيّون من تآمر ضدّ كيمت وتحالف مع أعدائها، لذا فقد وجّه حملاته العسكرية التأديبية نحو الجنوب.

- أحمس بن إبانا.

هكذا نادى الملك أحمس الذي يعني ابن القمر على أحدِ قوّاده المدعو أحمس بن إبانا بعد أن عاد الجيش إلى طيبة، أجاب ابن إبانا منحنيًا في احترام بالغ قائلًا:

- أمرُ مولاي أحمس قاهر الهكسوس.

- كيف كانت حملتكم العسكرية في بلاد كوش؟

- كان النّصر حليفَنا يا مولاي بفضْل توجيهاتك التي عزّزت من قوّة جيشنا، كما أنّنا غنمنا الكثير من الغنائم، وصارت كوش منذُ اليوم تابعةً لبلاط مولاي أحمس.

ومنذُ تلك اللحظة لم يغفلْ ملوك كيمت عن جيوشهم، فقد انتبهوا أخيرًا إلى أنّ الطامعين يحيطون بهم من كلّ جانب؛ لذا فاتّخذوا قرارًا أنْ يكون الهجوم خيرَ وسيلةٍ للدّفاع، وهكذا نجد الحملات التّأديبية لم تتوقّف في أيّ عصرٍ من عصور الملوك العظام لمصر، فنجد أنّ في عصر تحتمس الأوّل قد قامت النّوبة بتمرّد على سلطة كيمت عليها إلّا أنّ تحتمس لم يقف مكتوف الأيدى أمامها، بل أرسل حملةً في الحال استطاعتِ القضاء على التمرّد تمامًا، وبعد وفاة تحتمس الأوّل؛ تولى ابنُه غير الشّرعي تحتمس الثّاني الحكم بعد زواجه من الابنة الشّرعية حتشبسوت، إلّا أنّ تحتمس كان ضعيفَ الشّخصية واهنَ الصّحة، فترك لحتشبسوت الحكمَ الفعلي من وراء ستار، حيث كان الكهنةُ وكبارُ قادة الجيش يتربّصون بحكم

حتشبسوت، ومن جديد يتوفّى تحتمس الثّاني تاركًا الحكمَ في يد ابنه غير الشّرعي تحتمس الثّالث وزوجته حتشبسوت التي أزاحت الابن غير الشّرعي عن العرش، واتّخذت كافّة الألقاب الملكيّة، وادّعت أنّها ابنة آمون مباشرة، حيث حلّ في جسد أبيها، وبعدها حبلت أمّها في حتشبسوت ابنة الشمس وابنة آمون.

كانت حتشبسوت ملكةً قويّة، قهرتْ كلّ الرجال والكهنة الذين عارضوا حكمَها، واستطاعت أن تصلَ بكيمت إلى عصرٍ من الرّخاء لم تصلْه من قبل، كما أرسلت أكبرَ بعثةٍ تجارية واستكشافية إلى بلاد بونط، وسجّلتها على جدران معبدها الجنائزيّ في الدّير البحري، كما أنّها أقامت مسلّتين عظيمتيْن في معبد الكرنك. وبوفاة حتشبسوت؛ تولّى تحتمس الثّالث الحكم، لتصل كيمت إلى أقصى اتّساع لها في تاريخها، وتصبح بحقّ أكبرَ وأعظم إمبراطوريّة في العالم في ذلك الوقت، كان تحتمس الثّالث يتمتّع بسماتٍ شخصيّة خارقة، وعبقرية عسكرية ليس لها مثيلٌ، تـدرّب تحتمس في ساحات المعارك في الأقصر، وقد أكسبته هذه التّدريبات صلابةً في شخصيته، وخبرات عسكرية عظيمة في الوقت الذي كانت تحكمُ فيه حتشبسوت. واهتمّ بالجيش، وجعله نظاميًّا، وزوّده بالفرسان والعربات الحربيّة، كما في عهده أتقن المصريّون القدماء بفضله صناعةَ النّبال والأسهم التي أصبحت ذات نفاذيّة خارقة يعترف بها مؤرّخو أيّامنا هذه. وتظهر لنا تماثيلُ تحتمس الثالث هذا

الشّاب المفتول العضلات، وقد امتلك مقوّمات المناضل والقائد، إذ في الوقتِ الذي كانت تحكُم فيه حتشبسوت فكانت تتبع سياسةً سلميّة مع مناطق النفوذ المصري في فلسطين والنّوبة ومع جيرانها، وكانت تهتمّ بالبحريّة، وترسل الحملاتِ البحرية إلى بلاد بونت وإلى سواحل لبنان للتّبادل التجاري، انتهزتْ بعضُ المحميّات في سوريا والميتاني للتمرّد على حكم المصريّين ومعاداتهم. وبمجرّد أنِ اعتلى تحتمس الثالث العرشَ بعد وفاة حتشبسوت كان لا بدّ وأنْ يعيد السّيطرة المصرية على تلك الحركاتِ المعادية تأمينًا لحدود البلاد. تلك التّبعات جعلته ملكًا محاربًا أسطوريًّا قام بستّ عشرة حملةٍ عسكرية على آسيا (منطقة سورية وفلسطين). استطاع أنْ يثبّت نفوذَه هناك كما ثبّت نفوذ مصر حتّى بلاد النوبة جنوبًا. وقد كان أمير مدينة قادش في سوريا يتزعّم حلفًا من أمراء البلاد الآسيوية في الشّام ضدّ مصر، وصل عددهم إلى ثلاثةٍ وعشرين جيشًا، وكان من المتوقّع أنْ يدعم تحتمس الثّالث دفاعاته وقواته على الحدود المصريّة قرب سيناء إلّا أنّ تحتمس قرّر الذّهاب بجيوشه الضّخمة لمواجهة هذه الجيوش في أراضيهم ضمن خطّة توسيع الإمبراطورية المصرية إلى أقصى حدودٍ ممكنة، وتأمين الحدود ضدّ جيوش المتحرّشين. بنى تحتمس الثّالث القلاعَ والحصون، وقام بتدريب الجنود على أفضل التّدريبات وإمدادهم بأسلحةٍ مبتكرة قويّة مثل النّبال المستحدثة، والتوسّع في استخدام العربات في القتال. وفي حملةِ معركة مجدو قسّم

جيشه إلى قلبٍ وجناحين، واستخدم تكتيكات عسكرية ومناورات لم تكنْ معروفةً من قبل. ثمّ قام على رأس جيشه من القنطرة وقطع مسافة ١٥٠ ميلًا في عشْرة أيّام، وصل بعدها إلى غزّة، ثمّ قطع ثمانين ميلًا أخرى في أحدَ عشرَ يومًا بين غزة وإحدى المدن عند سفح جبل الكرمل، هناك عقدَ تحتمس الثالث مجلسَ حربٍ مع ضبّاطه بعد أن علم أنّ أمير قادش قد جاء إلى مدينة مجدو، وجمع حوله ٢٣٠ أميرًا بجيوشهم، وعسكروا في مجدو المحصّنة ليوقفوا تقدّمَ تحتمس الثّالث وجيشه. كان هناك ثلاثة طرق للوصول إلي مجدو؛ اثنان منهما يدوران حولَ سفح جبل الكرمل، والثّالث ممرّ ضيق، ولكنّه يوصل مباشرة إلى مجدو وقد استقرّ رأي تحتمس على أنْ يمرّ الجيش من الممرّ الثّالث في مغامرة قلبتْ موازين المعركة فيما بعد، وتُعتبر من أخطرِ مغامرات الجيوش في العالم القديم.

استدْعى اتّخاذ ذلك الممرّ في التّقدم لمفاجأة الأعداء أنْ يحمل الجنود المصريون عتادَهم الحربي بالإضافة إلى عرباتِهم الحربية، وأحصنتهم، فكانوا يفكّون العربات الحربية ليسهل حملها، وتسلّلوا عبر الممرّ الضيّق في مجموعاتٍ صغيرة، وكان ذلك مجازفةً كبيرة على الجيش لأنْ يتّخذ تحتمس الثّالث هذا الطّريق كي يفاجئ الأعداء المعسكرين على السّاحة التالية على الممر. كانت قواتُ العدوّ قد تمركزت عند نهاية طريقين فسيحين معتقدةً أنّ الجيش المصري سيأتي من أحدهما أو مِن كليهما. في فجر اليوم التّالي، أمر الملكُ

تحتمس الثّالث الجيش بإعادة تركيب العربات الحربية، والاستعداد للهجوم المفاجئ. وهجمتْ قوّاته، وكان على رأسهم في المقدّمة على شكل نصفِ دائرة على مجدو، فكانت المفاجأة أنْ يبادرهم المصريّون بهذا الهجوم الكاسح فاضطربوا وفقدوا توازنَهم، حتّى أصبحت جيوشُهم في حالةٍ من الفوضى وعدم النّظام، وبدأ قادةُ الجيوش والسّرايا في الهروب تاركين وراءهم عرباتِهم الكبيرة ومعسكرهم المليء بالغنائم ليدخلوا المدينةَ المحصّنة. وبسبب انشغالِ أفراد الجيش المصري بجمع الغنائم تمكّن الآسيويون من الهروب إلى المدينة وتحصّنوا فيها. كانت تبعةُ انصراف الجيش في جمع المغانم في الوقت الذي كانَ بإمكانهم القضاءُ على جيوش الأعداء وتحقيق النّصر الكامل أنِ اضطرّ تحتمس الثالث لحصار مجدو سبعة شهورٍ طويلة حتّى استسلم الأمراء، وأرسلوا أبناءهم حاملين الأسلحة لتسليمها إلى الملك تحتمس الثالث. ويقول أحدُ المؤرّخين القدامى في مصر القديمة ويؤكّد في نصوصِه عن قوّة مصر في عصر تحتمس الثّالث، ويقول (لا توجد قوّة في الأرض تستطيع أنْ تواجه الجيشَ المصري الذي نال تدريبًا عسكريًّا فائقًا، وفاز بقيادة ملك عبقريّ هو فرعون مصر العظيم تحتمس الثالث). وعاد الجيشُ المصري وملكُه الملك تحتمس الثّالث إلى مصر، ومعهم من أبناء الأمراء عددٌ ليعيشوا في مصر تحتَ مراقبة المصريّين لكي لا يجرؤ الأمراء على التمرّد مرّة ثانية. وهكذا توالى حكّام أقوياء انتهجوا ذات السّياسة العسكرية في الحكم،

وحافظوا على تلك الإمبراطوريّة المترامية الأطراف، حتّى جاء ذلك الفرعونُ الذي زعزع تلك الإمبراطورية من أساسها، وأتى بشيء عجيب لم تشهدْه كيمت من قبل، مَن هو هذا الفرعون وما حكايته؟ هذا ما سنعرفُه في المخطوطةِ القادمة، ممّا سجله لنا تحوت.

المخطوطةُ السّادسة عشرة: الملكُ النّبي

اليومَ موعدُنا مع مخطوطة غايّة في التميّز، ذلك لأنّنا سنتحدّث عن أوّل نبيّ تعرفه مصر بشكل واضح، هل كان نبيًّا مرسَلًا من قبل الله؟ هل كان على علاقةٍ ما بأحد أنبياء الله الذين لا نعرفهم؟ أم أنّه مجرّد شاعر حالم، ومُصلح ديني؟ أو ربّما يكون ملك طموح أراد التخلّص من نفوذ الكهنة وسيطرة رجال الدين؟ كلّ هذا سنعرفه اليوم في مخطوطتنا تلك، في ما سجله تحوت عن إخناتون.

«كمْ كثرت أعمالك والخافي منها،

إنّك الإله الواحد، لا مثيل له.

خلقت الأرضَ برغبتك منفردًا، فيها النّاس والأنعام وكلّ الحيوانات،

وبكلّ ما على الأرض، وما يسير على أرجله، وكلّ ما يطير بجناحيه في السماء.

البلدان الغريبة في سورية والنوبة، وكذلك أرض مصر،

كلّ تعطيه مكانه وتؤمن احتياجاته،

الكلّ يحصل على غذائه،

وتقدر قدر عمره.

يتكلّمون بألسنةٍ مختلفة، وتختلف ملامحهم، وتختلف ألوانهم، فإنّك تخلق الشعوب».

هل شعرتَ بثمّة تشابهٍ بين تلك الأنشودة وما وردَ عن الله في الأديان السماوية؟ نعم.. هو الله الذي لو أحصينا نعمَه لا نحصيها، هو اللهُ الإله الواحد لا مثيلَ له، هو الله الخالق لكلّ شيء، لكلّ ما يدبّ على الأرض، أو طائر يطير بجناحيه، هو الرّازق؛ فالكلّ يحصل على قوت يومه، وهو ربّ النّاس، هل رأيت؟ ولكنْ دعونا نرى كيف بدأت القصة..

انحنتْ حاشيةُ القصر فورَ حضور ملك مصر، وما يتبعها من أقاليم، وقد ارتفع هتافهم:

- المجدُ لمولانا أمنحتب الرّابع، المجد لملك كيمت ابن آمون.

جلسَ أمنحتب الرّابع على عرشه بينما جلست بجواره زوجتُه الملكة نفرتاري، وقد اكتستْ ملامح وجهِها بتعابير القلق، فمنذُ اعتلى زوجُها عرش مصر منذُ ما يقرب من خمس سنوات وهي تخشى هذه اللّحظة بشدّة، فما ينوي القيام به قد يضرّه بشدّة؛ بل قد يضرّ الإمبراطورية بأكملها، لكنّها لا تملك سوى أن تؤازره وتشدّ من عضده للنهاية.

- لقد جمعتُكم اليومَ لأمرٍ هام.

تطلّعت كافّة العيون نحو أمنحتب الرّابع في فضول، فالكلّ

يعلم ذلك التوتّر الذي يسود العلاقة بين القصر وبين كهنةِ آمون، وبالتّأكيد اجتماعُهم اليوم يرتبط بشكلٍ ما بهذا الأمر.

- اليومَ سيتمّ استعادة كافّة الأَراضي التي كانت الممنوحة لمعابد آمون نظرًا لحاجة الدولة لها.

ارتفعتِ الهمهماتُ الغاضبة والمتعجّبة من هذا القرار، الذي من شأنه أنْ يثير غضب كهنة آمون إلى أقصى حد.

- كما أنّه سيتمّ الإعلان منذ غدٍ أنّ الإله آتون هو الإله الرّسمي.

صمتَ أمنحتب لبرهةٍ ليرى وقْعَ كلامه عليهم قبل أن يردف قائلًا:

- والوحيد.

تحوّلت الهمهماتُ إلى صرخاتٍ غاضبة من كهنة آمون، وغادروا القاعةَ بجلبة دون استئذان أمنحتب ممّا أثار استياءه، إلّا أنّه لم يستطع أن يتّخذ أيّ ردّة فعل مناسبة في حينها، فاكتفى بما فعلَه، وغادر القاعةَ تاركًا جموعَ الحاشية في ذهول، في حين تبعته نفرتاري وهي تدعو آتون أن ينقذَ زوجها من شرور الكهنة.

أصدرَ أمنحتب الرّابع هذه القرارات، ولم يلبثْ أن غيّر اسمَه إلى إخناتون «أي الرّوح الحيّة لآتون»، وبعدها نقل العاصمة من طيبة التي تعتبر مركزًا أساسيًّا لكهنة آمون إلى أخيتاتون «قرب تلّ العمارنة بالمنيا» لتكون عاصمته الجديدة، كما بنى مدينتيْن أخريين في كوش (النوبة) وآسيا، كما أهمل إخناتون السّياسة الخارجية للبلاد ممّا جعل بعض البلاد تفكّر في الاستقلال عن كيمت، الوضع جدّ خطير.

لقد كانت الديانةُ الآتونية هو أولى مراحل المصري القديم نحو التّوحيد، إلّا أنّها لم تكتمل وعادت كيمت تدريجيًّا إلى التعدّد بمجرّد وفاة إخناتون، وتولّي ابنه توت عنخ آتون الذي اضطرّ إلى تغيير اسمه إلى توت عنخ آمون بسبب ضغط الكهنة عليه.

تركتْ لنا فترة إخناتون العديدَ من الآثار، خاصّة في عاصمته أخيتاتون، كما ظهرت المدرسة الواقعية في عهده؛ حيث تمّ تصوير الملك بكافّة عيوبه الجسدية، كما صُوِّر جالسًا مع بناته في جلسات عائلية لم تكنْ ظهرت من قبْل في العهود التي سبقته، وبهذا انتهت فترةُ التوحيد في كيمت، إلّا أنّ هذا لم يكن نهاية المطاف، فسيظهرُ طفلٌ صغير سيغيّر الكثير من الأوضاع في كيمت، ولكنْ هذا حديث آخر..

المخطوطةُ السّابعة عشرة: اقتلوا موسى

اليوم يوم الملحمة، اليوم يوم الزّينة، اليوم يومُ الخروج، سنتحدّث عن أكثر الأحداث جدلًا في تاريخ مصر، عن فرعون وموسى، ولكنْ دعونا نستعرض كافّةَ الآراء باختصار أولًا..

١-فرعون موسى هو رمسيس الثّانى: الكثيرُ من الأدلة تؤيّد مثل هذا الرأي، حيث أن رمسيس الثّاني من أطول الملوك حكمًا (٦٧ عامًا)، ممّا يناسب فكرة ميلاد موسى وتربيته، ثمّ عودته في سنّ الأربعين ليعرض على رمسيس أن يرسل معه بني إسرائيل ولا يعذّبهم، ثمّ خروجه بهم عبْر خليج السويس، ولكن أيضًا ثمّة

أدلّة تنفي أن يكون رمسيس الثّاني هو فرعون موسى حيث أثبتتِ الأبحاث أنّه لم يمت غرقًا.

٢- فرعون موسى هو مرنبتاح: هو ابنُ رمسيس الثّاني، وتولّى الحكم بعده، وتمّ العثور على لوحةٍ تعود إلى عصره مسجّل عليها نصّ اسمِه أنشودة النّصر يتباهى فيها بانتصاراته على شعب إسرائيل (وهي المرّة الوحيدة التي ذكر فيها اسم إسرائيل صراحة في تاريخ مصر).

٣- أنّ هناك فرعونيْن وليس فرعونًا واحدًا: هذا الرّأي يقترح أنّ هناك فرعونيْن في القصة؛ فرعون قام بتربية موسى وفرعون الخروج، ولكنّ هذا الرأي ضعيفٌ في نظري لأنّ الله حين حدّثنا عن هذه القصّة في القرآن أشار إلى فرعون واحد فقط.

٤- وأخــيرًا، أنّ فرعون موسى لم يكنْ مصريًّا، وكان من الهكسوس: وهذا الرّأي له أوجه منطقيّة من بضعةِ جوانب، إلّا أنّ الكثير من أدلّته تبقى مجرّد افتراضات محضة لم يثبت بها أيّ دليل، ثم التّسليم بها مطلقًا، والقطع بصحّتها والقفز إلى استنتاجات ونتائج تترتب عليها.

وبغضّ النّظر عن تهافت الرّأي الأخير وضعفِه، فهو يدور حول أنّ اليهود قاموا بهذه الخدعة ليدسّوا علينا تاريخًا مزوّرًا يتّهموننا فيه أنّنا أحفاد هذا الطاغية، وهذا رأيٌ غاية في الغرابة والسّذاجة معًا، كما أنّه يفترض قدراتٍ خرافيّة لليهود لا يملكونها، فقد كتبت التوراة أثناء السّبي البابلي؛ أيّ بعد وفاة موسى بحوالي سبعمائة عام

كاملة، وبالتّأكيد انتابها الخطأ والتحريف الذي قد يكون مقصودًا أو غير مقصود، ولكنّي لا أستطيع تخيّل ذلك الحاخام الذي يعاني الاضطهاد على يدِ ملك بابل، ويجلس في قبوٍ خانق على ضوء الشّمعة الباهت، ليفكّر أنّه سيزور تاريخ مصر، ويجعل فرعون موسى مصريًّا بدلًا من أن يكون هكسوسيًّا، حتّى يتسنّى للأجيال القادمة اتّهام مصر بذلك، أيّ منطق هذا؟!!

ولبيان تهافت هذا الرّأي، فقد تنوّعت مصادره بين:

- التّوارة.
- القرآن الكريم.
- كتابات المؤرّخين العرب مثل: المقريزي، وابن إياس، وغيرهما.

أمّا التّوراة فهو قد اعترف بتحريفها، وأنّ اليهود تآمروا من خلالها على التّاريخ المصري، ثمّ يعود فيستشهد بها، وأمّا القرآن الكريم، فرغم قدسيّته وصدقه لا شكّ فيه، فهو لم يُشِر من قريبٍ أو من بعيد حول هويّة فرعون، وترك المجال مفتوحًا لأهل العلم والبحث، وأخيرًا كتاباتُ المؤرخين العرب، وهم رغمَ احترامنا الشّديد لمجهوداتهم إلّا أنّهم اعتمدوا تاريخًا يسمّى التاريخ المزيّف أو الوهمي لمصر، وهو الذي اعتمدَ عليه «سعد الدين الهلالي» حين خرجَ علينا وقال إنّ فرعون موسى اسمه الوليد بن مصعب، ومعظمُ هذا التاريخ الذي اعتمدوه يتعارض تعارضًا صارخًا مع التّاريخ القائم على الأدلة الأثرية والتاريخية المعروفة، هذا بالإضافة إلى اعتمادهم

على العديد من خرافات وأساطير الإسرائيليات، وأشهرها قصّة بداية الخلق عن حواء التي أقنعت آدم بالأكل من الشّجرة والتفاحة، وما إلى غير ذلك، فكلّها إسرائيليات وخرافات لم يتمّ التّأكد منها، واعتمدوها هم في كتب التفسير والتاريخ وغيرها.

وممّا يثير الدهشة أنّ معتنقي هذا الرّأي ينفون بقوّةٍ حقائق تاريخية ثابتة لا شكّ فيها، مثل أنّ اسم موسى مثلًا مكوّن من كلمتين مصريّتين خالصتين، وهما: «مو» بمعنى الماء، و«سا» بمعنى ابن، فهي تكوّن معًا ابن الماء، وهو ما يتّفق مع حالة سيدنا موسى، ولكنّه ينفي بشدّة هذه التّاريخية، ويخبرنا أنّها كلمة ذات أصل عبراني دون أن يدلّل على كلامه بأيّ دليل حتّى ولو كان واهيًا.

وأخيرًا، إنّ قصّة فرعون وموسى معروفةٌ للجميع، ولكنّها ستبقى مثارَ جدل حتّى نطّلع على دليلٍ قويّ يثبت أحدَ الآراء، أو تبقى لغزًا للأبد ضمن العديد من الألغاز التي تحيط بكوكبنا.

وبهذا نودّع عصر القوّة في كيمت ليبدأ المنحنى الحضاري لها في الهبوط بلا توقّف، كما سنرى في الحلقات القادمة، دمتم بوُدّ.

المخطوطةُ قَبْلُ الأخيرة: مؤامرةُ الحريم

لقدْ بدأت شمس كيمت بالأفول، صحيحٌ أنّها لم تغربْ تمامًا بعدُ لكنْ لنقل أنّ الأمور لم تعدْ كما كانت، كيمت تضعفُ تدريجيًّا بعد أن وصلتْ إلى أوْج قوّتها وازدهارها، فبعد رمسيس الثّاني تولّى الحكمَ ملوكٌ لم يكونوا بنفس قوّته، وإن تشبّه أغلبهم به، وتسمّوا

باسمه، واستلهموا سيرته؛ فأثناءَ بحثِنا بين أقبية التّاريخ وجدنا تلك المخطوطةَ التي تتحدّث عن «مؤامرة الحريم»، دعونا نرى ما سيحدُث بين أقبية التاريخ..

- تقدّم يا بنتاؤر.

قالتْها تيا لابنها بنتاؤر الذي بلغ مبلغَ الشّباب أخيرًا وهي تدعوه للجلوس بالقرب منها، فاستجاب فورًا دون تردّد، تطلّعت إليه مليًّا قبل أن تضعَ كفّها على وجنته وتقول:

- لقد كبرتَ يا بنتاؤر، وآن لك أنْ تعرف ما يدور حولك.
- ماذا تقصدين يا أمّاه؟
- أقصد أنّ أباك رمسيس الثّالث قد بلغ السّتين من عمره، وقد تحيّن ساعته في أيّ وقت، وبالطّبع سيسند الحكمَ لابنه الشّرعي رمسيس الرّابع، بينما تصبح أنت مجرّد أميرٍ من زوجة ثانوية لا ذكر له.
- هذه هي التّقاليد الملكيّة يا أمّاه.
- إلّا إذا....
- إلّا إذا ماذا؟!! لماذا تبدين غامضةً اليوم؟
- ربّما لأنّي أفكّر في جعلك.....

صمتتْ قليلًا قبل أن تردفَ قائلة:

- ملك كيمت المتوّج.

والتمعتْ عيناها بشدّة.

***

- سيّدي حور، رسالة لك من الملكة تيا.
- تيا!؟، عجبًا، أعطنيها.

تناول حور قائدُ الجيوش لفافة البردي، وأخذ يقرأ ما بها، بينما عيناه تتّسعان دهشة من هول ما يقرأ، قبل أن يحدّث نفسه ويقول:

- إذًا، فستفعلها تيا وتريدني معها!!، لا بدّ من التّفكير في هذا الأمر بمنتهى الحرص والحذر.

***

- رسالة إلى مولاي قائد جيوش كيمت العظيمة في كوش.

قالها الخادم وهو ينحني احترامًا لسيّده وهو يناوله الرّسالة التي أتى بها الرسول من القصر في كيمت، وقد ظنّ في بداية الأمر أنّها من رمسيس الثّالث، إلّا أنّه فوجئ أنّها من إحدى زوجاته الثّانويّات التي تدْعَى تيا. فضّ الرّسالة على عَجَل، والفضول يملأه ليعرف فحوى الرسالة، التي بمجرّد أنْ قرأ مطلعَها حتّى اعتدل في جلسته، وظهرت عليه آيات الاهتمام...

- همممم، لقد تغيّرت الكثيرُ من الأمور في كيمت، ربّما هي فرصتي الآن للتدخل.

***

وهكذا كما تروْن فقد استعانت تيا ببعض أعوانها في حريم القصر والخدم، كما راسلت قائد الجيوش في كيمت وكوش ليدعماها في خطّتها لاغتيال رمسيس الثّالث والانقلاب عليه، وتولية ابنها بنتاؤر حكمَ البلاد.

وبالفعل، ففي ذاتِ ليلة حالكة الظّلمة يتوجّه خادمان نحو مخدع الملك العجوز محاولينَ ألّا يصدر عنهما أيّ صوت، بعد أنْ سمحت لهما تيا بالتسلّل، فينقضّان معًا على رمسيس الثالث الذي ينتبه في اللّحظة الأخيرة، فيحاول الصّراخَ مناديًا على حرسه الملكي، إلّا أنّ أحد الخادمين يعاجله بضربةِ خنجرٍ غادرة في رقبته قبل أن يلوذا بالفرار.

وإلى هنا، يقف التّاريخ حائرًا، فبعضُ المصادر ترجّح أنّ رمسيس الثّالث قد توفّي نتيجة هذا الجرح، ولكنّ بعض المصادر الأخرى- وهو الرّأي الأرجح في نظري- تؤكّد أنّه ظلّ حيًّا بعدها لفترةٍ قصيرة، وقد تمّت محاكمة كافّة المتآمرين أمام القضاء المدني، إلّا أنّه نظرًا لفساد بعض القضاة انحازوا إلى جانب المتآمرين، ممّا دفع الملك أن يضمّهم إلى المتّهمين بالتآمر، ويعرضهم أمامَ جهة قضائية عليَا، وقد حُكم على بعض المتآمرين بالإعدام، منهم بنتاؤر شخصيًّا.

ملاحظات:

- ربّما يكون الدّافعُ الذي دفع تيا للتّفكير في هذا الأمر معرفتها بالاضطرابات والتمرّد الذي بدأ يضرب أطرافَ الإمبراطورية، بالإضافة لغزوات شعوب البحر على مصر، رغم انتصار رمسيس الثالث عليهم إلّا أنّ الأمر لم يكن بسيطًا.

المخطوطةُ الأخيرة: أفولُ شمس كيمت

تولّى العديد من الرّعامسة (نسبة إلى رمسيس الثّاني) حكمَ البلاد، وكما عرفنا فقد بدأ المُنحنى الحضاري لكيمت في الهبوط، خاصّة بعد مؤامرة الحريم التي قرأنا عنها في المخطوطة السابقة، ومِن رمسيس الرّابع إلى الخامس، وهكذا حتّى رمسيس الحادي عشر؛ والبلادُ من سيّئ إلى أسوأ، تزعزعتْ هيبةُ كيمت في قلوب أعدائها، وارتفعت أسعارُ الحبوب والغلال، وانتشرت أعمال السّلب والنّهب بطول البلاد وعرضها، فخلالَ حكم رمسيس الحادي عشر- آخر الملوك الفراعنة- اتّسمت الدولةُ بعدم الأمن وعدم الاستقرار السّياسي والاقتصادي، وكانت هناك قوّتان جديدتان: واحدة شرقية وهي الفرس، وأخرى غربية وهي الإغريق؛ تظهران على السّاحة الدولية كقوّتيْن متناحرتيْن فيما بينهما على امتلاك الأراضي، لا سيّما الهلال الخصيب، بلاد بين الرّافدين والشام، وبالتّالي لم تسلم مصر منهما.

انتزع منها الفرسُ بعض أقاليمها الشّرقية في الشام بسبب حالة مصر الداخلية المنهارة، وتهاون ملوكها في الدفاع عنها، وعجزهم عن صدّ غارات الفرس. في أواخر عهد رمسيس الأحد عشر استغلّ أحدُ قواد الجيش المصري الفرصة، ويسمّى «حريحور»، واستقلّ بحكم صعيد مصر خارجًا عن طاعة رمسيس الحادي عشر.

وبوفاة الملك رمسيس الحادي عشر الذي دفن في شمال مصر، صعدَ على العرش أحدُ قوّاده العسكريّين يسمى «سمندس»، حيث

تولّى مراسيم دفن فرعون، وحكم سمندس مصر السّفلي، وأسّس الأسرة الحادية والعشرين، وكان يحكمُ من العاصمة الشمالية تانيس. لم يستطعْ سمندس السيطرةَ على وسط مصر أو صعيدها، التي تولّى فيها الحكم آنذاك كبيرُ كهنة أمون بطيبة.

كانت هناك بعضُ النّقاط المضيئة، وكأنّه الانتفاضة الأخيرة لكيمت قبلَ إعلان وفاتها، أثناء حكم بسماتيك الأوّل، الذي وحّد مصر من جديد، واستقرّت الأحوال نسبيًّا خلال عصره الذي امتدّ حوالي أربعةً وخمسين عامًا، طرد خلالها الغزاة من النّوبة وليبيا، ولكن لم تلبثِ الأمورُ أن ساءت من جديد بعد وفاته، وتعاقب على حكم مصر ملوكٌ من النوبة أو من ليبيا أو غيرهم.

وأخيرًا، صار على كيمت أن تواجهَ مصيرَها الذي لا فرارَ منه، فها هي جيوشُ الفرس تزحف ببطء نحو كيمت بقيادة قمبيز الذي استطاع التّغلب على بسماتيك الثّالث، وأمعن في إذلالِه فقتل ابنه، وجعل من ابنته جارية، ثمّ قتله في النّهاية بدمٍ بارد، وبهذا ينتهي الحكم الفعليّ للمصريين في كيمت ليفرض الفُرس وجودَهم على أرضها، ورغم ذلك لم يحاولوا حتّى استمالة المصريّين أو احترام عقائدهم، فقتلوا العجل أبيس الذي يقدّسه المصريون، ووضعوا مكانَه حمارًا في قدس أقداس المعبد، الأمرُ الذي اعتبره المصريّون بمثابة صفعة على وجوههم، بالإضافة إلى فرض الضّرائب الباهظة عليهم، وغيرها من الأمور التي جعلت المصريّين يثورون على

هذا الوضع، ويرحّبون بالقادم الجديد الذي هزم الفرس، واحترم عقائدَهم حتّى جعل من نفسه ابنًا لآمون، وتمّ تتوجيه على الطريقة الكيمتية الخالصة كفرعون شرعيّ للبلاد، إنّه القادم من وراء البحر، ولكنّ هذا ما سنعرفه في الجزء الثّاني من أقبية التاريخ « لفائف الإسكندرية»...

ملاحظات:

* يقال إنّ قمبيز قائدَ جيش الفرس قد استعانَ بالقطط للانتصار على المصريين حيث كانوا يقدّسون القطط في صورة الإلهة باستت، وبذلك لم يستطعِ المصريّون القتالَ بالقوّة اللّازمة للدفاع عن كيمت.

الجزءُ الثّاني
لفائفُ الإسكندرية

المكانُ مظلمٌ وخانق للغاية، لكنّه لا بدّ من التقدّم للوفاء بوصيّة معلّمه، لن ينسى تلك اللحظات وهو يحتضنُ رأس معلّمه الذي يعاني سكرات الموت، ويستمع إلى همسِه الضّعيف حول مكان ما أسفلَ مكتبة الإسكندرية، ثمّة سرداب سيقوده إليه في بيت المعلّم الذي أمره بالحصول على اللّفائف المحفوظة هناك، وينسخها عدّةَ نسخٍ بعد الاطّلاع على فحواها، قلبُه يحدّثه أنها قد تضيع إثرَ الفتن المتلاحقة التي تمرّ بها البلاد، وها هو سوفوكليس الصّغير ينفّذ الوصية، ويهبط الدرج الذي يقودُه إلى سردابٍ طويل تضيئه المشاعل، ظلّ يمشي فيه حتّى قادته قدماه إلى قاعة امتلأت جدرانُها بتجاويفَ تحتوي على مئات اللّفائف والبرديات، وفي منتصف القاعة ثمّة طاولة منخفضة، وبساط من الكتان. التقط سوفوكليس اللفافةَ الأولى، وعلى ضوء سراجه أخذَ يقرأ...

اللّفافةُ الأولى: القادمُ من الشّمال

بينما تغرب شمسُ كيمت جنوب البحر، هناك شعبٌ آخر أخذ في التطوّر تدريجيًّا، إنّهم الإغريق، بعضهم زار مصر للعمل

في جيش بسماتيك كجنودٍ مرتزقة، فقد ضنّت عليهم أرضُهم بالموارد، فلم تكنْ كريمةً مثل أرض الكيمت الخصبة، إنّها الجبال شديدة الوعورة، وجزر متفرّقة جعلت من المستحيل أن تقوم دولةٌ موحّدة للإغريق، ممّا جعل نظام الدّولة المدينة هو السائد، فظهرت مدن كدويلاتٍ مثل أثينا وإسبرطة وطيبة (ليست طيبة المصرية) وغيرهم، اعتمدوا بشكل أساسيّ على التّجارة والصيد، وقامت بينهم الحروبُ والمناوشات، إلّا أنّها لم تتميز بالضراوة أو الوحشية، حيث لعبتْ دورة الأولمبياد الرّياضية التي كانت تقام كلّ أربع سنوات في التّخفيف من حدّة الصّراعات بينها، بل إنّهم كوّنوا فيما بينهم ما يشبه التحالفات ومعاهدات تضمن سلامة المشاركين في مثل هذه الألعاب، بالإضافة إلى توحّدهم أمام العدو الفارسيّ لأوّل مرّة في تاريخهم، ولكنْ يبدو أنّهم غفلوا عن ذلك الأمير الطّامح الذي يحدّهم من الشمال، أمير يدعى، فيليب المقدوني.

طالع الملك فيليب جنودَه في ساحة التدريب وهُم ينفّذون أوامر قادتهم حول التّشكيل الجديد الذي ابتكره، ليجعل من قوّات المشاة في جيشه كتلةً كثيفة تصمدُ أمام أيّ هجوم من مشاة العدو، ذلك التّشكيل الذي سيسمّى لاحقًا باسم الفيلق المقدوني، بينما على الجانب الآخر من السّاحة يقود تدريبات فرقة الخيالة ابنُه الإسكندر، بعد أنْ جعل فيليب الخيّالة لأوّل مرّة في التاريخ فرقة منتظمة تهاجم في تشكيلات محدّدة، وليس بعشوائية كما جرَتِ العادة..

- إسكندر.

هتفَ فيليب مناديًا ابنه ووليَ عهده، فتوقّف الجميع عن التّدريب إجلالًا للملك، في حين هُرِع الإسكندر ناحيةَ والده، قبل أن يهبط من فوق صهوةِ جواده، وينحني مقبّلًا يد أبيه ويقول:

- أبي.

- أحسنت يا بنيّ، ولكن هلمّ بنا إلى القصر، فأنا أحتاجُ مشورتك بخصوص أمرٍ غاية في الأهمية.

- حسنًا يا أبي، سأغتسل ثمّ ألحق بك على الفور.

وفي إحدى قاعات القصر اختلى فيليب بابنه وقال:

- لقد عزمت أنْ أغزو بلاد الإغريق، فماذا ترى؟

تهلّلت أسارير الإسكندر كأنّ والده أخبره أنّه ذاهب لنزهةٍ أو رحلة صيد، أجاب قائلًا:

- نِعْم الرّأي يا أبي.

- حسنًا، ولكن يجب أن نعدّ أنفسنا جيدًا، فالإغريق خاصّة الإسبرطيّون لن يكونوا أبدًا بالخصم السّهل.

- بالتّأكيد يا أبي، ولكن بتلك التّشكيلات الجديدة التي استحدثناها في الجيش ستضمن لنا التفوّق، وسنتجنّب بسهولة العجلاتِ الحربية بتوجيهِ سهام رماتنا نحو الخيول، فتصبح بلا فائدة.

- حسنًا يا بني، فلندعو أنْ يكون الحظّ حليفنا.

وفي معركة خيرونيا، يلتقي الجيش المقدوني مع الجيش الإغريقي، وهما متقاربان في القوة والعدد، إلّا أنّ الجيش المقدوني ينتصر انتصارًا ساحقًا على الجيش الإغريقي، وقد قاد ابنه الإسكندر فرقةَ الخيّالة أثناء المعركة، وحقّق انتصارات ملحوظة. وأخيرًا تصبح بلاد الإغريق دولةً موحّدة تحت قيادة فيليب المقدوني، الذي يستعدّ بعد انتصاره هذا لمواجهة الفرس في آسيا، وبالفعل يرسل الحرسَ الملكي إلى آسيا، ولكنّه للأسف لم يستطعْ أن يستكمل مسيرته، فقد توفّي فيليب المقدوني قبل أن يحقّق حلمه، ليتولى العرش من بعده ابنُه الإسكندر، الأكبر.

ملاحظات:

- يعتقد أنّ فيليب المقدوني قد تمّ قتله بتحريضٍ من زوجته روكسانا بعد أن تزوّج غيرها.

اللّفافة الثّانية: ابنُ الشّمس ملكُ الملوك

أشرقتِ الشّمس في ذلك اليوم لتلقي أشعّتها الذّهبية على تلك المساحة الشاسعة من الأرض من آسيا الصّغرى دون أن تبالِ بهؤلاء الجنود المتراصّين في نظامٍ بالغ، يحملون سيوفهم ودروعهم في شجاعة، بينما يخطب فيهم قائدُهم الشّاب- الذي بالكاد بلغ العشرينَ من عمره- يحمّسهم ويؤجّج عزيمتهم للقتال، بينما يقف على الجانب الآخر الجيش الفارسي الذي يكاد يبلغ عدده المليون جنديّ، بالطبع تظنّ أنّ النتيجة محسومةٌ لصالح ذلك الجيش المليوني، لكنّك لم تعرف بعد أنّ ذلك القائد الذي يدفع جنوده نحو القتال كان، الإسكندر الأكبر.

- أيّها الأبطال، اليوم موعدُكم مع النصر، اليوم ستفتح لكم فارس، وكلّ ممالك الشرق ذراعيها.

هكذا صرخ الإسكندر في جنوده الذين جاوبوه بصرخةٍ مجلجلة ألقتِ الرعب في قلوب الجيش الفارسي رغم عدده الضّخم، ولم تمض فترةٌ وجيزة على بداية المعركة حتّى بدأ الجيش الفارسي في التّقهقر، سرعان ما تحوّل إلى فرارٍ وهزيمة ماحقة.

كان أمامَ الإسكندر بعد هذا الانتصار الماحق خياران لا ثالث لهما، إمّا أن يتّجه نحو عاصمة فارس مباشرة، معرّضًا نفسَه وجيشَه لخطر التّطويق والحصار من الجيش الفارسي، أو يؤمن ظهرَه عن طريق إخضاع الولايات الفارسية أوّلًا، وهو الأمرُ الذي استقرّ عليه في النهاية، فتوجّه نحو بلاد فينيقيا، وحاصر مدينة صور التي استعصت عليه فأحرقها، وأخيرًا انتهى به المطاف في مصر.

رحّب المصريون بمجيء الإسكندر لأنّهم كرهوا حكم الفرس الذين أهانوهم وأهانوا آلهتهم، وهو الأمر الذي لم يغفره لهم المصريّون أبدًا، وأراد الإسكندر أن يكون حاكمًا شرعيًّا للبلاد، فتمّ تتوجيه كفرعون شرعي لمصر.

***

احتشد جمعٌ غفير من المصريّين ليشهدوا لحظةَ تتويج الفرعون الجديد الذي بدا ببشرته البيضاء وشعره الأشقر؛ غريبًا عن هذه الوجوه السّمراء، إلّا أنّ ذلك لم يمنع كبير الكهنة من أن يقول:

- بصفتي أنا الكاهن الأكبر، النّاطق بلسان آمون - رع، أعلنُ الإسكندر بن فيليب فرعونًا لأرض جيبت، وابنًا محبوبًا للإله آمون.

أحنى الإسكندر رأسَه قليلًا ليرتدي التّاج المزدوج دون أن يلتفتَ لنظرات قواده الساخطة الذين اجتمعوا في ركنٍ قصيّ من القاعة قبل أن يقول أحدهم:

- لا بدّ أنّ الإسكندر قد جُن، هل سيصدّق خرافات هؤلاء المهرجين؟

- لقد استهواه الأمر، فمَن يرفض أن يكون إلهًا؟

- ولم يكتفِ بذلك بل إنّه يتودّد إليهم، ويعاملهم برفق كما لو لم نكنْ فاتحين منتصرين.

***

لم يكدِ الإسكندر يستقرّ في مصر ويعطي أوامـره بإنشاء الإسكندرية؛ حتّى مضى يستكمل طريق فتوحاته، فالآن أصبح الطّريق نحو فارس ممهّدًا، وما أنْ وصل إلى أرض المعركة حتّى اقترح قادةُ جيش الإسكندر مباغتةَ الفرس عشيّة المعركة ومهاجمتهم تحت جنح الظلام، وأخذهم على حين غرّة، ذلك أنّ مواجهة هذا الجيش العرمرم وجهًا لوجه لهو أمرٌ في غاية العسر إنْ لم يكن مستحيلًا، لكنّ الإسكندر رفض هذه الفكرة قائلًا:

- لن نسرقَ هذا النصر، بل سنظفر به عن جدارة، فكيف أكونُ ملك آسيا الحقّ إن لم أكسبها بحقّ!!

وفي اليوم التّالي، اتّجه الجيش المقدوني إلى ساحة المعركة ليجدوا الفرس مصطفّين وبانتظارهم، وقد ظهر بين صفوفهم الكثيرُ من العجلات الحربية، وخمسة عشر فيلًا حربيًّا أحضرت خصيصًا من الهند.

أظهر الإسكندر نبوغَه العسكري عند بداية المعركة، فقام بالعَدْو على موازاة الجناح الأيمن للجيش الفارسي، يرافقه مجموعةٌ من أفضل فرسانه، فتبعه قسمٌ من الجيش، حتّى إذا ظهرت فجوةٌ بين صفوفهم، دخلها الإسكندر بسرعةٍ فائقة، ووصل إلى حيث تخفق راية الشّاه، الذي راعه رؤيةُ المقدونيّين وقد اخترقوا صفوفَ جيشه، ففرّ هاربًا مع بعض قادته، تاركًا جيشه يتضعضع تحتَ وطأة ضربات الإسكندر وجيشه، وانتصر الإسكندر، وصار عن حقّ «الشّاهنشاه» أو ملك الملوك.

لم يطقْ قوّاد الإسكندر هذه العادات الغريبة التي بدأ يتبنّاها، خاصّة حين أمرهم بالسجود له على عادةِ الفرس الذين كانوا يسجدون لحاكمهم، وبدأت نفوسهم تحدّثهم بالتمرّد، وقد خطّطوا بالفعل عدّة محاولات لاغتياله إلّا أنّ جميعها فشلت، ورغم ذلك استمرّ الإسكندر يكتسح الممالك أمامه واحدةً تلو الأخرى حتّى وصل إلى الهند، ورغم رغبتِه في الاستمرار إلّا أنّ جنوده كان قد أنهكوا تمامًا، ولم يعد بوسْعهم استكمال القتال، فاضطرّ إلى العودة، ولكنّه في طريق عودته توفّي في القصر الصّيفي لنبوخذ نصر في بابل في العاشر أو الحادي عشر من يونيو سنة ٣٢٣ ق.م في الثّانية والثلاثين من عمره.

ملاحظات:

- سخط قوّاد الإسكندر عليه بسبب تبنّيه العادات الفارسية والمصرية في تأليه الحاكم، بينما في بلاد اليونان لم يكنْ يُنظر للحاكم هذه النّظرة ذات التقديس.

- ثمّة شبهات حول وفاة الإسكندر، أنّه مات مسمومًا على يد أحد أتباعه، خاصّة بعد فشل المحاولات لاغتياله، وإعدام العديد من قواده.

- بعضُ الأقوال تربط بين الإسكندر وذي القرنين، إلّا أنّ هذا ليس صحيحًا؛ فذو القرنين كان حاكمًا عادلًا موحّدًا بالله، بينما كان الإسكندر يتبع دين الإغريق.

***

ها قد جنّ الليل أخيرًا، وانتشرت الظّلمة، أنتم تعلمون عادتي منذ وفاة معلّمي بالتسلّل كلّ ليلة إلى بيته، وأتحسّس طريقي في السّرداب الذي يوصلني بالمكتبة لأحصل على اللّفائف التي تركها لي هناك؛ حيث أوصاني بقراءتها جيدًا، وإعادة نسخها عدّة مرّات، حتّى لا تضيع خلاصةُ علمه، وهاأنذا أنفّذ وصيّته، ها قد لاحَ الضّوء في نهاية السّرداب حيث اللفائف، لنستكمل معًا ما حدث للإسكندر، ولنقرأ في، لفائف الإسكندرية.

اللّفافةُ الثّالثة: عصرُ البطالسة الكبار

التفّ قوّاد الإسكندر حوله في ساعته الأخيرة وهو يحتضر، وقد دار بخلدهم سؤالٌ واحد فقط، مَن سيخلف الإسكندر؟ مَن سيرث هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف؟ حتّى استجمع أحدُهم شجاعته، وقد شعر بدنوّ اللّحظة، وسأل الإسكندر قائلًا:

- مولاي، لَمن توصي بالحكم مِن بعدك؟

بعنين زائغتين قد خبا بريقُهما، ومن بين نوبات السّعال الشّديدة التي تنتابه قال الإسكندر:

- لَمن يستحق.

قالها وأسلم الرّوحَ من فوره وكأنّه تعمّد أن يتركهم في حيرتهم، وسرعان ما تكوّن مجلس حرب من قوّاد الإسكندر ليقرّروا مصير هذه الإمبراطورية، ليتّفقوا في النّهاية على تقسيمها فيما بينهم، وتقع مصرُ من نصيب سوتير أو المنقذ، بطليموس الأوّل.

عاش بطليموس في قصر والد الإسكندر الأكبر، وكان من غِلمان القصر، وبعدها أصبح من قوّاد الإسكندر، وقد اتّبع نفسَ سياسته في حُكم مصر حيث تقرّب من المصريّين، واتّبع عاداتهم، وتمّ تتويجه كفرعون مصريّ، واتّخذ ذات الألقاب الملكية، وكان أوّلَ مَن صكّ العملة للمصريّين بعد أنْ كانت معاملاتهم تتمّ بالمقايضة؛ ممّا ساعد على ازدهار التّجارة والاقتصاد بشكل عام، كما استطاع أن يقتحم فلسطين كما اهتمّ ببناء الدّولة فبدأ بإنشاء أسطول ضخم لحماية مصر من الأخطار. وبدأت في عهده عودةُ مصر كقوّة عظمى في العالم.

بطلميوس الأوّل كان قائدًا شجاعًا، ولذلك استطاع الغزو؛ حيث غزا شرق ليبيا (برقة)، واستطاع أخذَ مدينة سيرين وغيرها، وقام بإنشاء مزارعَ جديدة، وجعل الزّراعة تكون أكثر من مرّة في العام الواحد، وأدخل حيوانات جديدة مثل الجِمال والخنازير لوجود عددٍ كبير من اليونانيين في مصر، كما اعتنى بإنشاء مناحلَ كثيرة لتصدير عسله إلى الصّين، كما عمل على الاهتمام بالصناعة.

أطلقَ عليه سكان جزيرة رودس لقب سوتير، أو المنقذ، بعد أن ساعدهم أثناءَ حصار أعدائهم لهم، وقد توفّي بعد أن حكم مصر حوالي ٢٢ عامًا، تاركًا الحكمَ لابنه بطليموس الثاني.

اعتلى بطلميوس الثّاني عرشَ مصر في عام ٢٨٤ قبل الميلاد، وحكمَ مع والده حتّى عام ٢٨٣ قبل الميلاد، ثمّ انفرد بالحكم. وقد تمكّن من السيطرة على سوريا حتّى بحر إيجة، بالإضافة إلى بعضِ جزر اليونان. وقد كان الأسطولُ البحري المصري من أقوى الأساطيل البحرية في ذلك الوقت، إلّا أنّه انْهزم بهذا الأسطول سنة ٢٥٧ ق.م أمامَ ملك مقدونيا أنتيجونس، وفقد على إثر تلك المعركة السّيطرةَ على بعض أقاليم سورية والجزر اليونانية. اشتهرت فترةُ حكمه بالحروب شبه المستمرّة، وقد حاول وضعَ نهاية لهذه الحروب في آخر فترةٍ عمره بأنْ زوّج ابنته لأنطيوخوس حاكمِ سوريا، كان لديه العديدُ من الطموحات بأن يجعل الإسكندرية من المدن الشّهيرة من النّاحيتين الفنيّة والتجارية، فأجرى الكثير من التّحسينات على

ميناء الإسكندرية، وقرّر إنشاء فنار الإسكندرية لإرشاد السّفن، وكانت أوّلَ منارةٍ في العالم، والتي تعدّ من عجائب الدّنيا السبع القديمة، وقد بلغت الإسكندرية في عصره أوْجَ عظمتها، فبجانب فنار الإسكندرية، ازدهرتْ دار العلم التي حرص بطلميوس الثّاني على أن يجلب لها العلماء والفلاسفة من كافة أرجاء العالم. كما حظيت مكتبةُ الإسكندرية باهتمام بالغ. وجرى تزويدُها بالكتب من كافة أرجاء المعمورة، ولم يكتف علماءُ الإسكندرية بتجميع الكتب فحسب؛ بل نشطت حركةُ ترجمة الكتب غير اليونانية، وقد توفّي بعد أن حكم مصر حوالي أربعين عامًا، وتولّى من بعده بطليموس الثالث والذي لقّبه المصريون بالحسن، وقد اتّبع سيرة مَن سبقوه في معاملة المصريين بشكل جيد، واتّباع العادات المصرية، وتوفّي بعد حكم دام أربعة وعشرين عامًا، وخلفه ابنه بطليموس الرابع الذي سيتغيّر في عصره كلّ شيء.

* * *

- ألن تنتهي من هذا اللّهو والعبث، وتلتفت إلى أمور حكمك ورعيتك؟

صرخت أنونين، أمّ بطليموس الرابع، فيه، وقد استيقظَ للتّو قرب غروبِ الشمس بعد قضاء ليلة ماجنة وسط جواريه وحاشيته، إلّا أنّه لم يعرْها أيّ انتباه، وأجابها بغلظة:

- ليس هذا من شأنك يا أمّي.

حاولت أنونين كظمَ غيظها؛ فهي تعلم جيدًا مدى طيش ابنها، إلّا أنّها لم تعد تحتمل، خاصّة وأنّ أعداء البلاد يتربّصون بها، فعزمتْ في نفسها على استبدال ذلك الطائش بابنها الأصغر ماجاس، وحزمتْ رأيها على أمر خطير، على التخلّص من ابنها بطليموس الذي اكتشف المؤامرة، وأمر بقتلِها هي وأخيه، وتمّ تنفيذ حكم الإعدام فيهما.

***

ها قدِ انتهيتُ من نسخ هذه اللّفافة أيضًا، أتمنّى أن تكون سعيدًا في العالم الآخر يا معلّمي..

ملاحظات:

- كان المصريّون القدماء يكرهون الخنزير، ويحرّمون أكله، ويروْن أنّه كائن قذر.
- تمّت أوّل ترجمة للتوراة في عهد بطليموس الثاني، وأطلق عليها الترجمة السبعينية.
- تمّ دفن الإسكندر في مصر في مقبرةٍ غاية في الفخامة، ومليئة بالكنوز، إلّا أنّ هذه الكنوز تمّ الاستيلاءُ عليها لاحقًا نظرًا للأزمات الاقتصادية التي مرّت بها مصر، ومازال موقع مقبرته مجهولًا حتّى الآن.

اللّفافةُ الرّابعة: قوّةٌ جديدة

مرحبًا بكم، اسمي سوفوكليس لَمَن لا يعرفني منكم، وأنا في مهمّة مقدّسة كلّفني بها معلّمي قبل وفاتِه بقراءة لفائفَ غاية في

الخطورة والسّرية، وإعادة نسخها حتّى لا تضيع، لذلك تجدني كلّ ليلةٍ أتسلّل تحتَ جنح الظّلام إلى بيت معلّمي، ومنه إلى السّرداب الذي يقود إلى المكتبة حيث يحتفظُ باللفائف في حجرةٍ سريّة هناك.

اسمي سوفوكليس، وأنا خائفٌ للغاية ممّا يحدث هذه الأيام، ولكنّني لن أتوقّف عن قراءة اللفائف وإعادة نسخها مهْما كلّفني الأمر، اسمي سوفوكليس، ولسوف نبدأ معًا قراءة هذه اللفافة، هيّا بنا.

***

انحنى قائدُ الجيش في حضرة بطليموس الرّابع الذي تخلّص منذ بضعة أيام من أمّه وأخيه بإعدامهما، وقد جلس مطمئنًّا في قصره المنيف يداعبُ إحدى جواريه، ويعبّ من كؤوس الخمر المُتْرعة أمامه دونَ أن يحفل بقائد الجيوش الذي قال:

- مولاي، إذا أذنتَ لي ببعض وقتك.

نظرَ له بطليموس الرابع بغير اكتراث، بعينين نصف مفتوحتين وهو يقول:

- ماذا هناك؟

- بلغتني أخبارٌ من جواسيسنا في بلاط أنتيخوس الثالث أنّه ينوي استغلال الاضطرابات التي تمرّ بها البلاد للهجوم علينا، ويشاركه في هذا أميرُ مقدونيا.

أفاقَ بطليموس بمجرّد سماعه اسم أنتيخوس الثالث ملك السّلوقيين، فهو يعلم جيدًا أن الحرب سجالٌ بين الدّولتين منذ عصر

جدّه بطليموس الأوّل، وقال موجّهًا حديثه لقائد الجيوش:

– هممم.. إذًا، فهو ينوي فعلها!! ماذا عن حالة جيشنا؟

– الحقيقة يا مولاي إنّنا ينقصُنا الكثير لمواجهة أنتيخوس، فقد تناقص عددُ الجيش في الفترة الأخيرة نتيجةَ الحروب والفتوحاتِ المستمرّة، ولا أظنّنا سنصمد كثيرًا بهذا الحال.

– وماذا عن الاستعانة بجنودٍ مرتزقة؟

– يُمكننا فعلُ ذلك بالتّأكيد، ولكنّه سيؤثّر بشدّة على خزانة الدّولة، كما أنّنا لا نضمن ولاءهم.

احمرّ وجهُ بطليموس بالغضب وهو يصرخ في وجه قائدِ جيوشه قائلًا:

– ماذا عسانا أن نفعل إذًا؟!! أنتظر أنتيخوس هنا في القصر حتّى يجيء فأتنازل له عنه عن طيب خاطر!!

تردّد قائد الجيوش أمام هذه العاصفة الغاضبة من بطليموس، وقال بصوت مهتزّ النّبرات:

– عندي اقتراحٌ يا مولاي ربّما يكون على جانب من الصواب.

– ولماذا لم تقله حتّى الآن!!؟

– أرى يا مولاي أن.. أن.. أن نستعين بالجبتيين (المصريّين)؟

– ماذا؟!!

– هو مجرّد اقتراح يا سيدي.

– همممم، ولكنّ له وجاهته أيّها القائد، يمكننا تجنيدهم في جيوشنا حتّى نعبر هذه الأزمة، وبعدها نعيدهم إلى حقولهم من جديد.

– الأمرُ ما يرى مولاي بطليموس فيلوباتر المحبّ لأبيه.

وغادر القائدُ لتنفيذ الأمر دونَ أن يعلم أنّه هذا قد يغيّر الكثير من الأمور، الكثير جدًّا.

***

خرج جيشُ بطليموس الرّابع المكوّن في أغلبِه من المصريّين الذين يشاركون في حربٍ لأوّل مرّة منذ زمن طويل، حتّى يلتقي الجيشان عند رفح، وينتصر الجيش المصري انتصارًا ساحقًا أعاد لهم ذكرى أمجادهم الغابرة، وأعاد لهم ثقتهم في أنفسهم من جديد، في حين انتشى بطليموس بالنّصر، وقد اطمئنّ إلى أنّه تخلّص من كلّ منافسيه فانغمسَ في اللّهو والشراب أكثر حتّى وفاته بعد فترةِ حكم حوالي ثمانية عشَرَ عامًا استطاع خلالها القضاءَ على منافسيه والانتصار في معركة رفح، كما قضى على الثّورات والتمرّدات التي قام بها المصريّون بعد المعركة، إلّا أنه بوفاته عادتِ البلاد إلى الفوضى من جديد، واجتاحها أنتوخيوس الثّالث مرّة أخرى بمشاركة ملك مقدونيا لوْلا تدخل تلك القوّة الجديدة على السّاحة العالمية وأجبرتهما على الانسحاب من مصر وأعادت العرش إلى بطليموس الخامس أبيفانس أو الظّاهر، قوّةٌ جديدة اسمها، روما.

اللّفافةُ الخامسة: روما الأسطورة، روما الحقيقة

ازداد تيارُ نهر التيبير في هذا الوقت من العام، يجرفُ ما يقابله من أغصان جافّة وشجيرات صغيرة، ولكنّنا بالتّدقيق في مجراه

نستطيع أنْ نرى تلك السلّة التي تحمل بين جنباتها طفليْن يبدو عليها أنّهما حديثا الولادة، تنجرف السلّة رويدًا رويدًا نحو الشّاطئ، حتّى استقرّت أخيرًا على ضفّة النهر، بينما الطّفلان لا يعيان شيئًا، خاصّة مع اقتراب تلك الذّئبة التي ظهرت فجأة من مكان ما، وأصدرت عواءً طويلًا، إلّا أنّها- ويا للعجب- بدلًا من التهامهما إذا بها ترضعهما كأنّها أمّهما، يسري لبنُ الذّئبة في عروقهما مانحًا إيّاهما القوّة، إنّهما ريموس ورومولوس.

استمرّ الطّفلان على ذلك الحال حتّى وجدهما راعٍ وزوجته فقرّرا تبنّيهما حتّى أصبحا شابّين يافعين، وقرّرا بناء مدينة على التّبّة التي وجودوا عندها بجوار نهر التيبير، وبالفعل شيّدا المدينة إلّا أنّ ريموس سخر من أخيه، وفي لحظة الغضب تقاتل الأخوان حتّى انتهى الأمر بمقتل ريموس، بينما حكم رومولوس المدينة النّاشئة ما يقارب الأربعين عامًا.

دخلتْ روما في حروبٍ توسّعية كبيرة كان النصرُ في أغلبها حليفَها حتّى استطاعت أن تفرض سيطرتها على كافّة إيطاليا وبلاد اليونان وبلاد الغال (أسبانيا والبرتغال)، ولكنّ ما يعنينا من كلّ هذه الأحداث التي مرّت بها هو الحربُ الأهلية التي نشأت بين بومبي ويوليوس قيصر، والتي هربَ على إثرها بومبي إلى مصر بعد هزيمته لعلّه يستنجد بحاكمها الذي كان قد سانده للحصول على عرشه من قبل، إلّا أنّ أحد كبار رجال البلاط قد أمر بقتل بومبي، وتقديم رأسه ليوليوس قيصر، وقد ظنّ في نفسه أنه يتقرّب إلى المنتصر.

- سيدي قيصر عظيم روما، لقد أشرقتْ أنوار جلالتك على مصر، وإنّه لشرف لي أن أقدّم لك هديةً أرجو أن تنال استحسانكم السّامي.

قالها جابينوس أحدُ كبار رجال البلاط البطلمي وهو ينحني بذلّ أمامَ قيصر الذي قال بعظمة:

- أيّ هدية؟

أشار جابينوس إلى خادمِه الذي اقترب من قيصر حاملًا صندوقًا متوسّط الحجم قبل أن يركع على إحدى ركبتيه، ويفتح الصّندوق بحركةٍ مسرحية كما أوصاه سيّده، إلّا أنّ قيصر انتفض غاضبًا حين رأى رأس بومبي المستقرّة داخل الصندوق، وقال:

- أهذا ما تدعوه بالهديّة أيّها القائد!!، كيف تجرؤ على مثل هذه الخسّة والوضاعة؟!! وحقّ «مارس» لولا أنّك في حضرتي لكنت أمرت بقتلك الآن لقاءَ فعلتك هذه.

لم يفهمْ جابينوس سرَّ غضب قيصر إلى هذا الحدّ إلّا أنّه سارع بالاعتذار وهو يندفع خارجًا هربًا وهو يتعثّر في حرملته، بينما تصلُ إلى أذنيه أوامرُ قيصر باستعداد قوّاته للتوجّه إلى الإسكندرية، وبالفعل يتوجّه قيصر نحو الإسكندرية ويسيطر على القصر الملكي، ثمّ يستدعي الأخوين كليوباترا وبطليموس الثّالث عشر ليحلّ ما بينهما من نزاع، وقد استطاعت كليوباترا أنْ تستميل قلبَ قيصر إليها بذكائها وجمالها، وأنجبت منه طفلًا أسْمته قيصر، إلّا أنّ السكندريّين أطلقوا عليه قيصرون (أيّ قيصر الصغير)، ورحلت معه إلى روما،

الأمرُ الذي أثار حفيظة الرومانيّين حيث كانت التقاليدُ الرّومانية تمنع الرّومانَ من الزّواج بالمقدونيات أو المصريات، واعتبروها عشيقة للقيصر، وابنها ابنٌ غير شرعيّ، كما أنّهم توجّسوا خيفة من طموحات كليوباترا وتأثيرها على القيصر؛ ممّا دفعهم إلى التّآمر على قتله بعد خطبته في مجلس الشيوخ.

تأمّل قيصر انعكاسه في المرآة البرونزية، وشعر بالزّهو يملأ قلبه، فعلى الرغم من سنوات عمره التي جاوزت السبعين مازالت له نفسُ النّظرة الثاقبة، والهيبة التي تلقي الرّعبَ في نفوس أتباعه قبل أعدائه، وانطلق موكبُه المهيب نحو مجلس الشيوخ الذي ألقى فيه خطابه، وبمجرّد أن أنهى الاجتماع بشيوخ روما حتّى هُرع خارجًا لوْلا أنِ استوقفه أحدُ قوّاده، وسرعان ما تقدّم منه آخرون ملتفّين حوله، لم تغبْ عن خبرة وذكاء قيصر نظراتُ الغدر في عيونهم، رغم أنه حاول أن يكذّب شعورَه هذا، فرغم كلّ شيء مازال هو القيصر، ديكتاتور روما العظيم، ولكن سرعان ما أثبتت خبرته صحّةَ استنتاجها فانقضّت عليه الخناجر من كلّ صوب، إلّا أنّ ذلك الخنجر الأخير هو الذي قتله بحقّ، والذي كان بيدِ ربيبه وصديقه بروتس، فقال مقولتَه الشهيرة، وعيناه تفقدان بريق الحياة:

– حتّى أنت يا بروتس!!؟ إذًا، فليسقط قيصر.

قالها وجسدُه ينهار بفعل طعناتِ الغدر، إلّا أنّ الأمر لم يتوقّف عند هذا الحدّ، فسرعان ما هبّ اثنان من قوّاد قيصر للأخذ بثأره

واستعادةِ حقّه، واتّخذوا الترتيبات لذلك وانتظروا أن تشاركهم كليوباترا حربَهم هذه لأخذ حقّ زوجها السّابق، إلّا أنّ كليوباترا فضّلت البقاء على الحياد، ورأت أنّ هذه هي السّياسة السليمة؛ ممّا أثار سخط القائدين الرومانيّين، وانقسمت الإمبراطورية الرّومانية بين أنطونيوس وأكتافيوس، وكان الجانب الشّرقي حيث تقع مصر من نصيب أنطونيوس، ومن جديد استطاعت كليوباترا أنْ تحافظ على مملكتها ومملكة آبائها عن طريق استمالة القائد الرّوماني، وأنْجبت له ثلاثة أبناء، فأثار ذلك غضب أكتافيوس وأخته التي كانت زوجة أنطونيوس، واتّسع الخلاف بينهما حتّى وصلا إلى معركة أكتيوم البحرية، والتي انتصر فيها أكتافيوس على غريمه أنطونيوس، ولتفقد مصر استقلالها وتصبح مجرّدَ ولاية رومانية بعد حكم بطلميّ دام ما يقارب الثلاثمائة عام.

ملاحظات:

- الكثيرُ يعتقد أنّ كليوباترا كانت فائقةَ الجَمال وهو سرّ انجذاب قيصر وأنطونيوس لها، ولكن تشير معظمُ الآثار أنّ كليوباترا لم تكن ذات جَمال مميّز، إلّا أن شخصيتها الفريدة وذكاءها المتّقد كانا العنصرَ الأهمّ في سيطرتها على هؤلاء القادة الأفذاذ.

- حين أتى قيصر إلى مصر كان بإمكانه إعلانُ أنّ مصر أصبحت مقاطعة رومانية، إلّا أنّه خشي أن يعيّن عليها قائدًا رومانيًّا فيطمع في الاستقلال بها وينافسه، ففضّل أن يعيد العرش إلى كيلوباترا،

والتّعامل معها من منطلق الصداقة والتحالف ممّا سيضمن له ولاءها ومساندتها.

***

مِن جديد يعبر سوفوكليس السّردابَ من منزل معلّمه الواصل حتّى أسفل مكتبة الإسكندرية، وضع المشعلَ في مكانه، وعلى ضوئه تناول لفافةً جديدة، وشرع في قراءتها..

اللّفافةُ السّادسة: سلّةُ غذاء روما

صارتْ مصر ولايةً رومانيّة بعد انتصار أكتافيوس الذي تلقّب بعدها بأغسطس، إلّا أنّها لم تكن ولايةً رومانية بالمعنى المفهوم، فقد كانت أقربَ ما تكون إلى ضيعةٍ خاصّة للإمبراطور، وقد عيّن عليها نائبًا عنه يديرها باسمه، على أنّ الوظيفة الأساسيّة لمصر أصبحت إمداد روما بالحبوب والغلال المطلوبة؛ لذا فقدِ اهتمّ الرّومان بالزّراعة، خاصّة القمح والكتان الذين كانا حكرًا على الدولة، بداية من إمداد الفلاحين بالبذور وحتّى إرسال المحاصيل لروما، ورغم ازدهار الزّراعة نسبيًّا بسبب عنايةِ الدّولة وشقّ الترع، وتطوير نظم الرّي، إلّا أنّ حال الفلاحين كان من سيئ إلى أسوأ، كما أنّ الفتن والاضطرابات لم تهدأ في طول البلاد وعرضها، خاصّة في الإسكندرية حيث الثّورات المتتالية لليهود، والاشتباكات المتكرّرة مع الإغريق أو اليونانيين المتمصّرين، ويُروى أنّه في عهد الإمبراطور كاليجولا قامت نزاعاتٌ دامية بين اليهود والإغريق في الإسكندرية

بسبب اليهودي «أجريبا» الذي منحه كاليجولا حكمَ إحدى الممالك، ومرّ موكبه من الإسكندرية، إلّا أنّ الإغريق سخروا منه ومن موكبه حيث أحضروا رجلًا أبلهَ، وأركبوه حمارًا وألبسوه عباءة وضيعةً وتاجًا من القش؛ ممّا أغضب اليهود للغاية فاشتعلت المعارك بينهم، ممّا اضطرّ الحاكم الرّوماني لقمعهم، وأرسل كلا الفريقين وفدًا إلى الإمبراطور ليفصل بينهما في هذا الأمر.

انحنى رئيسُ الوفد اليهودي المدعو «فيلو» في حضرة الإمبراطور في رياءٍ واضح وهو يقول:

– مولانا الإمبراطور المبجّل، اسمح لي بأن أتحدّث باسم شعب اليهود شاكيًا لجلالتكم من فعلة الإغريق الخبثاء، من السّخرية من صديق جلالتكم «أجريبا».

هزّ الإمبراطور رأسَه بلا اكتراث، ثمّ التفت إلى «أبيون»، رئيس الوفد الإغريقي الذي قال بخبث شديدٍ وهو ينظر إلى فيلو بطرفِ عينه:

– أنت تعلم عظمةَ الإمبراطور أنّ الإغريق يكنّون لك كلّ حبّ وتقدير واحترام، كما أنّهم يقدّمون القرابين لتماثيل المقدّسة لأنّه واجب علينا تقديسُ الإمبراطور الإله، في حين أنّ اليهود كما تعلم يرفضون الاعتراف بألوهيّتك التي لا شكّ فيها.

احتقنَ وجهُ فيلو بالدّماء، بينما ارتسمت علاماتُ الغضب على وجه الإمبراطور وقال:

– أهذا صحيح؟!

ارتبكَ «فيلو» أكثر، وتعثّرت الكلمات في لسانه قائلًا:

- في الواقع يا مولاي أنّ.. أن..

هدرَ صوت الإمبراطور قائلًا:

- صمتًا.

فلاذَ الجميعُ بالصّمت كأنّما أكلت القطط ألسنتهم، في حين نادى الإمبراطور أحدَ الرسل، وقال على مسمعٍ مِن الجميع:

- اكتبْ مرسومًا إمبراطوريًّا يأمر بوضع تماثيلي في قلب هيكل اليهود، والتّأكد من تقديم القرابين له.

قالها وهو ينظرُ لرئيس وفد اليهود الذي شحبَ وجهُه، وقد علم وبالَ ما أوقعه فيه أبيون.

وقد استمرّت الإسكندرية رغم كونها عاصمةَ البلاد مصدرًا للثّورات القلاقل، فيُذكر أن الإمبراطور كاراكالا قد زار الإسكندرية وقد تشبّه بالإسكندر الأكبر والبطل الإغريقي أخيل إلّا أنّ السكندريّين قد سخروا منه، فما كان إلّا أنْ أمر بجمعهم في جمانيزيوم الإسكندرية الشهير.

اكتظّ الجمانيزيوم بالنّاس في ذلك اليوم، خاصّة الشباب، لمشاهدة ما سينتج عنه الاجتماع الذي نادى به الإمبراطور شخصيًّا دون أن يدركوا الغرضَ الحقيقيّ وراء هذا الاجتماع حتّى خرج أحد الحرّاس صارخًا:

- ستذوقون اليوم وبالَ ما اقترفتم أيها السفهاء.

قالها مطلقًا سيفَه نحو أقرب السكندريّين إليه وقد تبعه مجموعةٌ كبيرة من الحرّاس الذين أعملوا القتلَ في ذلك الحشد، فلم ينجُ منهم إلّا القليل تحتَ نظرات الإمبراطور المتشفّية، وقد جمعت عظامُ بعضهم وحُفظت في مقابر الكتاركت تخليدًا لذكراهم.

وبشكلٍ عام فقد كان حكمُ الرّومان وبالًا على المصريّين في عصر سادت فيه الاضطرابات والثّورات المتكرّرة إلّا فيما ندر، بل إنّ عدم الاستقرار السّياسي في روما كان أحد تلك العوامل في عدم استقرار الأوضاع في مصر، وعلى الرّغم من البؤس الذي يعيشه المصريّون، تسلّلت إلى مسامعهم أصواتٌ خافتة تقول إنّ هناك ديانة جديدة قادمة من أورشليم في فلسطين تدعو إلى عبادة الرّب والمساواة، فكانت نفوسُهم توّاقة لمعرفة هذه الديانة وتعاليمها.

***

أعادَ سوفوكليس الصّغير اللّفافةَ إلى موضعها وهو يسترجعُ كلّ ما حملته أخبار، وهو يتساءل كيف تسنّى لمعلّمه أن يحصل على كلّ هذه الأخبار، إلّا أنّه سرعان ما نفض الأمر عن رأسه وحملَ مشعله، وخرج عائدًا إلى بيته قبل أن يختنق.

ملاحظات:

- كانت الإسكندريةُ مدينة مستقلّةً عن كافّة أقاليم مصر، ولا تنتمي لأيّ من مديرياته، ولها جنسية خاصّة بها وهي الجنسيّة السّكندرية، وكان يجب أنْ تكون مواطنًا سكندريًّا لتحصل بعد

ذلك على الجنسيّة الرومانية، وتصبح مواطنًا رومانيًّا، وتستمتع بكلّ ما لذلك من مميزات من إعفاءات ضريبيّة وغيرها.

- كانت التّركيبة السكّانية للإسكندرية أحدَ الأسباب في اضطرابها حيث سكنها اليهود والإغريق والرّومان والفرس والفينيقيّون والليبيّون، وغيرهم من الشعوب، وكانت مثل هذه التركيبة غير المتجانسة والمشحونة دائمًا بالعصبيّات سببًا في اشتعال النزاعات بينهم.

- ظلّت قضية أجريبا معلّقةً، وبعد وفاة كلّ إمبراطور يحاول الطّرفان إعادة عرضها على الإمبراطور الجديد.

اللّفافةُ السّابعة: قيصرُ والمسيح

تشيرُ معظمُ الأناجيل إلى أنّ البداية كانت في بيت لحم؛ حيث ولد السيد المسيح، ومنها خرج إلى النّاصرة وأورشليم مبشّرًا بتعاليمه الجديدة، ويتبعه مجموعةٌ من أعوانه ومحبّيه، أو مَن أطلق عليهم التّلاميذ، ورغم أنّ هذه التّعاليم الجديدة كانت موجّهة بشكل أساسيّ لليهود، إلّا أنّها سرعان ما انتشرت على يدِ التّلاميذ حول العالم، ليبدأ فصلٌ من أهمّ الفصول العالمية حيث الصراع بين قيصر وما يمثّله من سلطةٍ دنيوية وقوّة غاشمة وبين المسيح بما يمثّله من ملكوت السماء.

بدتِ الإسكندرية زاهيةً نضرة تحت أشعة شمسِ الصّباح بمبانيها الشاهقة البياض، وقد بدت شوارعُها التي تشبه رقعةَ الشّطرنج لامعة، دون أن تعيرَ انتباهًا لذلك السّائر وحيدًا وقد بدا

عليه علاماتُ الإرهاق وطول السّفر، بينما أصابع قدميه تبرز من ثنايا نعلِه المتهرّئ، وقد كساها الطين بطبقةٍ رقيقة من السّواد، توجّه السائرُ إلى أقرب إسكافيّ رآه، فأقدم عليه قائلًا:

- مرحبًا أيّها الرجل الطيب.

نظرَ له الإسكافي وقد بدا عليه الغبطة وقال:

- مرحبًا بك يا سيّدي، كيف يُمكنني مساعدتك؟

- كما ترى فأنا على سفرٍ طويل وقد تهرّأ نعلي، فهل لك أن تصلحه؟

- بكلّ تأكيد، تفضّل بالجلوس.

أمسك الإسكافي النّعل، وبدأ في إصلاحه، وبينما هو يستخدم مخرازه (أداة لثقب الجلود) إذا به يجرح يدَه، فصرخ متألمًا:

- يا الله الواحد.

انتبهَ السّائر إلى كلمات الإسكافي التي تدلّ على إيمانه فقال:

- أأنت مؤمنٌ بالله الواحد؟

أجابه الإسكافي بلا تردّد قائلًا:

- بالطّبع.

وكانا هذان هُما أوّلَ مسيحيّين في الإسكندرية ومصر كلّها؛ الأوّل مرقس الرّسول، والثّاني أنانيس الإسكافي، فبعدها سينطلق الإسكافي بمرقس إلى بيته ليعمّد أهله ويبشّرهم بالدين الجديد، ومن ثَمّ أصدقاءه وجيرانه حتّى تزايد العددُ تدريجيًّا، وصار بإمكانهم تأسيسُ كنيسة، فكانت أول كنيسة أسّسوها في بوكاليا.

بدا واضحًا أنّ الدين الجديد ينتشر بين المصريّين بقوّة، ووجدوا في تعاليمه النبيلة ما يسد حاجتهم الرّوحية، بالإضافة لرغبتهم في مخالفة دين الرّومان الوثني الذين أذلّوهم وأفقروهم، إلّا أنّ هذا لم يكنْ نهاية معاناتهم، بل كان مجرّد بداية.

اتّخذ الأباطرة الرومان من أنفسهم آلهةً ثانوية، ففرضوا تقديم القرابين وحرق البخور لتماثيلهم المنتشرة في كافّة ولايات الإمبراطورية، وكان هذا بمثابة «يمين الولاء» يؤدّيه المواطنون للإمبراطور، وقد تمّ إعفاء اليهود من هذا القانون، ومِن بعدهم المسيحيّون في بداية الأمر، وإذا حدثَ تضييق من الرّومان فإنّهم يقدّمون القرابين ويحرقون البخور لتماثيل الإمبراطور ثمّ يعودون لممارسة شعائرهم بلا أيّ تضييق، واستمرّ هذا الأمر على هذا المنوال، فمن ناحية يتغاضى الإمبراطور عن إجبار المسيحيّين، ومن النّاحية الأخرى يتظاهر المسيحيون بالإذعان وقت التّضييق، أمّا مَن كان يرفض منهم فكان عقابُه السجن أو الجلد أو النّفي، وفي بعض الحالات النّادرة القتل، وقد وردت رسالةٌ من أحد الحكّام، والمدْعو «بلني» إلى تراجان يقول فيها..

«إنّ الطّريقة التي اتبعتها مع مَن اتّهموا أمامي أنّهم مسيحيون هي هذه: لقد سألتهم هل هم مسيحيّون؟ فإذا اعترفوا أعدتُ السّؤال عليهم مرّة أخرى، وأنذرتهم في الوقت نفسه أنّهم سيقتلون إذا أصرّوا على قولهم؛ فإذا أصروا عليها أمرتُ بقتلهم، إنّ الناس

بعد أن هجروا المعابد، فلا يكادون يطرقون بابها، قد أخذوا الآن يعودون إليها، وكثر الطّلب على الضحايا من الحيوانات بعد أن قلّ الإقبال على شرائها»

وعلى العكسِ من ذلك، كان الإمبراطور هادريان من أكثر الأباطرة تسامحًا لسعة ثقافته واطّلاعه وانفتاحه على آراءَ مختلفة، على أنّ خلفه أنطونيوس كان أكثرَ استمساكًا بدينه الوثنيّ فأمر باضطهاد المسيحيّين على أوسع نطاق، وتجدّد في عهد أورليوس الورع الذي أصيبت الإمبراطورية في عهده بعددٍ من الحوادث والمصائب، وساد اعتقادٌ بين الناس أنّ هذه الكوارث بسبب غضب الآلهة بسبب المسيحيين.

على أنّ أصعب المحَن التي واجهها المسيحيون كان عصر دقليديانوس أو «عصر الشّهداء» كما أُطلق عليه بعد ذلك، حيث توسّع دقليديانوس في اضطهاد المسيحيّين وتعذيبهم، وقتل منهم عددًا كبيرًا، حتّى أشيع في الإمبراطورية أنّهم كانوا يلقون بالمسيحيّين للأسود والضّواري، وكان معتادًا أن يهاجم العامّة من الوثنيين بيوتَ وكنائس المسيحيّين، وقد دام هذا الاضطهاد ما يقارب الثّمانية أعوام هلك خلالها حوالي ألف وخمسمائة مسيحيّ، ورغم كلّ هذا الاضطهاد والتضييق، ظلّت المسيحية تجتذب أتباعًا جددًا باطّراد، خاصّة وقد انتشرت قصص الاستشهاد والقديسين بين النّاس ممّا أثار مشاعرهم من تعاطف وبطولة، فكان له أبلغ الأثر في انتشار المسيحية.

واستمرّ الحال على هذا المنوال حتّى وفاة دقليديانوس، بعدها شهدت الإمبراطورية تخفيفًا على المسيحيّين إلّا أنّها لم تدمْ فترة طويلة عاد الاضطهادُ كما كان على يد الإمبراطور سبتيموس سيفرس، وهكذا تناوب الأباطرة الاضطهاد، وبعضهم حاول التّخفيف عن المسيحيين حتّى جاء قسطنطين ليعلن وقفَ اضطهاد المسيحيّين والاعترافَ بالدّيانة المسيحية، ولكن هل هذه هي نهاية الاضطهاد بالفعل؟

ملاحظات:

- تعتبر كنيسة بوكاليا هي أوّلَ كنيسة في أفريقيا كلّها، وقد تأسّست مكانها الكنيسة المرقسية بالإسكندرية، وتعتبر من المزارات السّياحية الدينية الهامّة.

- أقام السّكندريون عامود السّواري كنوع من التّكريم لدقلديانوس حيث قام بالعديد من الإصلاحات الاقتصادية، وخفّف الضّرائب في الولايات الرومانية، وكان بشكل عام إمبراطورًا محبوبًا قبل أن يضطهد المسيحيّين.

- كان الدّافع وراء معظم هذه الاضطهادات سببها العامّة من الوثنيّين حيث رأوا أن المسيحيين يتعالون عليهم، وعلى آلهتهم، فقاموا بتحريض حكّامهم ليُخضعوا المسيحيّين لسلطتهم حتّى لا تقوم الفتن، ويفكّروا بالتمرّد، كما قام الوثنيّون بمهاجمة أيّ تجمّع مسيحي وإيذائهم، الأمرُ الذي لن ينساه المسيحيون حين تتغيّر الأمور، ويصبح الحكمُ بيد المسيحيين.

اللّفافةُ الثّامنة: قيصرُ والكنيسة

أنا سوفوكليس الذي اختارته مشيئةُ السّماء لتلقي عليه عبء هذه المعرفة، اليوم ربما يكون هو اليومَ الأخير الذي أستطيع فيه المجيء إلى هنا، وقراءة هذه اللّفافات التي تركها لي معلّمي، فقد تنامى إلى علمي وصولُ جيش العرب إلى قرب البلوزيوم عند الحدود الشرقية للبلاد، بينما الرّومان في حالة هياج واستنفار عامّ استعدادًا لمواجهته. أنا سوفوكليس، وأنا أقرأ عليكم الآن اللّفافة الأخيرة.

ارتفع صوتُ غطيط الإمبراطور قسطنطين، وقد بدا من تقلّبه المستمرّ أنّ ثمّة أحلامًا مزعجة تراوده قبل أن يهدأ نومه قليلًا، وما أن استيقظ حتّى أمر بجمْع قوّاده في الحال.

- مولاي قسطنطين إمبراطور بيزنطة المعظم.

قالها أحدُ القادة وهُم ينحنون أمام قسطنطين الذي جلس على عرشه، وأشار لهم بالجلوس وقال:

- رأيت بالأمس رؤيا عجيبة.

تبادلَ القوّاد نظرات التعجّب، في حين أردف قسطنطين قائلًا:

- رأيت أنّني متوجّه إلى الحرب، وسمعت صوتًا مدوّيًا يأمرني برسم حرف X يقطعه خطّ أفقي على دروع جنودي، وهو نفس الرّمز الذي رأيته في معركة سكسا ربرا في السّماء، وتحته عبارة «بهذه العلامة انتصر»، ولا أرى إلّا أنْ تكون هذه بشارةً من السماء لانتصارنا.

بدا على القوّاد عدمُ التّصديق إلّا أنّهم لم يستطيعوا مصارحة الإمبراطور بذلك، فصاروا يتبارون في إظهار تعجّبهم من روحانية إمبراطورهم، وأخيرًا أصدر قسطنطين أوامره برسم هذا الصليب على دروع جنوده، وبالفعل ينتصرُ على كلّ أعدائه، ويصبح الإمبراطور الأوحد للدولة الرّومانية، وأعلن اعتناقَه للمسيحية وأعـادَ لهم ما فقدوه من الامتيازات والممتلكات خلال عهود الاضطهاد، ودعا رعاياه لأنْ يؤمنوا بالدّين الجديد، وأخيرًا صارت للمسيحية الكلمة العليا في العالم.

هل اعتنق قسطنطين المسيحيّة مخلصًا؟ أم أنّها حركة سياسية بارعة لتوحيد رعاياه تحت راية دينٍ واحد؟ أغلب الظّن أنّ الرّأي الثاني هو الأصوب، خاصّة أنّ كلّ أفعال قسطنطين لم تدل على أنّه مهتمّ بهذا الدين حقًّا، وقلّما مارس شعائره، وقد أحاط نفسه وبلاطَه بالكثير من العلماء والفلاسفة الوثنيّين، وعلى الأرجح أنّ الديانة الجديدة كانت عنده وسيلة لا غاية.

لم يكدِ العامُ الأوّل من اعتناق قسطنطين للمسيحية ينصرم حتّى نشبت أقوى الانشقاقات في الديانة المسيحية، حيث قام قسّ مصري يدعى آريوس بتقديم آراء غريبة حول طبيعة المسيح إلى أسقفه، وبدأت أفكارُ هذا القسّ في الانتشار بين رجال الدين، وحدثت بلبلة كبرى خاصّة بعد احتجاج الأسقف ألكسندر على هذا القول، وبدا واضحًا أنّ الدّين الجديد يشهد انقسامًا خطيرًا، ممّا دعا قسطنطين إلى إرسال

رسائل إلى الطّرفين يدعوهما فيها إلى الاحتفاظ بآرائهما ولا يجهرا بها للعامّة حتّى لا يبلبلَا إيمان النّاس (وهو ما يشير لعدم اهتمامه بالدّين أصلًا، ولكن انصبّ اهتمامه على وحدة الناس)، إلّا أنّ الأمر تفاقم أكثر، فأرسل قسطنطين إلى كبار الأساقفة ورجال الدين في مدينة نيقية ليقام أوّلُ مجمع مسكوني لمناقشة هذا الأمر برئاسة قسطنطين.

اتّخذ جميع الأساقفة مجالسهم حول المائدة الطويلة التي اجتمعوا حولها، بينما اتّخذ قسطنطين مجلسه على رأس المائدة وقال بصرامة:

- والآن يا أصحابَ القداسة، سنناقش هنا أمرَ خلافكم حول طبيعة المسيح، على أنه يجب أن يكون معلومًا لدى الجميع أنّه بانقضاء هذا المجلس، سيكون ثمّة رأي واحد أجمعنا عليه، ولا رأي سواه، وسينظر إلى الرّأي الآخر كبدعةٍ وتجديف وهو ما لن أقبل به داخل حدود دولتي.

صمتَ قليلًا ليتطلع إلى تأثير كلماته في وجوههم، فلم يرَ سوى الإذعان باستثناء بعض النظرات المتمرّدة من آريوس؛ لذا فقد قرّر أن يبدأ به أوّلًا فقال:

- فلتبدأ أنت أيها القسّ المحترم آريوس بعرض رأيك علينا.

وقفَ آريوس بصلابة موجّهًا حديثه للجميع وقال:

- جلالة الإمبراطور، أصحاب القداسة، فلتحلّ بركات الرب على مجلسنا هذا حيث ننشد الوصول لحقيقته، داعين الله أن يهدينا إلى الإيمان القويم، وهذا ما أراه في طبيعة السيد يسوع المسيح.

أخذَ نفسًا عميقًا كأنّه مقبلٌ على أمر لا يستطيع التحكّم في انفعالاته بشأنه قبل أن يقول:

– إنّ ما أراه أيّها السادة أنّ المسيح لم يكن هو والخالق شيئًا واحدًا، بل كان هو الكلمة أوّل الكائنات التي خلقها الله وأسماها.

قاطعه الأسقف ألكسندر محتدًّا:

– إنّ ما تقول به هذا هو محْض تجديف وزندقة يا آريوس.

انفعلَ آريوس وصرخ قائلًا:

– بل هو الحقّ مطلق يا نيافة الأب المحترم، فإذا كان المسيح من نسل الآب، فلا بدّ أن تكون ولادته قد حدثتْ في زمن، وعلى هذا لا يمكن أن يكون الابن متّفقًا مع وجود الآب في الزمن.

واستمرّ النّقاش طويلًا بين كلا الفريقين، وقد اتّضح لقسطنطين أنّ الأغلبية تميل لصالح ألكسندر، لذا فقد أرخى له العنانَ ليجمع كلمة رجال الدين على قول واحد، ومن ثمّ أمروا بتجريد آريوس وجماعته من رتبِهم الكنسيّة، واشتهرت آراؤهم باسم «بدعة آريوس»، وبعد العديد من المجامع المسكونية، أصدر المجلسُ بموافقة الإمبراطور القرار الآتي:

«نحن نؤمن بإلهٍ واحد، هو الأب القادر على كلّ شيء، خالق الأشياء كلّها، ما ظهر منها وما بطن؛ وبسيّد واحد هو يسوع المسيح ابن الله، المولود، غير المخلوق من نفس جوهر الأب...»

وربّما تظنّ أنّه بمثل هذا القرار انتهى الخلاف في العالم المسيحي،

ولكنّك سرعان ما تكتشف تعرّض المسيحية لفتنةٍ كبرى جديدة حول طبيعة المسيح أيضًا، ففي الوقت الذي آمن فيه الرومان بما فيهم الإمبراطور ذاته بطبيعتيْن ومشيئتين مختلفتين للمسيح، وقد أطلق على هذا المذهب «الملكانية» نسبة إلى إيمان الملك أو الإمبراطور به، نجد على الجانب الآخر كنيسة الإسكندرية وكنيسة السريان ترفضان الاعترافَ بهذا المذهب، وتؤمن بمذهب «يعقوب البرادعي» الذي قال بطبيعةٍ واحدة للمسيح لها جوهران: لاهوتي وناسوتي (أيّ إلهي وإنساني) وقد تسمّى أتباع هذا المذهب بـ «اليعاقبة».

ومِن جديد يتعرّض مسيحيّو مصر للاضطهاد، ولكنْ هذه المرّة على يد أبناء دينهم ذاته، حتّى لقد اضطرّ بابا الكنيسة الأب بنيامين إلى الهروب إلى الصّحراء قبيل مجيء العرب إلى مصر.

ملاحظات:

- لا يمكن ذكرُ انتصار المسيحية دون ذكر مقتل هيباتيا عالمة الرياضيات والفلك والفيلسوفة السّكندرية التي قتلها المسيحيّون المتعصبون، الأمرُ الذي يشبه ما كان يفعله الوثنيون بالمسيحيين من قبل.

- اتّخذ قسطنطين من المسيحية وسيلةً لتوحيد رعايا مملكته حيث رأى فيهم النظام ووحدة الفكرة وطاعتهم المطلقة لرجال الدين، كما أنّه رأى سموّهم الأخلاقي، وبعدَهم عن التفسّخ والانحلال الذي أصاب الدّولة الرومانية في أواخر عهدها، ممّا شجعه على تبنّي هذه الديانة لتحقيق أغراضه في السّيطرة على الدولة الرومانية وتقوية دعائم ملكه.

- كان تأثيرُ قسطنطين سلبيًّا على المسيحية، حيث تدخّل في قرار المجمع المسكوني، وانْحاز للبعض دون الآخر بغضّ النّظر عن صحة دعواهم لكنْ ما كان يعنيه في النهاية بقاء الوحدة.

- عانى المصريّون كثيرًا تحت حكم الرومان سواء كانت الديانة وثنية أو مسيحية، وعانوا من الظّلم الاجتماعي والطبقي، وفرض الضرائب- خاصّة ضريبة الرؤوس التي فرضت على الجميع- واشتدّ الظلم في أواخر حكم الرومان لهم ممّا دعاهم للتعاون مع العرب.

الجزءُ الثّالث

متونُ الورّاق

اليوم بلغتُ الثّامنة عشرة من عمري، وقد وعدني أبي أن يصطحبني، لا أعلم إلى أين، ولكنّه يقول إنّ الأمر هامّ للغاية، لذا فها أنا قد ارتديت عباءتي وعمامتي، وتوجّهت معه إلى النصف القبلي من منزلنا، حيث كان محرّمًا علينا كأهل الدّار أو أحد من الخدم أن يقترب منه، وحده أبي واثنان من أصدقائه لهم حقّ دخول هذا القسم من المنزل، ولكن اليوم سأعرف هذا السرّ من أبي الشّيخ عبد الوهاب بن محمد الورّاق، شيخ الورّاقين في مصر المحروسة.

- اقترب يا سعيد.

اقتربتُ من أبي، وقلبي يخفق بشدّة من الرّهبة، بينما عيناي تجولان في المكان المليء بالكتب في كلّ اتجاه، قبل أن أسمع أبي يقول:

- اسمعني جيّدًا يا بني، فأنت اليوم صرتَ ما شاء الله شابًّا يافعًا، وقد بلغت السعي مثلما بلغه قبلك سيّدنا إسماعيل مع أبيه النّبي إبراهيم عليهما السّلام، وآن لك أن تحمل معي هذه الأمانة.

أصختُ السّمع جيدًا، وأنا أحفظ عن أبي كلّ كلمة يقولها:

- هنا يا بنيّ حفظت كلّ كتاب استبصرتُ بخبرتي شأنَه وخطورته، وقد بلغ عمر بعضها ألفَ عام، وقد حفظتها عن أبي،

وأبي حفظها عن جدّك، ولا نسمح نحن الورّاقين بضياع العلم من هذه الكتب، فالكتاب الذي نراه قد بدأ يتهرّأ نعيدُ نسخه من جديد، ليعود شابًّا كما كان، هنا يا ولدي حيث حفظت لك تاريخَ أجدادك، واليوم هذه الأمانة بين يديك فاحفظها، ولا تفرّط في أمانتك.

قلتُ بصوت مبحوح وقد اعتراني خوفٌ مبْهم من ثقل ما حمّلني أبي:

- أمرُك يا أبي.

- ولكي تحفظ أمانتك يا ولدي يجب أن تعرف ما كان، حتّى تتهيّأ لما يكون، وتحترز مما سيكون.

وأشار إلى أحد الأركان وقال:

- سنبدأ من هنا يا ولدي، حيث تتعلّم تاريخ المحروسة، ففي هذه المتون أخبارٌ وسِيَر لا بدّ أن تحيط بها قبل أن تحمل أمانتك.

هززتُ رأسي بالإيجاب، فأشار لي نحو أحد المتون وقال:

- هيّا ناولني هذا المتن.

تناولتُ المتن وقد اصفرّت رقوقه (جمع رِقّ، وهو الجلد المدبوغ، ويستخدم قديمًا في الكتابة)، وبدا عليها القدم، وقد كتب على أوّل رِقّ منها..

المتنُ الأوّل

فتحُ مصر وأخبارٌ عن الفتنة ودولة بني أمية

تناول أبي الكتاب، وفتحه على أوّل رِقّ منه، وأخذ يقرأ...

الرّقّ الأول: طموح عمرو، وتردد عمر

في إحدى مدن الشّام اختلى عمرو بن العاص بالخليفة الثّاني عمر بن الخطاب ليفاتحه بأمر استمرارِ الفتح، وقد بدا عمرو متحمّسًا للغاية وهو يقول:

- يا أميرَ المؤمنين، إنّك إن فتحتها صارت قوّةً للمسلمين وعونًا لهم، وهي أكثرُ الأرض أموالًا وأعجزها عن القتال والحرب.

- أخشى على المسلمين يا عمرو، فجيوشُ الإسلام تفتح في فارس والعراق والشام بلا توقف، وأرى أن نوقف الزّحف حتّى يستتبّ لنا الأمر فيما فتحناه من بلاد.

فمازال عمرو بن العاص يحاول إقناعَه، ويحبّب له فتح مصر حتّى قال عمر:

- سرْ وأنا مستخيرٌ اللهَ في مسيرك، وسيأتيك كتابي سريعًا إن شاء الله، فإنْ أدركك كتابي، أمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها، وإن دخلتها قبل كتابي فامْضِ لوجهك واستعنْ

بالله واستغفرْه.

وبالفعل، تحرّك عمرو في ثلاثة آلاف وخمسمائة متّجهًا إلى مصر حتّى وصل بالقرب من مدينة رفح المصرية، فوصله الخبرُ بقدوم رسول أمير المؤمنين، فخشيَ أن يأمره الخليفة بالرجوع، وماطلَ في تسلّم الرسالة حتّى وصل إلى قرية بين رفح والعريش، فجاء بالرّسول وقرأ الكتاب على المسلمين، فقال عمرو لأصحابه:

- ألستم تعلمون أنّ هذه القرية من مصر؟

فأجابوا قائلين:

- بلى.

فقال وقد تهلّلت أساريره:

- فإنّ أمير المؤمنين عهد إلي، وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل مصر أنْ أرجع، ولم يلحقني كتابه حتّى دخلنا أرضَ مصر، فسيروا على بركة الله.

مضى عمرو في طريقه نحو الفرما، وقد انضمّ إليه خمسمائة من رجال القبائل العربية الموجودة في سيناء، فصار قوامُ جيشه أربعة آلاف، وبعد أن سيطر على الفرما توجّه نحو بلبيس بالشرقية، ثمّ أمّ دنين، وهناك طلب عمرو بن العاص من الخليفة المددَ، فأرسل له أربعة آلاف مقاتل، وعلى رأس كلّ منها رجلٌ بألف، هم:

- الزبير بن العوام.
- عبادة بن الصامت.
- المقداد بن الأسود.

- مسلمة بن مخلد.

وبعد سقوط أمّ دنين توجّه نحو حصن بابليون، حيث استمرّ الحصار طويلًا دون أن يحقّق المسلمون أيّ تقدّم.

انسحب آخرُ شعاع للشّمس من النّافذة، فأغلق أبي الكتاب، ثمّ عدْنا إلى البيت، على أن نأتي هنا في الصّباح لنستكمل ما بدأناه، وأستكشف ما بداخل متون الورّاق.

ملاحظات:

- كانت معرفةُ عمرو بن العاص بمصر قويّة للغاية، والأرجح أنّه زارها من قبلُ، ورأى ما فيها من خيرات، وهو ما حبّب إليه فتحها، واستأذن في ذلك من الخليفة عمر بن الخطاب.

- كانت العديدُ من القبائل العربية قد استقرّ بمصر منذ عصورٍ قديمة للغاية في مصر، واستقرّوا في سيناء والصعيد وغيرها أشهرهم قبيلة لخم وقبيلة أزد.

- ثمّة مرويّات تاريخيّة أنّ المصريّين أو القبط قد ساعدوا الفاتح العربي للتخلّص من الرومان أملًا في أن يكون أرفق حالًا بهم.

- كان التخبّط الذي يسود الدّولة الرومانية آنذاك ووفاة الإمبراطور وتصارع خلفائه على العرش؛ سببًا أساسيًّا في عدم تفرّغهم للدّفاع عن مصر، رغم الإمدادات التي أرسلتها بيزنطة لـ «قيرس» مقوقس مصر، إلّا أنّها لم تكن كافية لإيقاف المسلمين.

* * *

الرّقّ الثّاني: تأخّرُ الفتح

أنا سعيد بن عبد الوهاب الورّاق، وهذا أبي جالسًا أمامي يحمل المتن الأوّل، ويقرأ عليّ بقية ما وصلنا من أخبار عن فتح مصر.

لم يمتلكِ العرب- والمسلمون بالضّرورة- آلات حصارٍ كالمنجنيق وغيرها، بل اعتمدوا على التّضييق على المحاصرين والثّبات والصّبر حتّى تنتهي مؤن الأعداء من طعام ومياه وذخيرة فيضطرّون للاستسلام، إلّا أنّ الحصار طال وتأخّر الفتح، وقد أمضى المسلمون ما يقرب من السّبعة أشهر دون تحقيق أيّ تقدّم يذكر، فلمّا تأخّر الفتح أرسل الخليفة عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص برسالة جاء فيها..

«أمّا بعد: فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، وما ذاك إلّا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحبّ عدوُّكم، وإنّ الله تعالى لا ينصر قومًا إلّا بصدق نياتهم، وقد كنت وجّهت إليك أربعة نفر وأعلمتك أنّ الرجل منهم مقامَ ألف رجل على ما أعرف؛ إلّا أنْ يكون غيّرهم ما غيّر غيرهم. فإذا أتاك كتابي هذا فاخطبِ النّاس وحضّهم على قتال عدوّهم، ورغّبهم في الصّبر والنّية، وقدّم أولئك الأربعة في صدور النّاس، ثمّ لتأمر النّاسَ أن يكون لهم صدمة كصدمةِ رجل واحد، وليكن ذلك عند الزّوال يوم الجمعة، فإنّها ساعة تنزل فيها الرّحمة، ووقت الإجابة، وليعجّ الناس إلى الله وليسألوه النّصر على عدوّهم».

وبالفعل، ينفّذ عمرو وصيةَ خليفة المسلمين، ويصعد الزّبير بن العوام سلّمًا صنعوه له ليعتلي أسوارَ الحصن في هجمةٍ فدائية

فريدة، وتبعه بعضُ الجنود حتّى كادَ السّلم ينكسرُ من فرط ثقلهم، واستطاعت هذه الفرقة الفدائيّةُ من مباغتة الرّومان الذين لم يستطيعوا استيعاب مثل هذه الانتحارية والاستماتة على النّصر، فاندحروا وفتح الزّبيرُ باب الحصن للمسلمين فسقطَ من فوره، وبذلك استطاع جيشُ المسلمين السيطرةَ على الحصن، واستعدّ للتوجّه إلى الإسكندرية.

توجّه عمرو من فوره زاحفًا نحو الإسكندرية منضمًّا له عددٌ من المصريين، وبعضهم اعتنق الإسلام، في حين فرّ إلى أغلب القادة الرّومان بعد سقوط بابليون للاحتماء بحصون الإسكندرية، فضرب عليها المسلمون الحصار لمدّة أربعة أشهر وقد سادها الهرج والمرج واقتتل أهلها فيما بينهم، ودافعت عنها الحامية الرّومانية باستماتة، إلّا أنّه في نهاية الأمر سقطت الإسكندرية في يد المسلمين، ورحلَ عنها الرومان وبقيَ بعضهم في الإسكندرية يدفع الجزية للمسلمين.

وقد كتبَ عمرو بن العاص لأهل مصر كتابًا على غرار «العُهدة العمرية» التي كتبها عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس، جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهلَ مصر من الأمان على أنفسهم وملَّتهم وأموالهم وكنائسهم وصُلبهم وبرِّهم وبحرهم، لا يزيد شيء في ذلك ولا ينقص ولا يُساكنهم النُّوب، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصّلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألفَ ألفٍ، وعليه ممّن

جنى نُصرتهم، فإنْ أبى أحدٌ منهم أن يُجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم، وذمّتنا ممّن أبى بريئة، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رُفع عنهم بقدر ذلك، ومَن دخل في صُلحهم من الرّوم والنّوب فلَهُ ما لهم، وعليه ما عليهم، ومَن أبى واختار الذّهابَ فهو آمن حتّى يبلغ مأمنَه، ويخرج من سُلطاننا، وعليهم ما عليهم أثلاثًا في كلّ ثُلثٍ جباية ثُلُث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمّة رسوله، وذمة الخليفة أميرِ المؤمنين وذممِ المُؤمنين، وعلى النُّوبة الذين استجابوا أن يُعينوا بكذا وكذا رأسًا، وكذا وكذا فرسًا، على أن لا يغزوا ولا يُمنعوا من تجارةٍ صادرة ولا واردة. شهد الزّبير وعبدُ الله ومُحمَّد، ابناه، وكتب وردان وحضر».

وبعد تمام الفتح أرسل الخليفة عمر بن الخطاب رسالة إلى عمرو يأمره أن يصف له مصر كأنه يراها، فأرسل له عمرو يقول:

«أمَّا بعدُ، يا أميرَ المُؤمنين، فإنَّها تُربةٌ غبراء، وحشيشةٌ خضراء، بين جبلين؛ جبلُ رملٍ كأنَّه بطنٌ أقبّ، وظهرٌ أجبّ، ورزقُها ما بين أسوان إلى منشأ من البر، يخطُّ وسطها نهرٌ مُبارك الغدوات، ميمونُ الرّوحات، يجري بالزيادة والنّقصان، كمجاري الشمس والقمر، لهُ أوان تظهر إليه عُيونُ الأرض ومنابعها، مُسخّرةً له بذلك ومأمورة له، حتّى أطلخمَّ عجاجه، وقفطفطت أمواجُه، واغلولوت لُجُجه، لم يبقَ الخَلاصُ إلى القُرى بعضها إلى بعضٍ، إلّا في خفاف القوارب، أو صغار المراكب، التي كأنَّها في الجبائل ورق الأبابيل، ثُمَّ أعاد بعد انتهاء أجله نكص على

عقبه، كأوَّل ما بدأ، في دربه وطما في سربه. ثُمَّ استبان مكنونها ومخزونها، ثُمَّ انتشرت بعد ذلك أُمَّةٌ مخفورة، وذمَّةٌ مغفورة لِغيرهم ما سعوا به من كدِّهم وما ينالوا بِجُهدهم، شعثوا بُطون الأرض وروابيها. ورموا فيها من الحبِّ ما يرجعون به من التّمام من الربّ، حتّى إذا أحدق فاستبق وأسبل قنواته. سقى الله من فوقه النّدى، ورواه من تحت بالثّرى. ورُبّما كان سحابٌ مُكفهر ورُبَّما لم يكن.

وفي زماننا ذلك، يا أميرَ المُؤمنين، ما يُغني ذُبابه ويُدبِّرُ حلابه. فبينما هي بريَّةٌ غبراء، إذ هي لُجَّةٌ زرقاء، إذ هي سُندُسيَّةٌ خضراء، إذ هي ديباجةٌ رقشاء، إذ هي دُرَّةٌ بيضاء، إذ هي حلَّةٌ سوداء. فتبارك الله أحسنُ الخالقين. والذي يُصلحُ هذه البلاد ويُقرُّ قاطنها فيها ثلاثةُ أشياء: أوَّلها لا تقبل قول رئيسها على خسيسها..

والثّاني يؤخذ ثُلث ارتفاعها يُصرف في عمارة ترعها وجُسورها..

والثّالث لا يُستأدى خراج كلّ صنفٍ إلّا منه عند استهلاله..

فإذا تقرَّر الحال مع العُمَّال على هذه الأحوال تضاعف ارتفاعُ المال، واللهُ المُوفِّقُ إلى حُسن المآل.. والسَّلام».

وبهذا خرجت مصر من ولاية الرّوم لتصبح ولاية إسلامية عربية، وتقلّد ولايتها عمرو بن العاص، فصار أوّلَ والٍ عربيّ مسلم عليها.

ملاحظات:

- لم تنقطعِ المراسلات بين عمرو بن العاص وبين المقوقس «قيرس» حول بنود الصلح طوال فترةِ حصار حصن بابليون، وقد

فشلت المفاوضاتُ عدّة مرّات بسبب رفض هرقل إمبراطور روما تسليمَ مصر للعرب، واتّهم المقوقس بالتّقصير والخيانة، إلّا أنّه مع سقوط الإسكندرية لم يجدْ هرقل مفرًّا من قبول الاستسلام.

- على ناحيةٍ أخرى لم تتوقّف المراسلات بين عمرو بن العاص وبين الأنبا بنيامين القائد الرّوحي للقبط المصريّين، وبطريرك الكنيسة المرقسية بالإسكندرية، والذي فرّ إلى أديرة الصحراء خوفًا من بطش الرّومان، وقد أعاده عمرو بن العاص آمنًا إلى بطريركيته.

- بعدَ سقوط الإسكندرية حاول الرّومان استعادتها مرّةً أخرى في عهد الخليفة عثمان بن عفان فأرسلوا أسطولًا لهذه الغاية، إلّا أنّ عمرو استطاع فتحَها ثانية، وتحصينها جيدًا، وبذلك فقد الرّومانُ أيّ أملٍ في عودتهم إلى مصر.

- أرادَ عمرو بن العاص أن يتّخذ من الإسكندرية عاصمةً له لشدّة جمالها وفخامة بنيانها، إلّا أن الخليفة عمر بن الخطاب رفض، وأرسل له قائلًا «لا أريد أن يحول بيني وبين المسلمين ماء».

- يدّعي البعض أنّ مصر قد تمّ فتحها صلحًا وبدبلوماسية عمرو بن العاص، وهو قول حقّ يُراد به باطل، فقد فتحتْ مصر صلحًا مع المصريّين حيث لم يتعرّض الجيش العربي للمصريّين بسوء، وكذلك لم يقاوم المصريّون دخولَ العرب؛ بل على العكس ساعدوهم وأقرّوا بحكمهم لشدّة كراهيتهم للرومان، بينما حارب الجيش الإسلامي كما رأينا الرومان بضراوة.

- أسّس عمرو بن العاص مدينة الفسطاط، وبنى فيها جامعَه الشّهير، الواقع بمصر القديمة حاليًا.

* * *

الرّقُّ الثّالث: الفتنة

لم يكدِ الأمرُ يستقرّ لعمرو بن العاص في مصر، فأخضع ما بقي من مقاطعات مصر، ونظّم شئونها، حتّى بدأت الزّلزلة الأولى للفتنة حيث عيّن الخليفةُ عثمان أخاه في الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي السّرح واليًا للصّعيد، وولّاه جمع الخراج ممّا أثار استياء عمرو بن العاص، فعزله الخليفة، وعيّن عبد الله بن سعد واليًا على مصر، إلّا أنّه لم يكن بذات الحكمة والدبلوماسية التي تمتّع بها سلفُه عمرو، فاشتدّ على المصريين في جمع الضرائب وزادَ من خراجها، وأساء معاملتهم، حتّى أنّ عثمان قال لعمرو الذي كان حاضرًا مجلسه مع عبد الله بن سعد:

- لقد درَّت اللّقحة من بعدك يا أبا عبد الله.

في إشارة إلى زيادة الخَراج في عهد عبد الله، إلّا أنّ عمرو أجاب بسرعة قائلًا:

- ولكنّكم أضررتَ بوليدها يا أمير المؤمنين.

وقد بلغ من سوءِ معاملة عبد الله بن أبي السّرح للمصريّين أن دفع أهل الإسكندرية للاستعانة بالرّومان مرّة أخرى ليخلّصوهم منه، لوْلا أن كلّف الخليفة عثمان عمرو بن العاص بالدّفاع عن

الإسكندرية واستعادتها، وهو ما نجح عمرو فيه بالفعل.

ونتيجةً لمثل هذه السّياسات وغيرها، أرسلت الأمصار والولايات كلّها وفودًا إلى المدينة لمراجعة الخليفة، وكان من ضمنها وفدُ مصر، إلّا أنّ الأمور تطوّرت بسرعة، وقبض الوفد المصري أثناء عودتهم على أحدِ خدم الخليفة برسالةٍ إلى والي مصر يأمره بقتلهم، فأثار ذلك غضبَهم، وعادوا إلى المدينة عازمين على خلع الخليفة، وقد انضمّ لهم العديد من الثّوار والمتمردين، حتّى انتهى الأمر بمقتل الخليفة عثمان، وتولّى الخلافة علي بن أبى طالب.

بعد مقتلِ عثمان بن عفان، اضطربَ الأمر في كلّ الولايات الإسلامية، ومن بينها مصر، وانْحازت فئةٌ إلى معاوية بن أبي سفيان تطالب بدم عثمان، وفئة أخرى إلى علي بن أبي طالب.

وقام عليّ بن أبي طالب بعزل عبد الله بن سعد من ولاية مصر، وولّى مكانه قيس بن سعد بن عبادة، وكان قيس من أدهى دواهي العرب، استطاع أن يستميل شيعة عثمان الذي كانوا يطالبون بدمِه في مصر، وعلى رأسهم معاوية بن حديج، ليأمن مكرَهم و مكيدتهم. كما استطاع أن يضبط الأمورَ في البلاد مدّة ولايته، لذلك علم معاوية بن أبي سفيان أنّه لن يستطيع أن يستولي على مصر ويستقوي بها مع الشّام ضدّ علي بن أبي طالب مادام فيها قيس بن سعد، فأرسل إلى قيس يحاول أن يستميله إلى صفّه، إلّا أنّ قيس أبى ورفض بشدّةٍ الانقلابَ على عليّ بن أبى طالب.

وعندما علم معاوية أنّه لن يستطيع أن يستميله، لجأ إلي المكيدة، فأطلق إشاعة في الشّام أنّ قيس بن سعد قد بايعه. وانتشرت الإشاعة حتّى وصلت إلى علي بن أبي طالب، فأشار عليه أصحابه أن يقومَ بعزل قيس بن سعد عن مصر مخافةَ أن يكون الخبر صحيحًا، وبالفعل قام عليّ بن أبي طالب بعزل قيس عن ولاية مصر بعد أنْ دامت ولايته أربعة أشهر وخمسة أيام، وولّى عليها الأشتر النّخعي، إلّا أنّه اغتيل فورَ قدومه إلى مصر، فقد دسّ إليه أحدهم السّم في العسل، حتّى لقد قال معاوية:

- إنّ لله جنودًا من عسل.

بعدَ اغتيال الأشتر النّخعي، تولّى محمد بن أبي بكر على مصر، وكان محمد فتًى في الخامسة والعشرين من عمره، قليل الخبرة. كما أنّه لم يسمع نصيحة قيس بن سعد عن كيفية معاملة شيعة عثمان في مصر حتّى لا يثوروا عليه.

لذلك وجد معاوية بن أبي سفيان أنّ الفرصة مواتية للانقضاض على مصر، فأرسل جيشًا قوامه ستّة آلاف رجل، وعلى رأسه عمرو بن العاص إلى مصر لانتزاعها من محمد بن أبي بكر الذي انتصرَ في أوّل الأمر، إلّا أنّ انحياز شيعة عثمان إلى جيش عمرو بن العاص قد ساهم إلى انهزامه ومقتله بعد ذلك.

وبعد مقتل الخليفة الرّاشد الرابع علي بن أبى طالب، تمّ مبايعة ابنه الحسن بن علي، إلّا أنّه تنازل عن الخلافة لمعاوية، وبهذا انطفأت جذوةُ الخلافة الرّاشدة ليشتعل أتون الملك العضود متمثّلًا في دولة بني أمية.

ملاحظات:

- نحن في سرْدنا التّاريخي لهذه الفترة الشّائكة من تاريخ المسلمين لا ننتقص من قدر أحد من الصّحابة، أو نصفُهم بما لا يليق بهم من مكانتهم أو صحبتهم، وغاية قصدنا بيان بعض الأمور التي كان لمصر دورٌ فيها، أمّا ما حدث في الفتنة الكبرى فهي أمور متشابكة ليس هذا المجال لسردها.

- أصبحت مصرُ منذ ذلك الحين ولايةً أمويّة، وكانت هي البوّابة التي مرّت منها الجيوش الإسلامية لفتح أفريقية والأندلس بعد ذلك.

أغلقَ أبي الكتاب، وعيناه مغرورقتان بالدّموع، وقد بدا عليه التأثر وقال:

- غدًا نكمل يا ولدي، غدًا نكمل بإذن الله.

فهززتُ رأسي، وتبعته إلى المنزل، وكلّي شوق لمعرفة المزيد ممّا تحويه هذه المتون.

***

الرّقّ الرّابع: مِن أخبار بني أمية

أجلسني أبي على مقربةٍ منه، وقد تناول المتنَ برفق كأنّه رضيع يخشى عليه من الأذى، ثمّ رفعه وقلّب بين رقوقه، حتّى استقرّ على رِقّ كان عنوانُه «أخبار بني أميّة»، وأخذ يقرأ..

تولّى معاوية بن أبي سفيان الخلافة، وقد نقل عاصمتها من

المدينة المنورة إلى دمشق حيث استقرّ حكمُه فيها منذ أنْ كان واليًا، في حين تولّى عمرو بن العاص ولايةَ مصر مدى حياته جزاء إعانته لمعاوية على تولّي الخلافة، ومالت الأمورُ للهدوء نسبيًّا، حتّى همس أحدُهم في أذن الخليفة قائلًا:

- لمَ لا تعهد إلى ابنك يزيد يا أميرَ المؤمنين؟ ألم ترَ أنّ الأب يورث ابنه صنعته بعد أن يعلمه خباياها وفنونها.

بدا الخليفة متردّدًا، وإنْ لم يخفِ إعجابه بالفكرة وقال:

- ولكنْ أيرضون بذلك؟ أنت تعلم أنّ فيهم مِن أبناء الصحابة مَن فيهم.

- يا أميرَ المؤمنين، مَن لم يرضَ بالدّينار، رضيَ بالسّيف.

وهكذا بدأت المحاولاتُ لأخذ البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد، واختلفت ردودُ الأفعال بين مؤيّد ومعارض، ممّا أثار الاضطراب في كافّة الأمصار، خاصّة في أرض الحجاز التي رفضت البيعةَ بتحريضٍ من عبد الله بن الزبير، وبوفاة معاوية وإصرار يزيد على أخذ البيعة كاملة؛ كان لا بدّ من إخماد هذه الثّورة، إلّا أنّ يزيد توفّي هو الآخر، ورفض ابنه معاوية بن يزيد تولّي الخلافة، وسادتِ الفوضى والانقسام في الولايات كلّها، وانتهزَ ابنُ الزّبير الفرصة فأعلن نفسه خليفةً للمسلمين وأخذَ البيعة لنفسه، إلّا أنّ مروان بن عبد الحكم سارع بإرسال الجيوش إليه واستطاع إخمادَ تمرّده، بعد أنْ قصف الحجّاج بن يوسف مكّة بالمنجنيق، وبذلك استعادت الدولة

الأمويّة سيطرتها على الولايات.

نظرًا لأنّ الدّولة الأموية لم تكنْ دولة شرعيّة في نظر الكثير من الفرق آنذاك، فقد كان سياسة أغلب خلفائها هي «فرّق تسُد»، وقد اعتمدوا تمامًا على العنصر العربي بشقّيه القيسي واليمني، واستبعدوا كلّ الكفاءات التي لم تكنْ عربيّة كالفرس والترك الذي أثار ذلك الاستبعاد حفيظتهم، وحتّى في اعتمادهم على العنصر العربي قام الأمويّون بالتفريق بين العرب القيسيّة والعرب اليمنيّة، فتارة يميلون على هؤلاء وتارةً إلى أولئك حتّى يحفظوا توازن الدولة.

جلسَ الخليفة مروان بن محمد على عرشه بعدما بويعَ بالخلافة وهو يتلقّى التّهاني من الولاة ورجال البلاط، حتّى جاء دورُ والي مصر حفص بن الوليد الحضرمي «وهو من كبار العرب اليمينيّة» فقال:

- السّلام على أميرِ المؤمنين أطال الله بقاءه.
- وعليك السّلام يا حفص.
- وددت لو يعفيني أميرُ المؤمنين ولاية مصر.

بدا الاستياءُ على وجه الخليفة إلّا أنّه أجابه بالقبول، وعيّن بدلًا منه «حسان بن عتاهية»، و»عيسى بن أبي عطاء» واليًا للخراج، وكلاهما من عرب الشّمال القيسيّة، فثارت قبائل الجنوب اليمنية ضدّ الخليفة وواليه، وأعلنوا تمسّكهم بـ «حفص بن الوليد»، واشتدّت الثورة إلى حدّ محاصرة دار

«حسّان بن عتاهية» وطالبته بالخروج من مصر، فاضطرّ إلى الخضوع لمطالب الثّوار، فرحل إلى الشّام، وأعلن الثّوار إعادةَ تعيين «حفص بن الوليد» واليًا على مصر، كما نجح الثوار في إخراج والي الخراج «عيسى بن أبي عطاء» من مصر أيضًا.

وأمامَ تحدّي الجند اليمنيّة للخليفة «مروان بن محمد» أرسل جيشًا كبيرًا بقيادة «حوثرة بن سهيل الباهلي»، ورفض «حفص بن الوليد» تكرارَ عصيان الخليفة، فلم يستمع لنداء الجند والموالين له بالتصدّي لجيش «حوثرة»، فما كان من الجند إلّا أنْ طلبوا الأمان من «حوثرة»، فأمّنهم، ثمّ ما لبث أنْ نقض أمانه، وقبض على معظمهم، كما أمرَ بالقبض على زعماء الفتنة وقتلهم، ومنهم «حفص بن الوليد»، وبعد تأمين أحوال مصر قام الخليفة «مروان بن محمد» باستدعاء «حوثرة بن سهيل» لقتال الخرسانيّة (دعاة العباسيّين)، فهُزِم جيشُ الخليفة أمام جيوش العباسيّين في موقعة الزاب، وهرب إلى مصر لجمع قوّاته لمحاربة العباسيّين، ولكنّ الدعوة العباسية كانت قد وصلت إلى مصر، فوقف ضعيفًا أمام جيوش العباسيّين، وأحرق مدينة الفسطاط وهدمَ الجسور حتّى لا يصلَ إليه العباسيّون، ولكنّهم طاردوه حتّى بوصير في الفيوم، حيث قتل هناك لتنتهي دولة الأمويّين في المشرق بمقتل آخر خلفائها «مروان بن محمد».

ملاحظات:

- حرصَ معظمُ الخلفاء أنْ يكون والي مصر من البيت الأموي نفسه؛ إداركًا منهم بأهمية مصر.

- كان همّ الولاة آنذاك هو جمعَ أكبر قدرٍ من الخراج، وإرساله لبيت المال.

- كان تفضيلُ الأمويّين للعرب، واستبعادهم للأجناس الأخرى سببًا في سقوط دولتهم حيث تحالف الجميع لإسقاطهم.

- هرب عبد الرحمن الدّاخل من مصر إلى المغرب، ومنها إلى الأندلس ليؤسّس الخلافة الأموية هناك.

- على الأغلب لم يتدخّل المصريّون في هذه الصّراعات إمّا باختيارهم، وإمّا أنّهم لم يكنْ لهم أيّ خيارٍ في هذا الوضع، ولكنْ سرعان ما ستصبح مصرُ هي قلبَ الأحداث بعد ذلك.

الرّقّ الخامس: ثورةُ البشموريّين

لا أعلمُ لمَ أشعر أنّ أبي ليس على ما يرام، يداه ترتعشان وهو يمسك بالرّقّ الأخير من هذا المتن، أظنّ أنّها تتحدّث عن أحداثٍ جسام أثارتِ الشّجن في نفس أبي، أنصت إلى صوت أبي المرتجف وهو يحكي لي عن... ثورة البشموريّين..

استقرّت الأمورُ للعباسيّين أخيرًا، إلّا أنّ مصر لم تكنْ ضمن دائرة الاستقرار، فقد قام المصريون الأقباطُ بالعديد من الثّورات المتتالية نتيجةَ التعسّف في جمع الجزية والخراج، ولم يكن الخليفة

يواجه مثلَ هذه الثّورات سوى بالقوّة، ثمّ المزيد من القوّة، ولكن سرعان ما تتجدد الثورات من جديد.

استيقظ أهلُ البشمور أو البشرود- وهي المنطقة الرّملية السّاحلية بين فرعي دمياط ورشيد- على صوتِ منادي الوالي عيسى بن منصور، وهو ينادي في الأسواق بزيادة الضّرائب والخراج نظرًا لاحتياجات الدّولة، وعلتِ الأصواتُ المستنكرة في الأسواق بين الأهالي الذين كانت صنعتهم إنتاجَ ورق البردي الذي كان العالمُ كلّه في ذلك الوقت يستخدمه لتسجيل علومه ومعارفه، وفي مختلف أنشطه حياته اليومية، فهتف أحدهم قائلًا:

- أما آنَ لهذا الظّلم أن ينتهي.

- لم يعدِ الأمرُ يحتمل أكثرَ من هذا.

- لقد فاضَ الكيلُ يا ابن منصور.

وتوالتِ الهتافات المندّدة بالضّرائب الجديدة، وانفجرت براكينُ الغضب بداخل البشموريّين فثاروا ضدّ الظّلم الذي أوقعه عليهم عيسى بن منصور، رافضين الزّيادات المستمرّة في الجزية والخراج، بالإضافةِ إلى ظلم جُباة الخراج، كما قاموا بطرْد عمّال الدّولة، ورفعوا راية العصيان ورفضوا دفع الجزية.

أمّا في بغداد فلم تكنِ الأجواء أقلّ توتّرًا حيث استدعى المأمون الوالي عيسى بن منصور، وعنّفه على ما ارتكبه من تقصير، وبعدها أمره بالانصراف، واستدعى أخاه المعتصم.

- السّلام على مولاي المأمون أميرِ المؤمنين.

قالها المعتصمُ أخو المأمون وهو يدخل عليه إيوانه بعد أنِ استدعاه الخليفة لأمرٍ هام..

- وعليك السّلام يا أخي، تفضّل بالجلوس.

- زاد الله فضلَك يا أمير المؤمنين، خير إن شاء الله؟

- وردني كتابٌ من مصر أنّ ثمّة تمرّد قام به القبط في إقليم يدعى بشمور يقع بين فرعي النّيل، وأنا لا أثقُ بغيرك ليقوم بهذا الأمر.

- أشكر ثقتَك الغالية يا مولاي، وجعلني الله عند حُسن ظنّك بي.

- أريدك أنْ تذهب إلى هناك في أربعة آلاف مقاتل من أشدّ مقاتلينا؛ فتئدَ هذه الفتنة تمامًا.

- أمرُك يا أخي، سينصرُنا الله عليهم بإذنه.

قالها وانصرف يجهّز الجيش، وبعدها يتوجّه إلى مصر، فيقتل منهم خلقًا كثيرًا حتّى كادَ يفنيهم إلّا أنّه لم يستطعِ القضاءَ على الثّورة بشكل نهائي، فأرسل الخليفة جيشًا آخرَ من الأَتراك بقيادة أفشين، إلّا أنّه فشل أيضًا في وأد الفتنة، ثمّ أرسل عسكرًا آخرَ فانهزم أمام ثورة البشموريّين الشّجعان، فلم يجد المأمون بدًّا من أنْ يأتي إلى مصر بنفسه ليحاول القضاء على التمرّد الذي فشل ثلاثةٌ من قوّاده بجيوشهم في القضاء عليها.

استخدم المأمون القوّةَ الغاشمة في محاولةٍ أخيرة لقمع الثّوار، لكنّه اكتشف في النهاية أنّ القوة لن تجدي نفعًا مع هؤلاء

الأبطال، فجنح إلى أكثر شيء يعظّمه المصريون وهو استخدام الدين ورجاله للتّأثير عليهم، وبالفعل استعان المأمون بكبار رجال الدّين المسيحي في ذلك الوقت لإقناع الثوّار بالاستسلام والانصياع لأوامر الخليفة وترك أسلحتهم، وفي الوقت ذاته عمدَ جيش المأمون إلى المناطق الحيويّة فأحرق المساكن والكنائس، وسبى النساء، ونفى الرجال، وأسر مَن أسر، وقتل مَن قتل، وتمّ بيع الأسرى في أسواق العبيد.

وأخيرًا انتصرَ المأمون سنة ٨٣٢ م، و بعدها مكث شهرْين في مصر، ثمّ عاد إلى بغداد، ولم يعشْ غير عدّة شهور وتوفّي بعدها مباشرة، ثمّ تولّى الخلافة أخوه المعتصم فأطلق مَن بقي مِن البشموريّين في السجون، ربّما لشعوره بالذّنب ممّا فعله الولاة تجاههم.

ملاحظات:

- أسّس العباسيّون مدينة العسكر بعد احتراق الفسطاط، واتّخذوها عاصمة لمصر، وكانت أقرب ما تكون إلى ثكنةٍ عسكريّة حيث سكنها العسكر العباسيّ.
- لم تكنْ هذه الثّورة بغرض رفض الوجود العربي في مصر أو طرد الإسلام من مصر كما يحاول البعضُ التّرويج لها، ولكنّها كانت ثورةً ضدّ الظلم الذي وقع على الناس من الوالي.
- شارك في هذه الثّورة العديدُ من أقاليم الوجه البحري، بل

وحتى الوجه القبلي، انضمّ المصريون المسلمون لإخوانهم الأقباط البشموريّين في المطالبة بحقوقهم.

– قضى المأمون وقوّاده على الكثير من أهل بشمور، حتّى كاد يفنيهم، وقد عقب ذلك زيادة ملحوظة في زيادة أعداد المسلمين طبقًا لرواية ساويرس بن المقفع.

– مكثَ المأمون في مصر حوالي الشهرين، زار خلالها الأهرام، وهو صاحبُ أشهر محاولة لدخول الهرم أو هدمه طبقًا لبعض الرّوايات، حتّى أنّ الفتحة الموجودة الآن في الهرم هي التي أحدَثها المأمون وليست المدخل الرّئيسي للهرم.

***

طوى أبي دفّتي المتن، ونظر لي وهو يمدّ إليّ يده بالمتن قائلًا:

– وبهذا يا سعيدُ نكون قد انتهينا من المتنِ الأوّل الذي شمل أخبارَ الفتح، وبعضًا من أخبار الفتنة، وبني أمية، وبني العبّاس، وغدًا إنْ شاء الله سنبدأ بالمتنِ الثّاني حيث تضعف دولة بني العباس، وتنشأ على أثر ضعفها ممالكُ شبه مستقلّة في مصر، وغيرها من الولايات، فتصبح السلطة الفعليّة في يد ملوكها، ويكتفي الخليفةُ بالسّلطة الظّاهرية، والتي ستنحسر تمامًا، وتنتهي بدخول المغول أو التتر.

تناولتُ المتن من أبي، وأعدتُه مكانه، وأنا أهزّ رأسي متفهّمًا وأنا أقول:

– إنْ شاء الله يا أبي غدًا تحدّثني عمّا جرى من أحداث مدوّنة في المتن الثّاني، من متون الورّاق.

المتنُ الثّاني:
مصرُ مستقلّة

الرّقّ الأوّل: ابنُ طولون

اتّخذنا مجلسنا المعتاد، وقد تناول أبي المتنَ الثّاني وهو يقول:

– اليوم يا ولدي سأحدّثك عودة مصر كدولةٍ شبه مستقلّة فلا يعود يربطها بعاصمة الخلافة سوى بعضِ المظاهر الشكليّة، ولسوف تخفُت هذه المظاهر شيئًا فشيئًا حتّى تستقلّ مصر تمامًا عن الخلافة.

سألته بعينين تلمعان شغفًا وفضولًا:

– وكيف كان ذلك يا أبي؟

فتحَ أبي الكتاب، وبدأ يقرأ رِقّه الأوّل، ابن طولون.

***

كما قال الشّاعر «لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصان»، فهكذا كانت الدّولة العباسية بعد أن بلغت أوجَ ازدهارها في عهدي هارون الرشيد وابنه المأمون، ليبدأ الانحدار بعد ذلك تدريجيًّا حيث بدأ الصّراع بين عنصري الحكم الفرس والترك، بينما خفت تأثير العنصر العربي، حتّى كاد يتلاشى تمامًا، وبعد تغلّب الأتراك على الفرس، وازدياد نفوذهم حتّى على الخلفاء أنفسهم، فصار الخلفاء ألعوبةً

في يدِ قادة الترك يوجّهونهم كيفما شاءوا، ومَن حاول مِن الخلفاء التخلّص من سيطرتهم كان مصيرُه القتل، وكان مِن هؤلاء القادة الترك الذين برزوا على الساحة السياسية بعد مقتل الخليفة المستعين، وتوليةِ المعتزّ وهو القائد بايكباك، وكان في مقدّمة القادة الترك الذين أداروا الصّراع السياسي حينها. وبعد مقتل الخليفة، أخذ القادة في التّشاور وتقاسموا الأعمال والولايات فيما بينهم، وكانت مصرُ ونواحيها من نصيب بايكباك الذي خشيَ أن يبتعد عن مسرح الأحداث، ففضّل البقاء في مركز السّلطة في عاصمة الخلافة على أن يرسل أحمد بن طولون نائبًا عنه إلى مصر، خاصّة وأنّه يمّت له بصلةِ قرابة حيث كان بايكباك زوجَ أمّه.

يتوجّه ابن طولون إلى مصر إلّا أنّه يقرّر أن يستقلّ بها عن الجميع، ويبدأ في إدارة شئونها وقمع الثّورات والتمرّدات التي قامت عليه فوْر دخوله مصر إلى أنِ استقرّت له الأمور، وصارت مصر خالصةً له، ورغمَ ذلك لم يحبّ ابن طولون أن يقطع كلّ علاقته بالخلافة فاستمرّ الدّعاء للخليفة على المنابر «وهي علامة الخضوع للدّولة العباسية»، وسرعان ما ضمّ إليه الشام أيضًا وأقرّته الخلافة على حُكم مصر والشّام، وفي المقابل لم يكنْ يضنّ هو على الخلافة بالخراج والهدايا والأموال.

اهتمّ ابنُ طولون بالعمارة فبنى مدينةَ القطائع بعد أنْ ضاقت به الفسطاط، وبنى فيها جامعَه الشّهير، كما اهتمّ بزيادة مواردِ

دولته فشقّ التّرع والقنوات، وحسّن الرّي وشجّع الصناعات، وخفّف الضّرائب عن كواهل العباد فأحبّوه، وأعاد سكّ العملة فأصدر الدّينار الطولوني ليعيد بذلك الثّقة في العُملة، وقد ساهمتْ إصلاحات ابن طولون على تشجيع حركة التّجار بعد أن استعاد التّجار ثقتهم في العُملة وفي الأسواق، فازدهرتِ الحالة العامّة للدّولة.

وبعدَ وفاة ابن طولون تولّى ابنُه خمارويه ذو العشرين عامًا حكمَ مصر، وقد سار فيها بذات سياسةِ والده، إلّا أنّ الأمر في عاصمة الخلافة كان له شأنٌ آخر..

استبدّ الغضبُ بالخليفة الموفّق، وألقى الرّسالة من يده في حنق، ممّا دفع ابنَه وليّ عهده المعتضد أنْ يسأله في قلق:

- ماذا هناك يا أبي؟

أجابه الموفّق في استياء:

- هذا خطابٌ من عيوننا في مصر، ظننّا أنّنا قد انتهينا من الدّولة الطولونية ووقاحتها بموت أحمد بن طولون، فإذا بولده خمارويه يبالغُ في العصيان، ولا يرسلُ إلينا من خراج مصر إلّا ثلث ما كان يرسله إلينا أبوه، وما أحسب أنّ موارد مصر قد نضبت، بل وافت، وزادت، وإنّ ما تركه ابن طولون لولده لا يقلّ عن مائة ألف دينار، فوقَ الجواهر الثمينة والخيل والإبل والبغال التي يكاد ثمنُها يربو على ثمنِ الذّهب النّضار في خزائنه، هذا قليلٌ من كثير.

اشتعلت نفسُ المعتضد حماسةً وهو يقول:

- ما يجدرُ بك أن تسكتَ على خمارويه يا أبي، يجب أن تبعثَ له جيشًا يدخل مصر ليضمّ بالقوة ملكَها إلى ملكك.

نكّس الخليفة رأسَه بحزن وقال:

- ليتنا نستطيع يا ولدي، فلم تعدِ الخلافةُ العبّاسية غير رداء خَلِق، ملأه الفقر بالرّقع، وما أحسب جيوشنا تثبت ساعة أمام جيش خمارويه.

لم يستجبِ المعتضد لنصح والده، وما أنْ يتولى الخلافة حتّى يقرّر مهاجمة مصر للاستيلاء عليها والقضاء على الدّولة الطولونية، إلّا أنّ جيوشته تُهزمُ هزيمةً منكرة أمام جيوش خمارويه كما تنبّأ أبوه من قبل، ورغم انتصاره السّاحق يصدر خمارويه أوامره بأنْ يعامل المعتضد بما يليق كخليفةٍ للمسلمين وأميرًا للمؤمنين، بل إنّه يعده بزيادة الخراج ومضاعفته، بل وأكثر من ذلك يزوّجه ابنته الوحيدة «قطر النّدى».

على أنّ دوام الحال من المحال، فقُتل خمارويه على يد خدمِه، وعمّت الفوضى البلاد إذ بدا أن البيت الطّولوني قد خلا فجأة من الرّجال الذين يستطيعون مواصلة مسيرة النجاح، فتولى أبو العساكر بن خمارويه الحكمَ، وهو ذو أربعة عشر عامًا، فانصرف إلى اللّهو والمجون، ممّا أثار استياءَ القادة الكبار، خاصّة نائب الطولونيّين على الثّغور الشّامية فرفض الانصياع للملك الطفل، فخلعوه وسجنوه

ثمّ عيّنوا مكانه أخوه هارون الذي ازدادت المشاكلُ الخارجية في عهده، خاصّة في الشّام، ولم تكنِ الخلافة لتفوّت مثلَ هذه الفرصة للقضاء على الدولة الطولونية وإعادتها إلى حظيرة الدّولة العباسية من جديد، فأرسلت جيوشَها لاستعادة مصر، فدخلوها وحرقوا مدينة القطائع، واستولوا على ما فيها من كنوز، ولم يبقَ منها سوى جامع أحمد بن طولون ليشهد على عظمةِ هذه الدّولة التي لم يحالفها الحظّ لتستمرّ نحو سبعةٍ وثلاثين عامًا فقط، وبذلك تعود مصر ولايةً عبّاسية من جديد، ولكن ترى هل ستظلّ كذلك طويلًا؟

ملاحظات:

- لم يكنِ القادةُ الترك يحترمون منصبَ الخلافة، ولا يقيمون له وزنًا، وكانوا كما أسلفنا يتعاملون مع الخلفاء كأنّهم دُمى، ومَن يحاول التخلّص من سيطرتهم يُقتل، وهو ما كان مستعظمًا بشدّة قبل تغلّب التّرك، إذ كان لمنصب الخليفة قدسيّة خاصّة.

- على عكس قادة الـتّرك، كان ابنُ طولون وابنُه خمارويه يحترمون الخلافة والخلفاء رغم استقلالهم، وكانوا يحرصون دومًا أن تربطهم بالخلافة علاقاتٌ جيدة، وقد اتّضح ذلك جليًّا في موقف خمارويه من المعتضد.

- تحكي كتبُ التّاريخ عن الجهاز الأسطوري لـ «قطر الندى» بنت خمارويه، ووصفوا الكنوز التي كانت معها في طريقِها إلى بغداد، حتّى لقد أمرَ خمارويه ببناء قصور على طول الطريق لبغداد

مزوّدة بكافّة سبل الترفيه.

- أنفقَ خمارويه ببذخٍ شديد، وربّما كان ذلك أحدَ أسباب ضعف الدولة الطولونية بعد ذلك حيث كان يقتني السّباع والخيول والحيوانات النّادرة في حدائق قصره، بالإضافة إلى التكاليف الباهظة لجهاز ابنته وعُرْسها.

***

الرّقّ الثّاني: دولةُ الإخشيد

أمضتْ مصرُ ما يقارب الثّلاثين عامًا في كنف الدّولة العباسية، وتوالى عليها الولاةُ المعيّنين من قِبل الخليفة العباسي، حتّى جاء محمد بن طغج الذي أثبت كفاءةً عالية وإخلاصًا مميزًا في كلّ ما كلّفه به الخليفة، فأطلق عليه لقب «الإخشيد»، وهو لقبٌ فارسيّ قديم تلقّب به ملوك فرغانة الذين ينحدرُ من نسلهم محمد بن طغج، وسرعان ما سارَ في طريق ابن طولون وأرسل بالأموال والهدايا للخليفة وحاشيته حتّى استطاع أن يتولّى حكم مصر.

واجهتِ الإخشيد الكثيرُ من الصّعوبات والاضطرابات في بداية حكمه، حتّى استطاع بحنكته وخبرته العسكرية القضاءَ عليها جميعًا، كما أنه نظر بعين الحذر إلى تلك الدولة الفاطمية الناشئة في الغرب منه، والتي سعتْ مرارًا للاستيلاء على مصر.

أسّس الإخشيد لدولته جيّدًا في مصر، ولكنّه للأسف لم يهنأ بها كثيرًا حيث توفّي تاركًا حكم مصر لابنيْه تحت رعاية خادمه أبو

المسك كافور، الذي سيمنع أبناءَ الإخشيد من ممارسة سلطاتهما، وسيحدّد إقامتهما في القصور، ويمنع عنهم الناس، في حين انفردَ هو بالسلطة.

كان أبو المسك كافور عبدًا حبشيًّا اشتراه محمد بن طغج، ثمَ قرّبه إليه وجعله خادمَه الخاص، وقد كانت هذه هي المرّة الأولى التي يتولّى فيها عبدٌ حُكمَ ولاية كمصر في العالم الإسلامي، وقد ارتبطَ بزوغ كافور في الدّولة الإخشيدية بالظّروف السياسية لهذه الدولة، فقد استطاع أن يدير دفّة الدولة عقب وفاة محمد بن طغج الإخشيد، حيث إنّ أنوجور (محمود) بن محمد بن طغج كان لا يزال صبيًّا في الخامسة عشرة من عمره، ويروى أنّ كافور لم يكن ليتيح لأونوجور هذا الفرصةَ كي يمرّن نفسه على الحكم فيفيد منه، ولم يكن ليدعه يظهر للنّاس حتّى لا يعرفونه، أفل نجمُ أونوجور سريعًا ليسطع نجمُ كافور الذي دعا له الخطباء علي المنابر دون أونوجور، في الوقت الذي كان ينالُ فيه أونوجور ما خصّصه له كافور من مالٍ بلغ أربعمائة ألف دينار في العام.

تعامل كافور بذكاءٍ شديد في موقفه بين الدّولة العباسية والدولة الفاطمية، فهو من ناحية سعى لكسب ودّ الدّولة العباسيّة والخضوع لها شكلًا، محاولًا أن يضفي شرعيّة على حكمه، وهو ما نجح فيه في أواخر عهده؛ وبين الدّولة الفاطمية ليتّقي شرّها فأكرم العلويين وآل البيت وعظّم شأنَهم ورفع عنهم المظالم، وكان كافور بشكلٍ عام

كريمًا سخيًّا محبًّا للعلم والأدب، على أنه من طرائفِ عهده أنّه حين توتّرت العلاقة بينه وبين المتنبّي كتب فيه شعرًا يهجوه فيه قائلًا:

نَامَتْ نَوَاطِيرُ مِصرٍ عَنْ ثَعَالِبِها ... فَقَدْ بَشِمْنَ وَما تَفنى العَنَاقيدُ

صَارَ الخَصيّ إمَامَ الآبِقِينَ بِهَا ... فالحُرّ مُسْتَعْبَدٌ وَالعَبْدُ مَعْبُودُ

لا تَشْتَرِ العَبْدَ إلّا وَالعَصَا مَعَهُ ... إنّ العَبيدَ لأنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ

مَنْ عَلّمَ الأسْوَدَ المَخصِيّ مكرُمَةً ... أقَوْمُهُ البِيضُ أمْ آبَاؤهُ الصِّيدُ

أمْ أُذْنُهُ في يَدِ النّخّاسِ دامِيَةً ... أمْ قَدْرُهُ وَهْوَ بالفِلْسَينِ مَرْدودُ

أوْلى اللّئَام كُوَيْفِيرٌ بمَعْذِرَةٍ ... في كلّ لُؤم، وَبَعضُ العُذرِ تَفنيدُ

وَذاكَ أنّ الفُحُولَ البِيضَ عاجِزَةٌ ... عنِ الجَميلِ فكَيفَ الخِصْيةُ السّودُ؟

غير أنّه في سنة ٣٥٢ هـ شهدت مصرُ جفافًا استمرّ تسعة أعوام كاملة، سببها نقصٌ في فيضان النّيل، ونتج عنها اختفاءُ القمح واضطراب الأسعار، وتزايدتْ أثمان الحُبوب والأقوات، واقترن بِذلك وباءٌ عظيم، وهلك الضّعيف من النَّاس، وأكلوا الميتة والجيف، وكانوا يسقطون موتى من الجوع، وزاد الوباء وكثُر الموت، ولم يُلحق دفن الموتى، فكان يُحفرُ لهم حُفرًا ويُرمى فيها عدَّة كثيرة، ويُردم عليهم التُّراب، وثقُلت وطأة الضّرائب على السُكَّان، وبِخاصَّةً في تنيش ودُمياط وعلى ساحل النيل، وقد أفقدت المجاعة والأوبئة واضطراب الأمن الدولةَ كلّ هيبةٍ واستقرار، ولا سيَّما حين عجزت عن دفع رواتب الجُند، وعن جمع الضّرائب، ولم يكن لِلخليفة المُطيع في بغداد من القُوَّة ما يُمكِّنه من تولية

على مصر مَن يشاء مِن الرجال الأقوياء القادرين على النّهوض بها وحلّ جميع المشاكل التي ضربتها، فتفاقمت الثّورات، وتمنَّى الناسُ الخلاص ممَّا هُم فيه، فكانت تلك الفُرصة التي انتظرها الفاطميُّون طويلًا لِضمّ مصر إلى ممالكهم، فأخذ الخليفة الفاطمي أبو تميم معدّ بن المنصور المُعزّ لِدين الله يعُدّ العُدَّة لِغزو مصر واستخلاصها لنفسه، لتنشأ بعد ذلك الدّولةُ الفاطمية في مصر بعد أنْ بقيت الدولة الإخشيدية قرابة الأربعة والثلاثين عامًا حكم منها كافور إحدى وعشرين عامًا.

ملاحظات:

- شارك محمد بن طغج في بعض الحملات ضدّ الفاطميّين قبل تولّيه مصر، ولذلك كان على علمٍ بخطرهم ومحاولتهم الاستيلاء عليها.
- تلقّب كافور بـ «الأستاذ» ولم يتّخذ لنفسه الألقابَ الأميرية أو السلطانية حتّى لا يثير الناس عليه، واكتفى بجمع مقاليد السلطة والحكم في يده.
- سيطرتْ دولةُ الإخشيد على مصر والشّام والحجاز.

***

الرّقّ الثّالث: دولةٌ ناشئةٌ في إفريقية

«كيف للدّعوة أنْ تنتشر في مثلِ هذه الرّبوع الجبليّة والأغلبية السنيّة»

هكذا فكّر المهدي وهو ينزل في إفريقية متنقلًا من مدينة إلى أخرى يرسل دعاته هنا وهناك للدّعوة إلى المذهب الشّيعي الإسماعيلي، بينما تتصاعد حدّةُ مقاومة أهل السنة لهم والأخطار التي تحدقُ بالدّعوة

من كلّ جانب، ولولا دعم حلفائهم من قبيلة كتامة البربرية ربّما لم تكن للدعوة قائمةٌ أصلًا، فبالكاد استطاع المهدي تأسيسَ مدينة على السّاحل الإفريقي، وأسماها «المهدية» وقد دخلَ في صراع مع البيزنطيّين واستطاع الاستيلاء على بعض الجزر كان منهم صقلية.

بدا جليًّا أنّ الفاطميّين لا ينوون الاستقرارَ بدولتهم في الغرب، بل كانت أعينهم متّجهة دومًا نحو الشّرق، وقد استطاع الخليفة الفاطمي القائم بالله غزوَها عدّة مرّات، ولكن بلا جدوى، حتّى توفّي كافور الإخشيدي؛ فبدت الفرصةُ سانحة للخليفة المعزّ لدين الله لغزو مصر، خاصّة بعد انتشار عيونه في مصر يرضّون المصريّون لاستقباله، ومع انتشار الأوبئة ونقص فيضان النيل وزيادة الغلاء في تلك الفترة؛ رحّب المصريّون بجيش المعزّ بقيادة جوهر الصقلي.

كان أوّلُ عمل قام به جوهر هو اختطاطَ مدينة جديدة، تكون بمثابة عاصمة ملكية وإدارية للإمبراطورية الجديدة، فتوجّه إلى الشّمال من الفسطاط وأنشأ مدينة القاهرة، وبدأ ببناء الجامع الأزهر وقصور للخليفة، كما قام بإجراءات فوريّة لمجابهة نقص الفيضان وارتفاع الأسعار، حتّى قيل إنّه لا يوزن مكيال قمح دون أن يقفَ عليه، كما أعاد سكّ النّقدية وأصدر الدينار المعزّيّ وضبط أوزانه وعياره، وقد تعهّد جوهر الصقلي للمصريّين بعهد أمان لهم.

ارتفع صوتُ المنادي وهو يجوب شوارع الفسطاط وقد سار حوله الأطفال وهو يردّد بصوت عالٍ..

«يا أهلَ الفسطاط الكرام، هذا عهدُ القائد جوهر إليكم، أنْ يجري الأذان والصّلاة والزكاة، وصيام رمضان وفطره وقيام لياليه، والحجّ، والجهاد؛ على أمر كتاب الله وسنّة نبيه صلّى الله عليه وسلم، وإجراء أهل الذّمة إلى ما كانوا عليه، وأنْ تجرى المواريث على كتاب الله وسنّة نبيه، وإسقاط الرّسوم الجائرة التي لا يرتضى أميرُ المؤمنين إثباتها عليكم، وأن يتقدّم في عمارة المساجد وإيقاد قناديلها وإعطاء مؤذّنيها، وأن يقام فيها مَن يؤمّ الناس بالصلاة، والحاضر يُعْلم الغائب».

ظلّ المنادي يردّد عهدَ جوهر في أنحاء الفسطاط، وقد تعالت تعليقات النّاس بالفرح والسرور، وشعر المصريّون بالرضا، وأنّ أحوالهم قد تحسّنت أخيرًا، على أنّ الصقلي لم يفِ بعهده تمامًا، إذْ سرعان ما أدخل عبارة «حيّ على خير العمل» المميّزة للأذان الشيعي، وأمرَ بأن يكون صيام رمضان وإفطاره دونَ رؤية الهلال، كما أدخل بعضَ التّعديلات على المواريث وهكذا، وفور شعور الصقلي باستقرار الأمور في مصر وترتيبها على ما يحبّ؛ أرسل للخليفة المعز لدين الله الفاطمي ليتسلّم أمور الحكم، وبذلك يبدأ العهد الفاطميّ في مصر، وينقسم العالم الإسلامي إلى ثلاثِ خلافات: عباسية في بغداد، وفاطمية في مصر، وأموية في الأندلس.

بانتقال الخليفة المعزّ لدين الله الفاطمي إلى مصر، انتقلت معه الخلافةُ الفاطمية بأكملها، فلم يكن غزو مصر مجرّد توسّع أو كسب لأرضٍ جديدة وضمّها لأرض الخلافة، بلْ كان انتقالا تامًّا حتّى

أنّ المنصور قد أخذَ معه كلّ أمواله وذخائره، حتّى توابيت آبائه ورفاتِهم، وبعد وفاة المعزّ تولّى ابنه العزيز بالله، والذي يعتبر المؤسّس الثّاني للدّولة الفاطمية في مصر، فقد توسعت الدولة في عهده حتّى ضمّت الشام والحجاز واليمن، وأرسل إلى ملك بيزنطة يأمره أن يُدعى له في جامع القسطنطينية ، كما بدأ العزيز بإعادة التّنظيم الإداري لمصر، وهو أوّل مَن اتّخذ الوزراء، كما شهدت القاهرة تطوّرًا عمرانيًّا ملحوظًا في عهده.

ملاحظات:

- لم يحاولِ الفاطميون فرضَ مذهبهم بالقوّة على المصريّين، واكتفوا بأنْ تكون المناصب الإداريّة العليا من نصيب أتباع مذهبهم، أو من أهل الذمّة الذين اعتمدوا عليهم اعتمادًا كبيرًا في إدارة البلاد.
- استفادَ الفاطميون من العناصر الأجنبية التي سكنت مصر كالأرمن والترك والمغاربة والدّيالمة والسودان.
- ظلّ الفاطميون يحكمون مصرَ كحكومة أقليّة مُنفصلين تمامًا عنْ رعاياهم بسبب آرائهم الدّينية، ممّا أفقدهم تأييدَ أهل البلاد الحقيقيين.
- طبقًا للمذهب الإسماعيلي يجب أن تكون الإمامةُ في الابن الأكبر للخليفة، ولكن بعض الخلفاء كالمعزّ خالف هذا المبدأ ممّا تسبّب في بعض الاضطرابات للدّولة، وهو الأمر الذي سيتكرّر بعد ذلك بعد وفاة الحاكم بأمر الله.

***

الرّقّ الرّابع: الخليفةُ العجيب

مات الخليفةُ العزيز بالله وخلّف أبناء صغارًا، كان منهم ابنه الحاكم بأمر الله، فتولّى الخلافة تحت وصاية برجوان، إلّا أنّ هذا الأخير استقلّ بمقاليد الحكم عن الخليفة الصّغير، وأبعده تمامًا عن أيّ أمرٍ له علاقة بشئون الدّولة، على أنّ الحاكم لم يرضخ لهذا؛ فاستدعى ريدان الصّقلي بسريّة تامّة ليوعزَ له بأمر خطير.

انحنى ريدان في حضرةِ الحاكم رغم سنّه التي لم تبلغ السّادسة عشرة، وهو يقول:

- السّلام عليك يا إمام.

أجابه الحاكمُ بصوت يتحسّس طريقه نحو الخشونة قائلًا:

- وعليك السّلام يا ريدان، تفضّل.

يجلس ريدان في قُبالة الحاكم الذي قال في حنق:

- أبلَغَك ما يفعله برجوان بي؟

انقبضَ قلبُ ريدان فجأة عند سماعه اسم برجوان المسيطر على مقاليد الدولة، وقال بحذر:

- يبلغني ما يعكّر صفوكم يا إمام، ولكنّها شئون السّياسة، وأنت تعلم أن....

قاطعَه الحاكم قائلًا بصرامةٍ تفوق عمرَه بسنوات عديدة حتّى أنّ ارتجافةً باردة سرتْ بجسد ريدان اقشعرّ لها جلده:

- هذا الأمرُ لن يستمرّ للأبد.

شعرَ ريدان أنّ نظرات الحاكم تخترقه، بدا أنّ الخوف يدبّ بأوصاله فقال:

- أنا في خدمة مولاي الإمام.

ازدادَ صوتُ الحاكم صرامةً وهو يقول بحزم:

- اقتلْ برجوان.

قالها وانصرف تاركًا ريدان في حيرةٍ من أمره يقلّب الأمرَ على الوجوه، وقد مالت نفسه لتنفيذ أمرِ الحاكم، ولم تمضِ أيّام قلائل حتّى كان قد أدّى مهمّته بنجاح ساحق، واستطاع الحاكم أنْ يتخلّص من الاضطرابات التي نتجتْ عن مقتل برجوان، واجتمعت بيده كلّ الخيوط.

انقضتِ السّنوات الأولى من حكمِه في سلاسة، وقد سارَ فيها بسنّةِ مَن سبقه من الخلفاء الفاطميّين إلى أنْ قامت ثورة «أبو ركوة»، وهي ثورة قامت بها قبائلُ من البدو بمساعدة بعض عناصر الجيش إلّا أنّ الحاكم استطاع كسبَ تأييد المصريّين الذين رفضوا ثورة البدو، وبالمقابل بدأ الحاكمُ يسمح لهم ببعض الحريّة الدينية فأوقف سبّ الصّحابة، وأباح صوم رمضان وفطره برؤية الهلال، وترك لهم حريةَ إقامة التّراويح وغيرها من الشعائر السنية.

ولكنْ بانقضاء هذه السّنوات الأولى بدأ التحوّل الأوّل في شخصية الحاكم، فعلى عكس أسلافه من الخلفاء قام الحاكمُ باضطهاد أهل الذّمة، وفرض عليهم ملبسًا معيّنًا، وأمرهم باعتزال

المسلمين في الحمّامات، فبنى لهم حمّاماتٍ خاصّةً بهم، كما أمر بانتزاع الصّلبان وهدم وحرق الكنائس، وأخيرًا أمرهم باعتناق الإسلام، أو الخروج إلى بلاد الرّوم؛ ممّا أجبر الكثير من أهل الذمّة على اعتناق الإسلام رغمًا عنهم، وقد لاقتْ مثل هذه الإجراءات رضاءَ الكثير من المسلمين من أهل السنة.

ثمّ تأتي بعد ذلك نواهيه العجيبة، والتي لا يُتخيّل أن تصدرَ عن ملك أو خليفة، فقد استيقظ الناس ذاتَ يوم على صوت المنادي وهو يقول..

«ويُمنع النّساء من كشف وجوههنّ، أو التبرّج، أو الخروج لغير ضرورة، ويُمنع أكلُ السّمك الذي بلا قشور، والملوخية، والمتوكلية، ومحظور صناعة النّبيذ والفقاع، ومحظور ذبح الأبقار التي لا عقبَ لها، وبأمر مولانا الإمام محظورٌ على الخبّازين عجن العجين بأقدامهم، وألا يدخل أحد الحمّام إلّا بمئزر، وكلّ مَن يخالف يعرّض نفسَه للعذاب الشديد ونقمة مولانا الإمام، ولا يلومنّ إلّا نفسه».

وهكذا يخرج الحاكمُ على الناس كلّ يومٍ بقرار ما، وقد يعود فينقضه من جديد تبعًا لهواه ومزاجه، على أنّ الحاكم لم يكثرْ من شيء بقدر ما أكثر من قتل وزرائه ومعاونيه، فقتل مؤدّبه أبا تميم الفارقي، ثمّ ابن أبي نجدة المحتسب، ثمّ كاتبه فهد بن إبراهيم، وغيرهم من الأعيان والأشراف وكبار رجال الدولة، حتّى بلغ حصيلة مَن قتلهم ما يقرب من ثمانية عشرة ألفَ نفْس.

ورغمَ كلّ ذلك لم يجدِ الحاكم حرجًا في التّصوّف، فلبس الكتّان الخشن وركب الحمير، وكان يرفضُ المواكب، ويسيرُ بين النّاس في الأسواق يتابع أحوال الرعيّة بنفسه، كما رفض لقب «الإمامة»، واستبدله بلقب «أمير المؤمنين»، ممّا أثار سخط دعاة مذهب الإسماعيلية، ولكن الطّامة الكبرى ستكون بمجيء وفدٍ من دعاة المذهب من فارس، فيدعون إلى ألوهيّة الحاكم، وكانوا لا ينادونه إلّا بـ «يا واحد يا أحد، يا فرد يا صمد»، وحاولوا دعوة أهل الفسطاط لذلك، بل ودخلوا جامعَ عمرو بن العاص، إلّا أنّ المسلمين رفضوا ذلك، وقتلوا كبيرَ الدّعاة، وفرّ الباقون إلى الشام.

بدا واضحًا أنّ الحاكم قد اكتسب عداءَ الجميع بلا استثناء، فقد استاءَ منه دعاة مذهبه بعد تركه لسنّة أسلافه، ولقب الإمامة، واتّخاذ لقب أمير المؤمنين، بالإضافةِ لتساهل الحاكم في عقائد وشرائع المذهب، واكتسبَ عداوة أهل الذمّة باضطهادهم، وأهلُ السّنة بالدعوة لتأليهه، كما أطلق العبيدُ والجنود في الفسطاط، فعملوا فيها أعمالَ السّلب والنّهب بعد أن سخروا من أهلها، وأحرقوا الكثيرَ من البيوت والأبنية، ثمّ أتت القشّة التي قصمت ظهرَ البعير حين اتّهم أخته ومدبّرة أمر مملكته في صغره «سيّدة الملك» في شرفها، وأنّها على علاقةٍ بأحد كبار القصر، وأنه اكتشف الرّسائل بينها؛ لذا بدا جليًّا أنّ نهاية هذا الجبار قد حانت.

ففي ليلة ٢٧ شوال ٤١١ هـ/ ١٣ فبراير سنة ١٠٢١م، خرج الحاكم إلى المقطم- وقيل إلى حلوان- بصحبة مكاريين، ثمّ أمرهما

بانتظاره، وابتعدَ عنهما في الجبل حيث اختفى تمامًا، عادا في الصّباح إلى القصر وأخبرا بما تمّ، فأخذوا في البحث عنْه دون جدوى، وبمرور اليوم الخامس من البحث وجدوا ثيابه، وبها أثرُ طعنات دون أنْ يجدوا جثمانه أبدًا، وبهذا أُسدل السّتار على هذا الخليفة العجيب حيًّا وميّتًا.

ملاحظات:

- يمكن تفسيرُ أغلب أوامر الحاكم بشكل منطقي، فمنعه للنّبيذ والخمور هي من أصول الدّين، ومنعه لأكل السّمك بلا قشور والمسمّى بالقراميط، وذلك لأنّ له دور بيئي في تنظيف المجارى المائية من المخلّفات المترسّبة فيها، كما يمكن تفسير منع ذبح الأبقار بالمحافظة على الثّروة الحيوانية، ومنعه لتبرّج النساء ودخول الحمّام بالمئزر له جوانب أخلاقيّة، وهكذا.
- رغم كلّ ما سبق، فقد كان للحاكمِ بعضُ الأيادي البيضاء، فقد بنى الجامع الأقمر، وأنشأ دارَ الحكمة، واجتذب إليها الفقهاءَ والعلماء، وخصّص لهم الرّواتب والأرزاق، وأنفق على العديد من المساجد والمنشآت الدّينية لإعمارها وإصلاحها.
- أغلبُ الظّن أنّ سيّدة الملك لها دخلٌ مباشر بمقتل الحاكم انتقامًا لشرفها، وخوفًا على حياتها، وحياة ابن الحاكم وأمّه، الذين طردهما من القصر، وعاشا في كنفِ سيّدة الملك، كما خشيتْ أنْ يثور عليه النّاس، ويقتلوه مع كافّة أهل بيته.

- حكمتْ سيّدة الملك بعد مقتل الحاكم حوالي سنة وحتّى وفاتها عام ١٠٢٢م.
- عاد أهلُ الذّمة الذين أسلموا مُجْبَرين في عهد الحاكم إلى دينهم الأصليّ في عهد الظاهر لإعزاز الله دونَ أن يمسّهم أيّ سوء.

***

الرّقّ الخامس: سبعٌ عجاف

كانتِ البدايةُ الأولى لعصر المستنصر بالله زاهيةً ناضرة بفضل الوزير القويّ أبي القاسم علي بن أحمد الجرجرائي، وكان قد سبق له أنْ عمل وزيرًا في عهْد الحاكم بأمر الله وابنِه الظاهر، وأكسبتْه هذه السّنوات خبرةً واسعة، ودرايةً بشئون الحُكم، فسيطرَ على الدولة سيطرةً تامّة وأحسنَ سياستها وتوجيه شئونها، إلّا أنّه توفّي بعد أن شغل منصبَ الوزارة ثمانية عشر عامًا، على أنّ وفاته سمحت لأمّ الخليفة «السيدة رصد» بالتدخّل في شئون الحكم، وزاد نفوذها، وقويتْ شوكتُها، وكان نتيجة سياستها أنْ شاعت الفتن والعداوات بين طوائف الجيش، واشتعلت المُنازعات والمعاركُ بينهم، ولم تجدِ السيدة رصد وزيرًا قويًّا يمسك بزمام الأمور، ويسوس الجُند، وهو ما جعلَ أحوال البلاد تسوء بسرعة، ويعمّها الفوضى والاضطراب الدّاخلي، وينعدم الأمنُ، ويحلّ بها الخراب.

وكأنّه لم يكفِ عهدُ المستنصر بالله أنْ يكون عهد الاضطرابات الداخلية، وضعف سلطة الدولة، لم يمكثْ منسوب النيل أنِ

انخفض بشدّة لتحلّ على مصر مجاعة هي الأقسى في تاريخها، ففي سنة سبع وخمسين وأربعمائة (٤٥٧)، انخفَض النيل وازدادت الأسعار، وعمّ الغلاء، وانتشر الوباء، واستولى الجوعُ على الناس، فقد بلغ ثمنُ الإردب من القمح ثمانين دينارًا، وأكل الناس القططَ والكلاب، فقد بيع كلبٌ ليؤكَل بخمس دنانير، وتزايد حالُ الناس حتّى أكل بعضهم بعضًا، فقد كان جماعةٌ من الناس يتربّصون فوق أسطح منازلهم بحبالهم وكلابيبهم (الخطاطيف) ويصطادون مَن يمرّ بهم فيذبحونه ويأكلون لحمه، حتّى أنّ الخليفة المستنصر قد باع قصوره وممتلكاتِه وثيابَه، وكلَّ ما يملك، وصار يجلسُ على حصير ويتصدّق عليه بعض الموسرين، وجاءه وزيرٌ على بغلة له فاجتمعَ عليها الناس وأكلوها، ممّا أغضب الوزير، فأمر بشنق جماعة منهم، فلم يلبثِ النّاسُ أن أكلوا جيفهم.

ومِن غرائب ما وصلنا من أخبار، أنّ امـرأةً شريفة من أصحاب الثّراء باعت عقدًا لها يساوي ألف دينارٍ بجوال من الدّقيق، فاجتمع عليها النّاس ينهبونه، فما نالها منه سوى حفنةٍ من دقيق، عجنتها وصنعتْ منها قرصة، ثمّ وقفت في مكان مرتفع، ونادت بأعلى صوتها..

«يا أهلَ القاهرة، ادعوا لمولانا المستنصر الذي أسعدَ الله الناس بأيامه، وأعاد عليهم بركات حسن نظره، حتّى تقوّمت عليّ هذه القرصة بألف دينار».

ووصلَ ما قالته المرأةُ للمستنصر، فنفضَ عنه العجز، واستدعى الوالي، وهدّده إن لم يصلح حال البلاد قطعَ عنقَه، فما كان من الوالي إلّا أن لجأ إلى الحيلة ليعيدَ ضبط أحوال البلاد والعباد..

انتصبَ الحرّاس واقفين تحيةً لمرور الوالي الذي قال لهم بصرامة:

– أريدُكم أن تجمعوا لي كلّ المذنبين الذين وجبَ عليهم القتل في الحال.

هُرِع الحارسُ لتنفيذ الأمر، وهو يصيح قائلًا:

– أمرُ مولانا الوالي.

ولم تكدْ تمرّ بضعُ ساعات حتّى كان الوالي قد جمع هؤلاء المذنبين، وألبسهم العباءات والعمائم وحَسَن الثياب، ثمّ أمر بجمع تجّار الغلّة والخبّازين والطحانين وعقد مجلسًا عظيمًا، وأمر بإحضار واحدٍ من المذنبين، فدخل المجلس في هيئةٍ عظيمة حتّى إذا مثل بين يديه قال:

– ويلك! ما كفاك أنْ خنت السلطان واستوليت على أموال الدّيوان إلى أنْ أخربت الأعمال ومحقت الغلال، فأدّى ذلك إلى اختلال الدولة وهلاك الرّعية!!؟ اضرب عنقه.

فضربتْ عنقُه في الحال، ثمّ استدعى الآخر، وقال:

– كيف جسرتَ على مخالفةِ الأمر لما نُهى عن احتكار الغلّة، وتماديت على ارتكاب ذلك حتّى تشبّه بك غيرُك؛ فهلك النّاس!!؟ اضرب عنقه.

فضربتْ عنقُه، واستدعى آخـر.. وهكذا، حتّى قام إليه الحاضرون من تجّار الغلة والخبازين والطّحانين، وقالوا وقد انتابهم الرعب:

- أيّها الأمير، في بعض ما جرى كفاية، ونحن نخرجُ الغلّة وندير الطواحين ونعمّر الأسواق بالخبز، ونرخّص الأسعار على النّاس، ونبيع الرطل بدرهم.

- لا يكفى! ما يقنع النّاس منكم بهذا.

- فلنجعلهم رطْلين.

فوافقهم على مضض، كما استعانَ المستنصر ببدر الدين الجمالي، والي عكا، فجاء برجاله إلى مصر، وفرض النّظام، وأعاد الأمان، ورفع الضّرائب عن الفلاحين، فعادوا لمزاولة زراعاتهم والرّعاية بأراضيهم، كما أعاد بناءَ المنشآت التي تهدّمت، وجدّد بناء أسوار القاهرة، وقام بالعديد من الإصلاحات الإدارية والمالية للدولة، حتّى أدركت رحمة الله البلاد والعباد، وازداد منسوب النّيل، وعمّ الرخاء من جديد بعد شدّةٍ دامت سبع سنين، وبالطّبع لم يكن لبدر الدين أن يقوم بكلّ هذه الإصلاحات دونَ موافقة مطلقة، وصلاحيات واسعة من الخليفة المستنصر ممّا زاد من نفوذ الجمالي، وتولّى وزارة الدّولة، حتّى أنّه عهد إلى ابنه الأفضل بالوزارة وأقرّه الخليفة، وبذلك يكون قد بدأ عصرٌ جديد يزدادُ فيه نفوذ الوزراء على حساب الخلفاء؛ عهد الوزراء العظام.

ملاحظات:

- لم تكنْ هذه الشدّة هي الأولى التي مرّت بها مصر، فقد مرّت مصرُ بمثل هذه الشّدائد عدّة مرّات منذ عهد سنوسرت الثّالث، ومرورًا بسبع سنوات في عهد سيدنا يوسف، والشدّة التي استمرّت تسعَ سنين في عهد أبي المسك كافور، وفي عهد الحاكم بأمر الله، وهكذا، إلّا أنّ ما ميّز شدّة المستنصر هو عنفُها؛ حيث قيل إنّ ثلث سكّان مصر قد هلك بسببها.

- دائمًا ما يرتبط انتشارُ الأمراض والأوبئة بالمجاعات حيث يموتُ الناس والدّواب دون أن تجد مَن يدفنها؛ فتتعفّن في الطّرقات، وتتكاثر الهوام والحشرات، والتي تعتبر السببَ الرّئيسي في انتشار الأمراض.

- بعد وفاةِ المستنصر اضطربتِ الأحوال حيث تركَ ولديْن هما: نزار والمستعلي بالله، وكان نزار هو الأكبر، وبالتّالي هو المستحقّ للإمامة، على أنّ بعض الأطراف تدخّلت، وأهمُّهم الأفضلُ بن بدر الدين الجمالي لصالح تولية المستعلي، ممّا أدّى إلى حدوث انقسام في المذهب الإسماعيلي إلى نزارية ومستعلية، وكان أهمّ دعاة النّزارية شخص اسمه «الحسن بن الصّباح»، والذي سيؤسّس بعد ذلك جماعة الحشاشين.

❋ ❋ ❋

الرّقّ السّادس: بدايةُ النّهاية

قرّب أبي السّراج منه وهو يفتح الكتابَ على الرّقّ الأخير في هذا المتن، وقال:

- أعلمُ يا ولدي أنّ الليل قد جاء، ولكنّي أخشى إنْ ذهبنا الليلة إلى المنزل أنْ يختلط عليك حدثٌ من الأحداث، فلنكملْ هذا المتن، وبعدها نستريح يومًا أو يومين.

أجبتُ أبي موافقًا، فقد كان يملؤني الشّغف لمعرفة ما ستسفرُ عنه أحداث هذا الرّقّ، وقلت:

- نعْمَ الرّأي يا أبي.

ابتسم أبي راضيًا، وبدأ يقرأ لي عن.. عصر الوزراء العِظام.

****

تولّى الأفضلُ بن بدر الدّين الجمالي الوزارةَ بعد أنْ تمكّن بنفوذه من تولية المستعلي بالله، وفي ذاتِ الوقت حاول العباسيّون استعادة مصر من أيدي الفاطميّين بعد أنْ جدّد السلاجقة قوّتهم، وبثّوا فيها الحياة، ممّا أدّى إلى فقدان الفاطميّين لسيطرتهم على بلاد الشام بعد أن تقدّم السلاجقة للاستيلاء عليها، وبالتّزامن مع هذه الأحداث بدأتْ أولى مقدّمات الحملات الصّليبية نحو بيت المقدس.

وبوفاة المستعلي، أقام الأفضلُ ابنَه- أي ابن المستعلي- كخليفة، ولقّبه بالآمر بأحكام الله، وهو لم يتجاوز بعدُ الخمس سنوات من عمره، وبالطّبع حجر عليه الأفضلُ، واستقلّ عنه بالحكم، كما قام بنقل العاصمة من

القاهرة إلى الفسطاط، وبنى لنفسه دارًا سمّاها دار الملك، على أنّه أعاد سنّة الخلفاء الفاطميّين الأوائل في الاستعانة بأهل الذّمة، خاصّة من النصارى، فعيّنهم في أعلى المناصب، كما أشاع الحريّة الدينية، وسمح للنّاس بإقامة شعائرهم وإظهارها بلا خوف، ممّا أثار الفرقة النزارية، وتآمروا على قتلِه، وبالفعل ينجحون في اغتياله رغمَ الاحتياطات التي اتخذها.

وبلا شكّ، فإنّ سقوط الشّام وبيت المقدس في يد الفرنج الصليبيّين يقع على عاتق الأفضل، إذ تهاونَ كثيرًا في الدّفاع عنها، بل بلغ الأمر أنْ وصل بلدوين ملك بيت المقدس على رأس حملة وصلتْ إلى الفرما، فما كان من الأفضل إلّا أنّ اضطرّ لمهادنته لأنّه يعلم أنه لا يستطيع قتاله، ورغمَ كلّ هذا فبوفاة الأفضلِ يكون قد انتهى عهدُ الاستقرار ليبدأ عصرُ التّصارع على منصب الوزارة.

أصبحَ منصبُ الوزارة أكثر نفوذًا وسلطةً من الخليفة ذاته، وتطلّع له الكثير من حكّام الأقاليم، وصار كلّ دورِ الخليفة أن يتمّ إجباره على تعيين الوزير الذي يملك كافّة الصّلاحيات، وقد أدّى ذلك إلى الصّراعات المتواصلة بين الوزراء وقادة الجيش، وعمّت الفوضى البلاد، حتّى تولّى طلائع بن زريك الوزارةَ، والتي تمتّعت البلاد في ظلّ حكمه بشيء من الهدوء النّسبي، وقد أدرك أنّ مصر لن تستطيع وحدَها الوقوف أمام المدّ الإفرنجي؛ فحاول عقدَ تحالف مع والي دمشق نور الدّين، وقد تنبّه الفرنج لخطورةِ هذا التّحالف حيث سيقعون بين مطرقة الصالح طلائع وسندان نور الدين، فسارعوا لعقدِ

تحالف مع الصّالح طلائع، إلّا أنّه رفض وأصرّ على التحالف مع نور الدين، إلّا أنّه- وللأسف- وقف اختلافُ المذاهب حائلًا دون إتمام هذا التحالف، كما أنّ الخليفة العاضد ضاق ذرعًا بالصّالح طلائع، الذي أجبره على التزوّج من ابنته طمعًا في أن تنجب ذكرًا يصبح هو الخليفة، فأوعز العاضد إلى بعض الخدم لاغتياله، فأردوه قتيلًا في ١٩ رمضان ٥٥٦ هـ / ١١ سبتمبر ١١٦١م، وكان آخر ما قاله:

- آهٍ، كم آسف على عدم استطاعتي تحرير بيت المقدس، والقضاء على هؤلاء الفرنج الملاعين.

وأخيرًا، أذنت شمسُ الدّولة الفاطمية بالغروب، فقد بدأ الصّراع بين الوزراء يأخذ منحنًى جديدًا، خاصّة بين شاور وضرغام اللّذيْن استعان كلّ منهما بقوى خارجية لينصره على منافسه، فاستعان شاور بنجم الدين صاحب الشّام على أن يعطيه ثلثَ خراج مصر، وسرعان ما أرسل ضرغام إلى عموريا ملك بيزنطة ليدعمه في مواجهة شاور، ويحذّره من تحالفه مع نور الدين، إلّا أن ملك بيزنطة لم يكنْ عنده ما يكفي من القوّات لمساندة ضرغام، خاصّة وقد شدّد نور الدين هجومه عليه من الشّمال، وبالفعل استطاع جيشُ نور الدين من دخول مصر بقيادة شريكوه، وكما تقتضي التّقاليد المصرية قام العاضدُ بتعيينه وزيرًا، ولقّبه بأمير الجيوش، ولكن سرعان ما توفّي شريكوه وتولّى ابن أخيه يوسف بن أيوب، الملقّب بصلاح الدين الأيّوبي وزارة مصر.

أغلق أبي المتنَ وهو يقول لي:

- وهكذا يا ولدي انتهت الدّولة الفاطمية بعد أنْ أعلن صلاح الدين إسقاطها، وأعاد الدّعوة على المنابر للخليفة العباسي، وأعلن قيام المذهب السنّي في مصر، على أنّ عهده لم يكن عهدَ رخاء إذْ سيستعدّ لمجابهة خطر الفرنج وطرْدهم من الشّرق، ولكن هذه قصّة أخرى سنرويها بعد غدٍ إنْ شاء الله، إن أمدّ الله في أعمارنا.

ملاحظات:

- رغمَ عدم انتشار المذْهب الشّيعي بين المصريّين، إلّا أنّ معظم العادات والتقاليد الدينية تعود إلى العهد الفاطمي، خاصّة ما يخصّ رمضان سواء الفوانيس أو الحلويات التقليدية كالكنافة والقطائف.

- بدأ الغزو الصّليبي لبيت المقدس بعد تحرّش دولة السّلاجقة بقوافل الحجّاج المسيحيين، فاتّخذتها الدّول الأوروبية ذريعةً للتوجّه لغزو الشرق.

- دعا فرسان الفرنج عموريّا لغزو مصر، وقد رأوا حالة الضّعف والتفكّك التي تنتابها، إلّا أنّه اكتفى بالجزية التي كانت ترسلُها مصر له، كما رأى أنّه سيشتّت قواته في عدّة جبهات.

***

المتنُ الثّالث:

أخبارُ بني أيّوب، وفيه ذكرُ دولة المماليك

الرّقّ الأوّل: الطريقُ إلى بيت المقْدس

ما أنِ انتظمت الأمورُ لصلاح الدين حتّى عمل على تركيز كلّ السّلطات في يده، وتمكين أهله وأقاربِه من المناصب العليا (تاريخ مصر فى العصور الوسطى - للكاتب ستانلي بول ص ٣٧٥) على أنّ الأمور لم تصفُ له تمامًا، فقد حاول جماعاتٌ من الشيعة إعادةَ إحياء الخلافة الفاطمية ونادوا بأحدِ أحفاد الخليفة الفاطمي الحافظ، وبايعوه على الخلافة، إلّا أنّ صلاح الدين استطاع القبضَ عليهم والتخلّص منهم، ولم يكدْ صلاح الدين ينهي هذه المؤامرة حتّى تعرّض لمحاولة اغتيالٍ على يد جماعة الحشّاشين التي أسّسها «حسن بن الصّباح»، على أنّ من أشهر المؤامرات التي حيكت ضدّ صلاح الدين هي مؤامرة مؤتمن الخلافة، وهو أحدُ كبار رجال الدولة الفاطمية في عهد العاضد الذي أرسل إلى الفرنجة أنْ يقوموا بغزو مصر، فإذا خرج صلاح الدين لملاقاتهم ينقضّوا هُم وحلفاؤهم عليه من الخلف ويقضوا عليه تمامًا، إلّا أنّ صلاح الدين اكتشف

أمرَ الرّسالة مصادفةً، وأرسل جماعة إلى مؤتمن الخلافة فقتلوه، كما أرسل وزيره قراقوش ومعه بعضُ الجند فعزلَ كلّ جميع خدم القصر الفاطمي، وأصبحوا تحت مراقبة قراقوش المباشرة.

على أنّ الخطر الحقيقي الذي تهدّد صلاح الدين كان سيّده نور الدين محمود، فقد كان صلاح الدّين في مصر كنائبٍ عنه وأحد عمّاله، إلّا أنّ صلاح الدين قرّر الاستقلال بمصر، وتكوين ملكه الخاصّ، بالإضافة لاختلاف وجهات النّظر السياسية بين الرّجلين؛ فقد رأى نورُ الدين في بلاد الشام أنّها بمنزلة الأرض الرئيسية للمعركة ضدّ الصّليبيين، وتطلّع إلى مصر كمصدر للطاقة البشرية الإضافيّة والواردات المادية التي تسدّ نفقات الجهاد، وخطوة تمهيدية للقضاء على مملكة بيت المقدس، وهو لم يناضل في ضمّها إلّا من أجل هذه الغاية؛ أمَّا صلاح الدين فقد كان مقتنعًا نتيجةً للصّراع بين القوى الثلاث الإسلامية والصليبية والبيزنطية حول مصر؛ بأنّ هذا البلد يشكّل في الوقت الراهن مركزَ الثّقل في العمليات العسكرية. (تاريخ مصر فى العصور الوسطى - ستانلي بول - ص ٣٨٢)

اجتمع صلاحُ الدين أقاربه، وخاصّة قوّاده، يستشيرهم في أمر نور الدين محمود، وقال:

- وصلتني رسالة من نور الدين محمود يأمرني بأنْ أجمع الجند، وأخرجَ لملاقاته عند حصن الكرك للهجوم على الفرنجة، فماذا ترون؟

فقام تقي الدين ابنُ ابنِ أخيه وقال:

- إذا جاء قابلناه كلّنا، وصددناه عن البلاد.

ووافقه جماعةٌ من أهله على ذلك، فسبّهم نجم الدين أيوب (أبو صلاح الدين)، وأنكر عليهم، وكان ذا رأي ومكر فقال:

- أنا أبوك، وهذا شهابُ الدين خالك، أتظنّ في هؤلاء مَن يحبّك، ويريد لك الخير أكثرَ منّا؟

أجابه صلاح، وقد بدا مندهشًا من ردّة فعل أبيه وقال:

- لا.

فقال نجمُ الدين بصرامة:

- فو الله لو رأينا أنا وخالك السّلطان نور الدين لما أمكنّا إلّا أن نترجّل له، ونقبّل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقِك لفعلنا، فإذا كنّا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا؟ وكل مَن تراه مِن الأمراء والعساكر لو رأى السّلطان نور الدين وحده لم يتجاسرْ على الثبات على سرْجه، وما يسعه إلّا النّزول وتقبيل الأرض بين يديه، وهذه البلاد له وقد أقامك فيها نائبًا عنه، فإنْ أراد عزلك فأيّ حاجة إلى المجيء، إنّما يأمرك بكتاب من نجاب حتّى تقصد خدمته ويولّي البلاد من يريد.

ثمّ صاح في المجتمعين بغضب:

- قوموا عنّا، فإنّما نحن مماليك السّلطان نور الدين يفعل بنا ما يشاء.

فانصرف الجمع وكلّهم دهشةٌ أمام نظرات صلاح الدين الذّاهلة، وما أنْ تأكّد أبوه من انصراف الجميع حتّى توجّه إلى صلاح الدين قائلًا:

- أنت جاهلٌ قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير وتُطْلِعهم على ما في نفسك، فإذا علم نور الدين بما أنت عازمٌ على منعِه عن البلاد، جعلك أهمّ أموره، وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم ترَ معك أحدًا من هذا العسكر وأسْلَموك إليه، أمّا بعد هذا المجلس فسيكتبون له بقولي، واكتب أنت أيضًا إليه بنفس المعنى، فينصرفُ عنك إلى ما هو أهمّ منك عنده، والأيّام تندرج. (السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي - ج١ - ص ١٥٤)

وبالفعل، يرسلُ صلاح الدين إلى السّلطان نور الدين رسالةً مفادها أنّه طوع أمره، على أن نور الدّين لم يكن واثقًا تمامًا من ذلك، وتجدّدت بينهما المراسلات حتّى أيقنَ نور الدين من نية صلاح الدين الاستقلالَ عنه بحكم مصر، فجمع جيشه وعزم على ملاقاة صلاح الدين، إلّا أن القدر يبدو أنّه كان له رأي آخرَ فتوفّي نور الدين محمود في الطّريق، واستتبّ الحكمُ لصلاح الدين في مصر أخيرًا.

بدأ صلاحُ الدّين يجهّز لاستعادةِ بيت المقدس، فخرج على رأس جيشه، واستولى على عدد من الثّغور الشّامية، وبعدها توجّه لتحرير بيت المقدس وملاقاة الصّليبيين في حطّين الذين انهزموا شرّ هزيمة، وانهزموا بعدها في عدّة مواقع، ثمّ فرض صلاح الدين الحصارَ على بيت المقدس وضربَها بالمنجنيق حتّى استطاع أن ينقّب في أسوارها، ووقع أرناط وبعض الأمراء في الأسر، فقتل صلاح الدين أرناط بيده لقاءَ ما فعله بقوافل الحجاج المسلمين.

لم تتوقّف المعارك بين صلاح الدين والصّليبيّين عند هذا الحدّ، فقد تكرّرت الصّراعات، غير أنّها لم تكنْ حاسمة، فتارة ينتصر المسلمون وتارة ينتصر الصليبيون، حتّى أنّ صلاح الدين اضطر إلى تخريب مدينة عسقلان بعد أنْ عجز عن حمايتها من السّقوط في أيدي الصليبيّين.

وفي سنة ٥٨٩ هـ مرض السّلطان صلاح الدين الأيوبي مرضًا شديدًا وتوفّي، وبعده تعرضت الدّولة الأيوبية التي كانت تضمّ الشّام وفلسطين ومصر؛ إلى التقسيم، نتيجة التنافس بين أفراد أسرته، حتّى استقرّت أخيرًا في يد أخيه العادل، ويعيد توحيدَ مصر والشام تحت حكم سلطان واحدٍ بعد أن تفرّقت على يد أبناء صلاح الدين.

ملاحظات:

– بدا واضحًا من القصّة التي أوردها المقريزي وغيرُه أنّ هدف صلاح الدين كان محددًا منذ بداية مجيئه إلى مصر بالاستقلال بها عن السلطان نور الدين محمود.

– بنى قراقوش بأمر صلاح الدين قلعةَ الجبل التي ستصبح مقرَّ الحكم في مصر لعصور طويلة بعد ذلك.

– بالطّبع، لا حاجة لنا لذكر كمّ المغالطات التّاريخية التي وقع فيها منفّذو فيلم صلاح الدين الأيوبي الذي أخرجه يوسف شاهين، والذي كان معظمُها مجرّد أكاذيب.

– اختلفتِ الأقاويل في صلاح الدين، فمِن المؤرّخين من وصفه بالسّفيه، وأنّه كان طامعًا في السّلطة، وآخرون ينظرون إليه أنّه البطل

الإسلامي المغوار الذي حرّر القدس، وكلا النّظرتين صحيحٌ وخاطئ في نفس الوقت، فقد كان صلاح الدين نبيلًا كما أشار الكثير من المؤرخين العرب والفرنجة، إلّا أنّه كان أيضا طامعًا في السّلطة بدليل رغبته فالاستقلال عن سيده نور الدين (تاريخ مصر في العصور الوسطى - ستانلي بول - ص ٣٧٥) (تاريخ الأيوبيين والمماليك التاريخ السياسي والعسكري - قاسم عبده قاسم ص ٣٥) (الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية - ابن الأثير - ص ١٥٨ تحقيق عبد القادر طليمات) ، وتحريره للقدس فإنْ كان له شقّ ديني فهو أيضا توسيعٌ لرقعة الملك، فالرّؤية الصحيحة لصلاح الدين وغيره يجب أنْ تكون في نطاق بشريّته التي تميل للخير تارة وللشرّ تارة أخرى، فالكثيرُ من تصرّفات صلاح الدين صاغتها رغبتُه في الملك مثل رفضه التّحالف مع نور الدين في الكرك لمواجهة الصليبيّين (تاريخ مصر في العصور الوسطى - ستانلي بول - ص ٣٨٢- ٣٨٣) (تاريخ الأيوبيين والمماليك التاريخ السياسي والعسكري - قاسم عبده قاسم ص ٣٥).

***

الرّقّ الثّاني: الأمّةُ.. جسدٌ يتمزّق

اليوم لم يأت أبي معي، فقد أصابته الحمّى منذ عدّة أيام، ولكنّه رفض أن نتوقّف عمّا نحن بصدده، إلى أن أقعده المرض تمامًا، فاستحلفني أن آتي إلى هنا وحدي، وأن أستكمل ما بدأناه سويًا، لذا وجدت نفسي مضطرًّا لتركه والبدء في قراءة المتن..

ماتَ صلاح الدين، وترك دولة قويّة موحّدة، تضمّ مصر والشام، كما ترك- أيضًا- سبعة عشر ابنًا وبنتًا واحدة، ولم يكنْ هؤلاء الأبناء أهل للملك الذي تركه أبوهم، فتنازعوا فيما بينهم وقد طمع كلّ أخ فيما في يد أخيه، حتّى استطاع الملك العادل أخو صلاح الدين أن يعيد توحيد السلطنة تحت حكمه، غير أنّه لم يتابع سياسة أخيه صلاح الدين في مقاومة الصليبيين، بل آثر مسالمتهم، فما كانت تنتهي هدنة حتّى يسارع إلى تجديدها، حتّى انتهت آخر هدنة في سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م حيث كانت الحملة الصليبية الخامسة في طريقها إليه، ولمّا وصلت طلائعها إلى عكا خرج من مصر إلى الشّام، فبرز الصليبيّون لقتاله، فانحرف عنهم إلى بيسان من الأردن، ثمّ اتّجه نحو دمشق.، وما كاد يستقرّ فيها حتّى فوجئ بالحملة الصليبية تصل إلى عكا، ثمّ تشقّ طريقها بحرًا نحو دمياط، وقد استطاع الصليبيون الاستيلاءَ على برج دمياط، وهو برج منيع فيه سلاسل من حديد ممدودة عبْر النيل لتمنع المراكب التي في البحر من دخول دمياط، وكان سقوط هذا البرج مؤذنًا بسقوطها، فلمّا وصل خبرُه إلى العادل دقّ على صدره حزنًا وأسفًا على ما جرى، ووقع مريضًا، حيث توفي، فدفن بقلعة دمشق، ليتولى بعده ابنه الكامل.

على أنّ أبناء العادل لم يتعلّموا الدرس الذي أصاب أبناء عمّهم صلاح الدين فبدأ التنافس بينهم بعد أن كانوا جبهةً واحدة ضدّ الصّليبيين الذين استولوا على دمياط- والتي عرض الكامل على

الصّليبيين تركها مقابل أن يردّ لهم بيت المقدس، ولكنّهم رفضوا- وقد استعان المعظم عيسى بجلال الدين الخوارزمي للتغلّب على أخويه، فما كان من الكامل إلّا أنْ تحالف مع الملك فريدريك الثّاني، ويعرض عليه بيت المقدس- للمرّة الثّانية- إنْ هو ساعدَه في التغلّب على أخيه المعظم عيسى، لكنّ القدر كان له شأنٌ آخر، إذْ توفّي المعظم عيسى فجأة، ووجد الكامل نفسه مضطرًّا للتّنازل عن بيت المقدس دونَ مقابل، ويعقد هدنةً مع الصّليبيين لثمان سنوات، استغلّها في توسيع ملكِه على حساب ممالك أخويه، وهكذا عادت السّلطنة من جديد موحّدة تحت حكم الكامل للمرة الثّالثة، ثمّ عاد الانقسام من جديد بين أبنائه بعد وفاته، حتّى تولى الصالح نجم الدين أيوب.

جلس الصّالح نجم الدين أيوب على عرش مصر بتأييدٍ من أكابر الأمراء ومماليك والده، وخطب له في المساجد، وزيّنتِ البلاد وقلعة الجبل، وسُرّ الناس لما عرفوه عنه من نجابةٍ وشهامة، وكان أوّلُ ما فعله السّلطان الصالح أيوب الكشفَ على بيت المال والخزانة السلطانية فلم يجد سوى دينارٍ واحد وألف درهم، فطلب القضاةَ والأمراء الذين قبضوا على العادل، وسألهم قائلًا:

- هل من الممكن أن يخبرني السّادة القضاة عن سبب القبض على أخي العادل؟

تبادل القضاة والأمراءُ النّظراتِ بقلق، قبل أن يتجرّأ قاضي القضاة ويتقدّم قائلًا:

- لأنّه كان سفيهًا يا مولاي.

فاستشاط الصّالح أيوب غضبًا وسألهم صارخًا:

- وأين كنتُم يا قضاة السّفيه؟ هل يجوز تصرّفه في بيت مال المسلمين؟

فأجابوا جميعًا بالنّفي ممّا زاد من سخط الصّالح عليهم، فقال لهم متوعّدًا وقد احمرّت عيناه غضبًا:

- أقسم بالله متى لم تحضروا ما أخذتُم من المـال، كانت أرواحُكم عوضه.

فخرجوا وعادوا بمبلغٍ كبير من المال، فتركهم ولكنّه قبض عليهم واحدًا تلو الآخر فيما بعد، ولم تكنْ هذه هي آخرَ أعمال الصالح نجم الدين البيضاء، فسرعان ما قرّر تحرير بيت المقدس من جديدٍ بعد أن تنازل الكامل عنها من قبل، فجهّز جيشًا كبيرًا وقد انضمّت إليه فلول الجيش الخوارزمي التي فرّت إلى الشرق الإسلامي بعد وقوع مملكة خوارزم شاه في أيدي المغول، واصطدم الجمعان في شمال شرقي غزة في معركة لافوربي، وقد دفع الصليبيّون بأكبر جيش لديهم منذُ حطّين، وكان الانتصار حليفَ المسلمين هذه المرّة أيضًا، وتعود بيت المقدس إلى الرّقعة الإسلامية من جديد، ويُهزم الصليبيّون شرّ هزيمة ذكّرتهم بحطين، فأرسلوا إلى أوروبا يسألونَهم المدد كي لا تزول مملكة بيت المقدس للأبد، فيُهْرع ملوك أوروبا إلى إرسال الحملة الصّليبية السابعة إلى مصر كي يتخلّصوا من الصالح نجم الدين أيوب.

وبالفعل، ينجح الصّليبيون هذه المرة أيضًا في الاستيلاء على دمياط، بينما ينسحب الجيش الأيوبي، ويتحصّن في فارسكور، وقد تزامنتْ هذه الأحداث مع مرض الصّالح نجم الدين أيوب، وفي ١٥ شعبان ٦٤٧ هـ/ ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩م، بينما الحرب مشتعلةً بين المسلمين والصليبيين، توفّي السّلطان الصالح أيوب وهو في الرّابعة والأربعين، تاركًا البلاد بلا حاكم، فتعمد زوجته شجرةُ الدّر إلى إخفاء نبأ موته، وتديرُ المعركة بدهائها مستخدمةً خاتم السلطان، بينما ترسل إلى ابنه توران شاه ليتولّى حكم البلاد.

ملاحظات:

- كان من إنجازاتِ الملك العادل أخِ صلاح الدين استكمال بناء قلعة الجبل وتحصينها لتكون مقرًّا للحكم.
- لم نفهمْ على وجه التّحديد ذلك الإصرارَ من جانب الكامل للتّنازل عن بيت المقدس في كلّ مواجهةٍ له مع الصّليبيين، أغلبُ الظّن أنّه اكتفى بحكم مصر، ولم يعدْ يفكّر فيما سواها، بغضّ النظر عن الأهمية الدينية.
- كان لسقوطِ مملكة خوارزم شاه أثرًا بالغًا على الأحداث، فقد لحق فلول الجيش بالممالك الإسلامية الشرقية، وبعضهم التحق بالمغول للعمل كجنودٍ مرتزقة، وقد انقلبوا على الصّالح نجم الدين بعد تحالفهم معه؛ ممّا اضطرّه للتخلص منهم.

- استكثر نجمُ الدين من المماليك، وبنى لهم مكانًا في جزيرة الروضة، وقد اهتمّ بهم وبرعايتهم وتنشئتهم تنشئة دينية وقتالية متميّزة؛ ليكونوا له عونًا في حروبه.

الرّقّ الثّالث: بزوغُ دولة المماليك

أثبتتِ التّجارب والمحنُ التي مرّ بها الصّالح نجم الدين أيوب أنّ مماليكه هم الأكثر إخلاصًا له، وهُم مصدرُ قوته ودعائم ملكه، فاستكثر في شراء المماليك، وأسكنهم بجواره في قلعة الروضة وأطلق عليهم «البحرية»، وحرص على تنشئتهم تنشئة إسلامية دينية وعسكرية متميزة، فجعل منهم قادةَ الجيوش وأمراءه، وخاصّةَ حاشيته، فلمّا توفّي قامت شجرة الدّر بإخفاء أمر موته وتدبير المملكة حتّى جاء ابنُه المعظم توران شاه صاحبُ حصن كيفا ليتسلّم ملك أبيه، إلّا أنّه كان أهوجَ، وبه خفّة، فقرّب جماعته الذين جاءوا معه من حصن حيفا، وأبعدَ مماليك أبيه وأهانهم، كما انْشغل بالشّراب واللهو، وأرسل إلى شجرة الدّر يطلب أموالها وجواهرها ويتهدّدها، فما كان منها إلّا أنْ أرسلت إلى فارس الدين أقطاي، كبير البحرية آنذاك، تشرح له الأمر، وكان قد بلغه تهديدُ توران شاه للبحرية ونيّته التخلّص منهم، فسارع بإرسال بعض المماليك بقيادة ركن الدين بيبرس فقتلوه، وبذلك كانت نهايةُ دولة الأيوبيّين، واتفقوا على تولية ذات الحجاب الجميل والسّتر الجميل أمّ الخليل شجرة الدر، وكانت توزّع الإقطاعات والعطايا على الأمراء والجند، وسكّتِ العُملة باسمها، ودعيَ باسمها على المنابر.

«واحفظِ اللّهم الجهة الصّالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدّين والدّنيا، ذات الحجاب الجميل والسّتر الجميل، أمّ الخليل وزوجة الصالح نجم الدين».

أثار تولية شجرة الدر الاستياءَ في بلاد الشام، وفي عاصمة الخلافة، حتّى لقد أرسل الخليفة المستعصم بالله برسالةٍ إلى مصر، قال فيها «أمّا بعد: اعلموا إنْ كان ما بقيَ عندكم في مصر من الرّجال مَن يصلح للسّلطنة، فنحن نرسلُ لكم مَن يصلح لها... «

وأمامَ هذا الغضب مِن الخليفة وإشارته إلى نقص الرّجال التي أثارت حميّة المماليك، اضطرت أمّ الخليل أن تخلع نفسَها من السّلطنة وتتزوّج من عزّ الدين أيبك التّركماني، على أنّها كانت متسلّطة عليه، وتحكم الأمور من وراء ستار، فكان هذا البداية الحقيقية لدولة المماليك.

واجهتْ أيبك عدّةُ صعوبات في بداية حكمه، فمِن ناحية تسلّط شجرة الدر، ومن ناحية أخرى تحزّب المماليك البحرية حول فارس الدين أقطاي حتّى صار يمثّل عبئًا ثقيلًا على أيبك، خاصّة وأنّ البحرية قد انفلتَ زمامهم، فكانوا ينهبون النّاس، ويستولون على أموالهم ونسائهم وأولادهم دون أن يمنعهم أحد، بل إنّ بعضهم كان يهاجم حمّامات النساء فيخطف منهنّ مَن تعجبه، وقام العُربان بتمرّدٍ ضدّ حكمه، إلّا أنّ أيبك استطاع التغلّب على كلّ هذه المعوقات، فتخلّص من سيطرة شجرة الدر، وقضى على ثورة العُربان، وأرسل إلى أقطاي أن يأتيه إلى قلعة الجبل ليستشيره، فخرج إليه أقطاي دون

أن يأخذ حذره، ولكنّه فوجئ بجماعة من مماليك أيبك على رأسهم قطز، فقتلوه في أحد دهاليز القلعة، وألقوا برأسه إلى مماليكه خارجَ أسوار القلعة، فهرب بعضُهم إلى الشام، وتحوّل بعضهم إلى قطْعِ الطّريق، في حين قبض أيبك على البقيّة الباقية منهم.

وهكذا استقرّت الأمور بيَدِ أيبك، ولتعزيز ملكه قامَ باستدعاء طفلٍ من البيت الأيوبي، وجعله شريكًا له في حكم مصر، وأرسل إلى بدر الدين لؤلؤ ليخطب ابنتَه، وإزاء كلّ هذه الإهانات التي لحقتها تقرّر شجرةُ الدر الانتقامَ منه بقتله، فأرسلت إليه رسالةً بناعم القول ولينِه تسترضيه وتطلبُ منه أن يأتيها في القلعة، وكأنّ أيبك قد نسيَ أو تناسى ما فعله بأقطاي فيتخلّى عن حذره ويذهب إليها، فتأمرُ جماعةً من مماليكها بقتله، فقتلوه أشنعَ قتلة، وادّعت بعد ذلك أنّ وفاته المفاجئة كانت بلا سبب، ولكنّ هذا الأمر لم يقنع مماليكه فقبضوا عليها وسلّموها إلى أمّ علي زوجتِه الأولى، فقتلتْها ضربًا بالقباقيب، وألقَتْ جثتَها في الخندق المجاور للقلعة، فبقيتْ جثّتها ثلاثةَ أيّام دون دفن حتّى تعفّنت، وجاء إليها جماعةٌ من العامّة فسرقوا دكّة لباسها، وكانت تحتوي على جوهرةٍ ومنفحة مسك، ثمّ حملت في قفّة، ودُفنت في تربتها بقرافة الإمام.

سارع أمراءُ المماليك بتولية المنصور نور الدين بن المعزّ أيبك، وكان طفلًا، في حين تولى الأمير سيف الدّين قطز نيابة السّلطنة، ليكون نائبًا للسّلطان المنصور علي بن أيبك، ومدبّرًا لملكه، إلّا أنّه

في هذه الأثناء وصلت الأخبارُ بوصول المغول إلى الشّام، وإرسالهم رسالة تهديد مباشرة إلى مصر، فما كان من قطز إلّا أنْ خلع المنصور، وانفردَ بحُكم مصر لإنقاذها من هذا الخطر الدّاهم؛ خطر المغول.

ملاحظات:

- بدأ عصرُ دولة المماليك بتوليةِ شجرة الدر حيث كانت جاريةً لدى الصّالح نجم الدين أيوب ثمّ أعتقها وتزوّجها بعد ذلك، على أنّ تبلور الدولة كان في عهد أيبك حيث زاد نفوذُ المماليك وصارت لهم الكلمةُ العليا في تولية وعزل- وقتل أيضًا- السّلاطين.

- سقطتْ بغداد في يد هولاكو، ودمّرها في عهد المعزّ أيبك، وبعدها توجّه نحو بلاد الشام وقد تحالف معه بعض أمرائها.

- تمّ قتل عزّ الدين أيبك بسحق خصيتيْه، وقيل بخنقِه.

- تنسبُ الحلوى المصرية المعروفة بـ «أمّ علي» إلى الزّوجة الأولى لأيبك وأمّ المنصور؛ حيث صنعتها ووزّعتها احتفالًا بتحقيق انتقامها من شجرة الدر.

الرّقّ الرّابع: السّيلُ المغوليّ الجارف

أخذتُ بيد أبي أسنّده وهو يمشي بخطى بطيئة، فلمْ يتعافى من مرضه تمامًا إلّا أنّه أصرّ بشدّة على المجيء اليوم، وهو يسعلُ بين الحين والآخر؛ ممّا دفعني إلى أنْ أقول مشفقًا:

- ما كان عليك أن تأتي وأنتَ بمثل هذه الحالة يا أبي، فأنتَ لم تبرأ من مرضك بعد؟

أجابني بصوتٍ واهن يقطعه السّعال:

- لا عليك يا ولدي، لا عليك؛ فحضوري اليوم ضروري حيث أنّك لن تستطيع وحدَك أن تفكّك هذه الأحداث الجسام، وتعيد ربط علاقاتها من جديد، وأن تستبصر ما خفي عليك من خيوط دقيقة ربطتْ بين مقادير هذه الشّعوب وأزمانها، فلا بدّ لك من دليلٍ يقودك وسط هذه الدروب المتشابكة.

- لا بأس عليك يا أبي.

- أخبرني إلى أين توقفت يا سعيد؟

- توقّفت حيث انفرد سيفُ الدين قطز بحُكم مصر لمواجهة المغول.

- آآآه المغول، الجرادُ الذي قضى على حضارات العالم القديم، إذًا هيّا نستكمل ما بدأته يا ولدي.

وأمسك المتنَ بيدين مُرتعشتين، وأخذ يقرأ الرّقّ الرّابع، عن سيل المغول..

إنّ أحوال المغول لم تختلف كثيرًا عن أحوال العرب قبل الإسلام، فكلا الجنسين كانا عبارة عن قبائل بدوية رعوية تنتقل بحثًا عن الكلأ والماء، يحكمهم العادات والتقاليد القبلية، يتصارعون فيما بينهم، حتّى ظهر فيهم تيموجين، أو جنكيز خان، الذي سيوحّد صفوفهم ويؤسّس بهم إمبراطورية المغول، ورغم انتشارِ الجهل بين المغول استطاع قائدُهم الفذُّ جنكيز خان أن يجمع حوله مجموعةً هائلة من الحكماء والمستشارين من كافّة الأعراق والخلفيات الثقافية

من البلاد المفتوحة، أو من كبار العلماء والتجّار، وكان من هؤلاء حكماءُ صينيّون ومشايخ وتجار مسلمون وغيرهم ممّن اتّسم بالنّبوغ في أيّ شأن من الشئون.

وعلى تخوم هذه الإمبراطورية كان هناك دولةٌ إسلامية عظيمة، وهي الدّولة الخوارزمية، والتي حكمتْ بقعة هائلة من العالم الإسلامي ضمّت بلاد فارس والهند وما وراء النهرين وغيرها من البلدان، فأراد جنكيز خان أنْ يقيم علاقات وديّة وتجارية مع مثل هذه الدّولة العظمى، فأرسل بعثة دبلوماسية من التّجار المسلمين بقيادة أحد. المغول إلى الدولة الخوارزمية

(المرجع : جنكيز خان فاتح العالم – الصاوي محمد الصاوي – ص ١٥١) (السلطان سيف الدين قطز – قاسم عبده قاسم – ص ٩٩) (تاريخ الدولة المغولية في إيران – عبد السلام فهمي ص ٤٩) (سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي – السيد السيد النشار/ حافظ أحمد حمدى ص ٨٤) ، إلّا أنّ والي خوارزم شاه قبضَ عليهم واتّهمهم بالتّجسس واعتقلهم وصادرَ ممتلكاتهم، رغم هذا الاستفزاز الصّارخ إلّا أنّ جنكيز خان أرسل بعثةً أخرى لخوارزم شاه ليمنحه فرصةً للتنصّل ممّا فعله واليه ويعيد إليه البعثة ومُمتلكاتهم، ومِن جديد يقوم خوارزم شاه بقتلِ البعثة المغولية، الأمرُ الذي جعل جنكيز خان يصدر أوامرَه بتجْييش الجيوش للخروج نحو بلاد خوارزم شاه ليأخذ بالثّأر، ويردّ على هذه الإهانات

المتوالية، وبالفعل عبرَ جنكيز خان نهر سيحون بجيش تراوح قوامه بين مائة ومائة وخمسين ألف مقاتل.

انهزمتْ جيوش خوارزم شاه في معركةٍ تلو الأخرى، وأخذ خوارزم شاه ينتقل هاربًا من مدينة إلى أخرى، حتّى توفّي بجزيرةٍ نائية، ودفن فيها، وتولّى من بعده ابنه جلال الدين، والذي ستكون الحربُ بينه وبين المغول سجالًا، فينتصر في معركة ويُهزم في أخرى، حتّى يُهزم تمامًا، على أنّه ارتكب من الفظائع في المدن الإسلامية التي كانت تخضع له أثناءَ حربه مع المغول ما لا يختلف أبدًا عن الفظائع التي ارتكبَها المغول أنفسهم، فنهبَ أموال الناس وصادر ممتلكاتهم وقتلهم، حتّى يقال إنّه بعدَ هزيمته لجأ لمجموعةٍ من الأكراد فقتله واحدٌ منهم كان له ثأرٌ عند جلال الدّين، وهكذا استولى المغول على كامل الدّولة الخوارزمية، وتنفتح عيونهم على الشرق الإسلامي.

وقد حاول خوارزم شاه الاستعانةَ بالممالك الإسلامية والخلافة العباسية إلّا أنّ جميعهم قد تخاذلوا عنْ نجدته أو مساندته، فقبل هذه الأحداث بعدّة سنوات كان خوارزم شاه قد استقلّ بمملكته عن الدّولة العباسية، ثمّ أرسل للخليفة العباسي الناصر لدين الله أنْ يرسل له (خلعة) أي إقراره على مملكته كنوعٍ من إضفاء الشّرعية على حكمه، إلّا أنّ الخليفة العباسي رفض، فما كان من خوارزم شاه إلّا أنْ جمع جيوشه وانطلق نحو بغداد في محاولةٍ لعزل الخليفة، وكاد ينجح لولا تعرّض جيشه لعاصفةٍ أهلكت العديدَ من جنوده، فعاد دون أن يحقّق هدفه.

وبوفاة جنكيز خان، توزّعت إمبراطوريّته الشّاسعة على أبنائه الأربعة، ورغم ذلك لم يؤدّ التقسيم إلى تفكّك الإمبراطورية؛ بل ظلّت دولة المغول متّحدة مترابطة تحت قيادة الخان الأعظم، في حين تولّى كلّ ابن جزءًا من الإمبراطورية يحكمها باسم الخان الأعظم.

وفي عام ست وخمسين وستمائة (٦٥٦ هـ) يدخل هولاكو بغدادَ بعد أن أخضع بلاد فارس بالكامل لحكم المغول، ويقتل الخليفةَ المستعصم بالله، وبذلك تكون نهاية الدّولة العباسية، كما أعملَ هولاكو السيفَ في رقاب الناس فقتل منهم خلقًا كثيرًا، وخرّبوا الجوامع والمساجد والمباني، ومِن عجيبِ ما وصلنا من أخبار أنّ الملك الناصر أمير دمشق أرسل ابنَه العزيز إلى هولاكو بوفدٍ من الأمراء والهدايا، يطلب منه أنْ يساعده ليأخذ مصرَ من المماليك، فيرسل معه هولاكو عشرين ألف فارس، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله، وبعدها سار هولاكو بجيشه نحو بلاد الشام فاستولى عليها، ولم يبقَ سوى دخول مصر.

ملاحظات:

- أثناءَ حرب خوارزم شاه مع جنكيز خان، كان الخليفة العباسي نفسه هو مَن أرسل إلى المغول يغْريهم بالقضاء على دولة خوارزم شاه، وقد ظنّ أنّه يأمن شرّه وطموحه للاستيلاء على الخلافة.

- هل مازلت ترى المغول وحدَهم هُم الهمج المتوحّشون، أم تراك بدأت تنظر إلى الملوك المسلمين بنفس الكيفية سواء خوارزم

شاه أو ابنه جلال الدّين أو خسّة الخليفة والملك الناصر. (جنكيز خان فاتح العالم - الصاوي محمد الصاوي - ص ٢٠٨ : ٢٠٩ / الكامل في التاريخ لابن أثير - ج ٩ - ص ٧٤٤: ٧٤٥ / (السلطان سيف الدين قطز - قاسم عبده قاسم- ص ١٠١) (تاريخ الأيوبيين والمماليك - قاسم عبده قاسم - ص ١٣٤)

- وضع جنكيز خان أسسًا وقواعدَ تحكم حياة المغول وعلاقاتهم مع بعضهم البعض في كتاب أسماه «الياسق»، وقد ضمّ الكتاب العديدَ من القيم النّبيلة مثل المساواة بين المغول وغيرهم إذا ما انضمّوا إليهم، بل قد يصل غير المغوليّ إلى منصبٍ لا يصل إليه المغوليّ إذا كان أكفأ منه، كما ضمن الياسق حرية الاعتقاد وممارسة الشّعائر الدينية في كافّة البلاد التي خضعت إليهم، بل كما ذكرنا من قبل ضمّ البلاط الخاقاني (الخان الأعظم) مستشارين وقـوّادًا من غير المغول ومن ديانات مختلفة، ويبدو أنّ علماء المسلمين لاحظوا تأثّر بعض المسلمين بالياسق فأفتوا بردّة من احتكم إلى الياسق أو تبنّاه.

- وضع جنكيز خان في كتابه الياسق قوانينَ صارمة ضدّ الجريمة، وكانت تنفّذ بصرامة وقوة حتّى أنّ البلاد التي تخضع للمغول قد عمّها النّظام، وقلّت فيها الجريمة، وانتشر فيها الأمن.

- قام المغول بتأمين طرق التّجارة العالمية، خاصّة طريق الحرير والتوابل الذي كان يربط العالم القديم ببعضه، وأنشئوا نظامًا بريديًّا فعّالًا يضمن وصولَ الرّسائل في أسرع وقت.

- أسلمت قبيلةٌ من أعرق قبائل المغول، وهي القبيلة الذهبية، وكان لها دورٌ هامّ في نشر الإسلام، وتحالف زعيمها بركة خان مع بيبرس ضدّ المغول والصليبيّين، وتزوّج بيبرس من ابنته ليوطّد علاقته به.

الرّقّ الخامس: بشائرُ النّصر

وصلت الأنباءُ إلى هولاكو- وهو في الشّام- بوفاة الخان الأعظم، فكان لا بدّ له من العودة إلى قلب العاصمة المغوليّة ليشهد عن كَثَب تولية الخان الأعظم الجديد، خاصّة وهو أحد دعائم الملك الرّئيسية في دولة المغول، وأخذ معه معظمَ الجيش المغول، ووكّل قائده كتبغا باستكمال الفتوحات.

أمّا في المعسكر الإسلامي فقد كان سيفُ الدين قطز يعمل جاهدًا لتوحيد صفوف أمراء المماليك، فاستدعى أمراءَ المماليك البحرية الذين فرّوا إلى الشّام، ووعدهم خيرًا، ورحّب بوصولهم، وقرّب إليه منهم ركنَ الدين بيبرس، حتّى أعلن الحارس عن مجيء رسل المغول..

جلس السّلطان سيف الدّين قطز على تخت السّلطنة بقلعة الجبل، يحفّه أمراءُ المماليك من كلّ جانب، مستقبلًا رسل المغول وقد أمسك كبيرُهم برسالة وقرأ منها..

«مِن ملك الملوك شرقًا وغربًا الخاقان الأعظم، باسمك الله باسط الأرض ورافع السماء، يعلم الملك المظفّر قطز الذي هو من

جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتنعّمون بأنعامه، ويقتلون مَن كان بسلطانه بعد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالدّيار المصرية وما حولها مِن الأعمال أنّا نحن جندُ الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلّطنا على مَن حلّ به غضبه، سلّموا إلينا أمركم قبل أنْ ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحنُ لا نرحم مَن بكى، ولا نرفق بمَن شكا، قد سمعتم أنّنا قد فتحنا البلاد وطهّرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظمَ العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب، فأيّ أرض تؤويكم وأيّ طريقٍ تنجيكم، وأيّ بلاد تحميكم، فما مِن سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا خلاص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتلنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فإنّكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عن الكلام، وخُنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلّة والهوان (فاليوم تجزون عذابَ الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحقّ وبما كنتم تفسقون)، (وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون)، فمَن طلب حربنا ندم، ومَن قصد أماننا سلِم، فإنْ أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا، وعليكم ما علينا، وإنْ خالفتم هلكتم، فلا تُهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر مَن أنذر، وقد ثبت عندكم أنّا نحنُ الكفرة، وقد ثبت عندنا أنّكم الفجرة، وقد سلّطنا

عليكم من له الأمورُ المقدّرة والأحكامُ المدبّرة، فكثيرُكم عندنا قليل، وعزيزُكم عندنا ذليل، وبغير المذلّة ما لملوككم علينا سبيل، فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا بردّ الجواب، قبل أن تضرمَ الحربُ نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منّا جاهًا ولا عزًّا ولا كافيًا ولا حرازًا، وتدهون منّا بأعظم داهية، وتصبح بلادُكم منّا خالية، فقد أنصفناكم إذْ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذّرناكم، فما بقي لنا مقصدٌ سواكم، والسّلام علينا وعليكم، وعلى مَن أطاع الهدى، وخشي عواقب الرّدى، وأطاع الملك الأعلى».

فما كان من قطز إلّا أنْ نظر حوله في وجوه الأمراء يستشفّ الحازم فيهم ممّن ينتابه التردّد والقلق، ثمّ نادى في حرّاسه أن يقتلوا الرّسلَ أمام نظرات بعض الأمراء الخائفة، وأمر بالاجتماع بجميع الأمراء وقادة الجيش وحلفوا له بالولاء والجهاد ضدّ المغول رغم كراهتهم لذلك، وتردّد أكثرهم، حتّى صرخ فيهم قطز ليحسمَ تردّدهم هذا قائلًا:

– أنا ألقى التّتار بنفسي، يا أمراءَ المسلمين، لكم زمان تأكلون أموالَ بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجّه، فمَن اختار الجهاد فليصحبني، ومَن لم يختر ذلك يرجعْ إلى بيته، فإنّ الله مطّلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المسلمين.

ثمّ صمت قليلًا ليتأكّد من تأثير كلماته قبل أن يقولَ بصوت حاسم:

– مَن للإسلام إنْ لم نكن نحن؟

وبالفعل، يخرج بيبرس على رأس فرقةٍ متّجهًا إلى غزّة فيقابل

الحامية المغولية هناك، ويهزمهم- وكانت قليلة العدد نسبيًّا- وبعدها يلحق به الجيش الرئيسي بقيادة قطز فيلتقون بجيش المغول في عين جالوت، وينجح المسلمون في محاصرة الجيش المغولي من كلّ جانب، فلا يجد كتبغا أمامَه سوى القتال بضراوةٍ وشجاعة، وتبعه سائرُ جنوده، وتساقط الشّهداء من جيش المسلمين، حتّى خلع قطز خوذته، وأخذ يصيح قائلًا:

- وا إسلاماه، وا إسلاماه، وا إسلاماه.

واستطاعَ جمال الدين آقوش، وهو أحدُ الأمراء المماليك، من قتل كتبغا، وتساقط المغول واحدًا تلو الآخر، حتّى لم يبقَ منهم أحد.

واستكمل قطز فتحَ ثغور الشّام واحدًا تلو الآخر، فأعاد تحريرَ دمشق وحلب وحمص وغيرها من المدن، ثمّ عاد قافلًا إلى مصر بعد أنْ رزقه الله النّصر، على أنّ فرحته بما حقّقه من انتصار لم تدمْ طويلًا، فلم يكد يصل إلى منطقة الصّالحية حتّى اغتاله مجموعةٌ من أمراء المماليك الصّالحية بعد أنْ خاف بيبرس أن يتخلّص منه قطز بعد أنْ طلب منه ولاية حلب فرفض، ومن ناحية أخرى خشيَ قطز أن يفكّر بيبرس في الاستقلال بأيّ مدينة يوليها له، خاصّة وهو يعرف طموحَه وقدراته.

وما أنْ وصل الجيش إلى القاهرة، دخل الأمراء إلى القلعة فتلقّاهم الأمير أقطاي المستعرب الأتابك، وسألهم قائلًا:

- مَن قتله منكم؟

تبادل المماليكُ نظرات زائغة، قبل أن يتقدّم بيبرس، ويقول في تحدٍّ وهو يراهن بحياته على موقفه هذا، وقال:

- أنا قتلته.

فأجابه أقطاي قائلًا:

- يا خوندا، اجلسْ في مرتبة السّلطنة مكانه.

وخرج منادٍ من القلعة يدورُ في أنحاء القلعة مناديًا «أن ترحّموا على السّلطان سيف الدين قطز وادْعوا للسّلطان الظّاهر بيبرس».

ملاحظات:

- مرّ قطز بأزمةٍ اقتصادية لتجهيز الجيش فاستفتى العزّ بن عبد السلام في فرض ضرائب على النّاس فرفض، وأفتى أنْ يتنازل الأمراءُ والجنود عن أملاكهم وذهبهم، ويتساووا بالعامة من النّاس، فإنْ فعلوا واحتاج إلى المال بعدها فليأخذْ من الناس، وانصاع قطز بالفعل لرأيه.

- كالعادة يتمّ تصدير قطز كرمزٍ إسلاميّ لا يمكن أن يناله الخطأ أو النّقد، ولكنّه رغم كلّ شيء وقعَ في العديد من الأخطاء، منها قتل الرسل، وهو أمرٌ مستنكَر تمامًا في الأعراف الدولية في هذا الوقت، وفى الإسلام أيضًا (ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لرسل مسيلمة الكذاب) (أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما) رواه أحمد وأبو داوود وصححه الألباني.

- عقد قطز ما يشبه الهدنة مع الفرنج أنّهم لا ينصرونه ولا ينصرون عليه، ويلتزمون الحياد، وإلّا عاد إليهم وحاربهم، وبالفعل التزموا بذلك. (السلطان سيف الدين قطز - قاسم عبده قاسم ص ١١٤)

- يرى المؤرّخ قاسم عبده قاسم أنّ بيبرس ظنّ أنّه أحقّ بالعرش من قطز، لا سيّما وأنّه صاحب دورٍ كبير في هزيمة الحملة الصليبيّة السابعة بقيادة الملك لويس التاسع قبل عشر سنوات في المنصورة، كما أنّه لعب دورًا كبيرًا في هزيمة المغول في عين جالوت، وأنّه كان أولَ مَن ألحق بهم هزيمة عندما دمّر طليعة الجيش المغولي، ثمّ طارد فلوله المنسحبة حتّى أعالي بلاد الشام. (السلطان سيف الدين قطز - قاسم عبده قاسم ص ١٤٩)

***

الرِّقّ السّادس: دولةُ الدّم

أخرج أبي الرِّقّ وهو يقول:

- لقد كانت دولةُ المماليك يا ولدي هي دولة التّناقضات والدّم، فتكون يد السلطان ملوّثةً بدماء سلفه إلّا أنّه يبني المساجد والمشاهد، ويجاهد في سبيل الله، وأكثرهم يقرّب العلماء ويجلّهم، ورغم عدم استقرار السّلاطين في الحكم إلّا بعض الاستثناءات، فلم يشعر العامّة بهذه الاضطرابات، فهم يستيقظون فيجدون سلطانًا قُتل، وسلطانًا تولّى، دون أن يمسّهم أحدٌ بسوء، إلّا أنّهم أحيانًا يتدخّلون

في عزل السّلطان كما حدث مع بيبرس الجاشنكير، والذي ارتبط توليه بانخفاض منسوب النيل وغلاء الأسعار؛ فاعتبروها سوءَ طالع السّلطان، وتشاءموا به وعزلوه.

- إذًا كيف يمكننا الحكمُ عليها يا أبي؟

ابتسمَ أبي وهو يقول:

- دعِ الحكمَ لصاحب الحُكم يا ولدي، نحن دورُنا أن نقرأ ونفهم ونتعلّم، ثم ندوّن الحقائق كما وصلتنا، أمّا الحكم فنحن لا نستطيع أنْ نحكم؛ لأنّنا لم نرَ، ولم نُحِط علمًا بكلّ ما جرى، إنْ هي إلّا شذرات وإشارات تدلّنا على الطريق، والآن دعك من كلّ هذا، واقرأ عليّ ما كُتب في هذا الرِّق.

- أمرك يا أبي.

بعدما تولَى بيبرس السّلطنة، قام بالعديدِ من الإصلاحات الإدارية في البلاد، وأعاد توزيع الإقطاعات والمناصب، كما وجّه اهتمامَه ناحية التخلّص من بقايا المغول والصليبيين الموجودين في الشام، حتّى استطاع استرجاع إمارة أنطاكية الصليبيّة، وأعاد الخلافة العباسية وجعل مقرّها القاهرة لإضفاء الشرعيّة على حكمه، على أنّها كانت خلافةً صوريّة، اسمية فقط، دون أيّ دور حقيقي، كما بسط نفوذَه على أرض الحجاز ممّا أضفى على حكم بيبرس مهابة وسلطةً دينية من ناحية باعتباره مسئولًا عن الحرمين الشّريفين، وإرسال كسوة الكعبة، ومن ناحيةٍ أخرى أصبحت دولةُ المماليك

تتحكّم في طرق التّجارة العالميّة بين الشرق والغرب، كما أنشأ نظامًا بريديًّا فعّالًا، ومنع الخمور والخواطئ.

وكان من عادةِ المماليك أنّه بعد وفاة السّلطان يولون ابنه مؤقتًا حتّى يستقرّوا فيما بينهم على أكبرهم وأكثرهم نفوذًا وقوة، فيعزل السّلطان الصّغير ويتولّى الحكم وهكذا دواليك، وهو ما فعلوه بعد وفاة بيبرس مع ابنيْه، حتّى تولّى السّلطان المنصور قلاوون، والذي ستستمرّ سلالته في حكم مصر لفترةٍ طويلة، وهو الاستثناء الوحيد في دولة المماليك، وقد استطاع قلاوون ردّ هجمات المغول بقيادة مونتكمر بن هولاكو الذي هاجم الشّام فخرج له قلاوون بجيشه وانتصر عليه انتصارًا عظيمًا، وبعدها استكمل الجهادَ ضدّ الصليبيين فاستردّ إمارة أنطاكية، وعزم بعد ذلك التوجّه إلى عكا إلّا أنّ الأجل لم يمهله، فتوفّي في قلعة الجبل، وتولّى ابنُه الأشرف خليل الذي استردّ عكا ونجح في استئصال شأفة الصليبيّين تمامًا من الشّام، وقُتل الأشرف صلاحُ الدّين خليل بعد أنْ تآمر عليه بعضُ أُمراء المماليك، وترك اثنتين من البنات ولم يعقب ذُكُورًا، وسادتِ الفوضى حيث حاول مدبّرو الاغتيال اعتلاء عرش السّلطنة إلّا أنّهم لم يلبثوا أنْ تمّ اغتيالهم، وهكذا، حتّى تولّى أحدُ المماليك من أصل مغولي، ويدْعى كتبغا، واستقدم خمسة آلاف من بني جنسه، وكانوا من الوثنيّين، فثار عليه النّاس، خاصّة وأنّه تزامن ذلك بانخفاض منسوب النيل، ثمّ تولّى السّلطان لاجين، ولم يلبثْ أنْ قُتل هو الآخر ، وأخيرًا تولّى السلطان محمد بن قلاوون، والذي سيتمّ عزله

وتوليته ثلاثَ مرّات؛ طبقًا لأهواء الأمراء وتوازنات القوى بينهم، على أنّه في المرّة الأخيرة سيحكم قبضته على الدّولة، ويستمرّ في السلطنة حتّى يتوفّى، وسيحكم أبناؤه وأحفاده من بعده أربعين عامًا، وكان آخرهم السّلطان حاجي، والذي يمثّل سقوط دولة المماليك البحرية، وبزوغ دولة المماليك البرجية أو الجراكسة.

***

توقّفتُ عن القراءة، وسألت أبي قائلًا:

– ولماذا تمّ تقسيم هذه الدّولة إلى قسمين؟ وبمَ تميّز هؤلاء المماليك الجراكسة؟

لمعتْ عينا أبي إعجابًا بسؤالي، وهو يجيبني باهتمام قائلًا:

– تختلف دولة المماليك البُرجيَّة– أو الشراكسة (الجراكسة)– عن الأولى، أو البحريَّة، في عدَّة نواحٍ؛ أوَّلها أنَّ سلاطين الدولة البُرجيَّة كانوا جميعًا شراكسة العِرق، ما عدا اثنين يرجعان إلى أصلٍ روميٍّ هُما خُشقُدم وتمربُغا. هذا إلى أنَّ مبدأ الحُكم الوراثي الذي حاول بعض سلاطين المماليك البحريَّة تطبيقه في عنادٍ وإصرارٍ، والذي نجح بِوضوحٍ في عصر بيت قلاوون، هذا المبدأ لا يُوجد له أثرٌ في عصر دولة المماليك الشراكسة. والواقع أنَّ سلاطين دولة المماليك الثّانية كانوا زُعماء أو أُمراء كبار أكثرَ منهم سلاطين. وكان نجاحُ السّلطان في مُهمَّته يتوقَّف على مدى توفيقه في توجيهِ كبار الأُمراء، وضرب طوائف المماليك ببعضها البعض.

تناول أبي جرعةً من الماء قبل أن يكمل:

- وقد استمرّت هذه الدّولة ما يقارب مائة وأربعة وثلاثين سنة، تعاقب على عرش السلطنة خلالها ثلاثة وعُشرون سُلطانًا، ومِن هؤلاء السّلاطين تسعةٌ حكموا مائة وثلاث سنوات، في حين حكم الأربعة عشر سُلطانًا الباقون تسعَ سنوات فقط، ولا شكَّ في أنَّ البلاد قاست كثيرًا في عهدِ المماليك الشّراكسة من جرَّاء المُنازعات المُستمرَّة بين طوائف المماليك، وما كان ينجم عن تلك المُنازعات من حوادثَ وقتال في الشّوارع، ممَّا أوجد جوًّا من القلق وعدم الاستقرار في القاهرة بِوجهٍ خاص. وزاد من شدَّة البلاء أنَّ السلاطين عجزوا في ذلك العصر عن كبح جماح مماليكهم، ممَّا جعلهم لا يجدون وسيلةً لِلاحتفاظ بِمراكزهم سوى ضربِ طوائف بعضها ببعض، وبِذلك يخلو الجوّ لِلسّلطان ومماليكه، فيَعيثون في الأرض فسادًا، على أنَّه يُلاحظ أنَّ سلاطين الدّولة الشركسيَّة عملوا دائمًا على حصر تلك المُنازعات داخل دائرة داخليَّة بحتة، بحيث لم يُمكّنوا قُوَّة خارجيَّة من التدخُّل في شئون البلاد أو الانتقاص من سيادتها.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- لقد استطاعَ هؤلاء السّلاطين، رغم الاضطرابات، من توسيع رقعة ملكهم، والسّيطرة على البحرين الأحمر والمتوسط وطرق التّجارة العالمية، على أنّها كانت تشبه صحوة الموت لهذا الخيط الطويل من الدّم، فقد نشأت بالجوار دولة قوية أسّسها قبائل

تركية الأصل، وسيكون لها شأنٌ هامّ بعد ذلك، ولكن هذه قصّة أخرى، دعنا نعود إلى الدّار الآن، وغدًا نستكمل.

ملاحظات:

- أنشأ قلاوون مجموعتَه الشّهيرة بشارع المعز، والتي تحتوي على مسجد ومدرسة والبيمارستان أو ما يشبه المشفى العام، وكان الطبّ متقدّمًا للغاية في الشّرق الإسلامي عنه في الغرب الأوروبي.

- تكرّرت هجماتُ المغول على الدّولة المملوكية على أنّه كان أعنفها هجمةَ تيمورلنك الذي استطاع هزيمة الجيش المملوكي، وفرض شروطه عليه، إلّا أنّ تيمور لنك توفّي قبل عقد الاتّفاقية، فنجت دولة المماليك من هذا المصير.

- ظهرت قوّةٌ جديدة على السّاحة العالمية هي قوّةُ الدولة العثمانية، والتي ستغيّر وجه المنطقة بالكامل.

الرِّقّ السّابع: وراءَ أعالي البحار

- لماذا يبدو هذا الرّقّ مختلفًا يا أبي!؟

- لأنّه بالفعل مختلفٌ يا ولدي، إنّه يحكي لنا قصة دارت أحداثُها بعيدًا عن مصر وعن المماليك، ورغم هذا كانت تأثيرُها مدوّيًا.

- بعيدًا!!؟ وتأثيرها مدوّيًا!، لقد أثرتَ فضولي يا أبي لمعرفة فحواها.

- حسنًا، ماذا تنتظر؟ ابدأ بالقراءة.

وبدأتُ أقرأ ما حدث، وراء أعالي البحار..

بسم الله الرحمن الرحيم «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ....» فسبحان مَن جعل من آياته إبحار السّفن، اسمي أحمد بن ماجد، أكتب الآن وأنا أوشك على ملاقاة ربي مُستغفرًا إيّاه على ما اقترفتُ دون علمٍ منّي، أو سوء قصد، لعلّي بكتابي هذا أهتدي إلى الصّواب، أو أهدي إليه مَن جاء بعدي، وما يعلم الغيب إلّا الله.

الرياحُ مازالت مواتية، والأمور كلّها منضبطة، بينما يمدّني الإسطرلاب بكلّ ما أحتاجه من معلومات حول الرّياح وقوتها واتجاهاتها ومواقع القمر والنجوم، هذه إحدى رحلاتي إلى الهند وقد استلقى بعضُ البحّارة على سطح السّفينة بتكاسلٍ يهربون من قيظ الشّمس التي لفحت جلودهم، ودبغت بشرتهم بالسّمار، فصاروا أقربَ إلى لون أهل الهند، قطع أفكاري صوتُ المراقب ينادي من فوق أعلى الصّاري صائحًا:

– سيّدي الربّان، ثمَّة سفن صليبيّة على مرمى البصر.

انتابني بعض القلق، إلّا أنّني كنت معتادًا على لقاء مئات السفن من كافّة أنحاء المعمورة، والكلّ يبحرُ في سلام، أعطيت توجيهاتي لصاحب الدفّة ليتّجه بنا نحوهم، فربّما كانت تواجههم بعض الصّعوبات فيُعيننا الله على إغاثة الملهوف، وقفتُ بالقرب من سور السّفينة أراقب اقتراب السّفن الصليبية وقد رفرفت فوقها راياتُها التي أعادت لي ذكرى مؤلمة بسقوط دولة الإسلام في الأندلس، وتسميتها بالبرتغال.

جذبني بحّارة السفينة الرئيسية للأسطول حيث استقبلني ربّانها، والذي عرفتُ أنّه يدعى فاسكو دي جاما، رحّب بي بشدّة، وعيناه تتطلّعان إلى عباءتي بنهَمٍ مريب، لم أرتحْ له كثيرًا إلّا أنّني قلتُ لنفسي إنّ بعض الظّن إثم، خاصّة والرجل يعاملني بكلّ حفاوة وكرم، وتبادلنا بعض الأحاديث قبل أن يحكي لي سببَ مجيئه إلى هذه المنطقة من العالم قائلًا:

– سيّدي الربّان المحترم، أنا مكلّف من قِبَل مولاي ملك البرتغال باستكشاف يوصّل من البرتغال إلى الهند، على أنّني تنقصني الكثيرُ من المعلومات والخرائط التي لن أستطيع بدونها استكمال الطريق إلى هناك.

أجبتُه ببساطة وقلت:

– الأمرُ بسيط يا سيدي، فهذا الطّريق معروف لي ولعائلتي منذ سنوات طوال، إلّا أنّه لا حاجة لنا بالمرور فيه إلّا فيما ندر حيث أنّ الانتقال عبر أراضي المسلمين أيسر.

التمعتْ عيناه بشدّة وقال:

– إذًا هل لك في أن تدلّني عليه سيدي، وأكون مدينًا لك بحياتي؟

– بكلّ سرور يا صديقي.

وهكذا أمضيتُ معه بقيّة النهار أزوّده بما يحتاج إليه من علم، فقد حُفر في وجداني منذ الصّغر أنّ زكاة العلم تعليمُه، ولذلك لم أبخلْ عليه بما لديّ من علم، دون أن أستبصر نيّته في ذلك، فالله وحده الأعلمُ بالنوايا وسرائر النفوس، وافترقنا في نهاية اليوم، وعدت إلى

سفينتي واستكملت رحلتي دون أن أفكّر في شيء، وكان من عادتنا أنْ نقف في كلّ ميناء بطول السّاحل ليفرغ التّجار من تجارتهم، على أنّني ما أنْ وصلت أخيرًا إلى كلكتا بالهند حتّى هالني ما رأيت.

الخراب يعمّ كلّ شيء، المدينة تمّ قصفها، بينما النّساء والأطفال يشاهدون بيوتهم المحترقة في حزن، وبسؤالهم عمّا حدث أخبروني ما أصاب قلبي في مقتل، فذلك الوغد فاسكو دي جاما قد جاء إلى هنا قبلي مباشرة، واستطاع مقابلة سلطان البلاد إلّا أنّه لم يحمل معه ما يليق بالسّلطان، فارتاب النّاس في أمره، ولكنّه بادر بالفرار وقصف المدينة بمدافع سفنه القوية.

انتابني الكآبة، وفقدت الرّغبة في كلّ شيء، بينما تنامى إلى مسامعي أخبارٌ عن أعمال القرصنة التي يقوم بها دي جاما في المحيط، وفرضه «الإتاوات» على السفن، حتّى أنّه أحرق سفينة تحمل حجّاج بيت الله الحرام بعد أنْ نهبها، أيّ شيطانٍ هذا الذي ساعدتُه للوصول إلى الهند، أشعرُ بغصّة مريرةٍ في حلقي، وأخشى أن أكون السّبب في هلاك كلّ هؤلاء، أدعو أن يغفر الله لي، وليتك أيّها الغريب تدعو لي، لعلّ الله أن يرحمني ويغفر لي زلتي.

***

انتهيتُ من قراءة الرِّقّ إلّا أنّ أبي ناولني رقًّا أصغر منه حجمًا، وقد بدا لي أنّه مرتبط بشكل أو بآخر بقصّة ابن ماجد، فتناولتها منه وعدتُ أقرأ..

انحنى فاسكو دي جاما في حضرة ملك البرتغال، وهو يكاد يطير فرحًا ويقول:

- المجدُ لمولاي هنري الملّاح ملك البرتغال، وحامي الصليب المقدس.

تهلّلت أساريرُ الملك وهو يقول:

- مرحى يا دي جاما، لقد فعلتها أخيرًا.

ابتسم دي جاما بدبلوماسية وقال:

- كلّ ما أحرزناه من انتصارات كان بفضل دعْمِكم يا مولاي.

- أحسنت يا دي جاما، منذ اليوم ستحصلُ على لقب كونت، وسيخصّص لك العديد من الإقطاعات.

انتشى دي جاما بهذه الأخبار، وأجاب قائلًا:

- كلّ الشّكر لك يا مولاي، لقد صارَ بإمكاننا الإبحارَ حول رأس العواصف في أيّ وقت تراه ونفرض سيطرتنا العسكرية على هذا الطريق الهام.

شخصتْ عينا الملك بعيدًا، وهو يقول بصوت حالم:

- لم يعدْ رأس العواصف بعد الآن يا دي جاما، إنّه رأس الرّجاء، رأس الرّجاء الصالح.

❊❊❊

أغلقتُ الرِّقّ وقد شعرتُ بالصّداع من جرّاء كلّ هذه الأحداث المتداخلة، فما علاقة رأس الرجاء الصّالح ومستكشف برتغالي وبحّار عربي بدولة المماليك وغيرها، لم أتمالك نفسي فتوجّهت لأبي بالسؤال قائلًا:

- لم أفهمْ يا أبي ما الرّابط بين كلّ هذه الأحداث؟

أجابني أبي بهدوء قائلًا:

- غدًا سنعرف كلّ شيء يا ولدي، أمّا الآن فيجب علينا العودةُ للبيت، فجسدُ أبيك لم يعد يحتمل طولَ الجلوس بهذا الشّكل، وأشعر أنّ عظامي كلّها ستتكسر.

انتابني الإحباطُ قليلًا، وأجيب قائلًا:

- حسنًا يا أبي كما ترى.

ملاحظات:

- يعتبر ابنُ ماجد من أهمّ البحّارة في ذلك الوقت، وهو الذي وضع أسسَ الملاحة الحديثة، كما طوّر العديد من الأدوات المستخدَمة في الملاحة والإبحار، وألّف العديد من الكتب.

- كان اكتشافُ طريق رأس الرجاء الصالح هو بداية بروز البرتغال وإسبانيا كقوى عظمى على السّاحة العالمية بجوار الدولة العثمانية.

- كانت الهند وغيرُها من البلاد والجزرِ الواقعة في تلك المنطقة في ذلك الوقت تحت حكم المسلمين، وقد انتشر الإسلام بين أهلها عن طريق التّجار المسلمين الذين كوّنوا جاليات إسلامية في هذه المناطق واختلطوا بأهلها، بل تزاوجوا منهم، لتقوية العلاقات والروابط الاقتصادية بينهم، كما أنّ الثقافة العربية والإسلامية كانت تشبه الثقافة العالمية.

الرّقّ الثّامن: وسقطتْ دولةُ المماليك

لم أستطعْ أن أكبحَ جماح نفسي لمعرفة الرّابط بين كلّ هذه الأحداث، فما أنْ أصبح الصباح، حتّى توجّهت إلى الجهة القبليّة من الدار، بينما أبي يستند على كتفي، وقد بلغ منه الوهن والكبر مبلغَه، ولكنّه أصرّ على المجيء معي، لنقرأ معًا ، حيث سقطت دولة المماليك، تناولت الرِّقَّ وأخذت أقرأ..

كان المماليكُ يتحكمون في حركة التّجارة العالمية وطرقها، لذا فقد كان اكتشافُ طريقٍ لا يمرّ بطرق التّجارة التقليدية بمثابة كارثةٍ حلّت على اقتصاد دولة المماليك، لذا لم يقفِ المماليك مكتوفي الأيدي أمام عبثِ البرتغاليّين في المحيط الهندي، فأرسل لهم السّلطان قنصوة الغوري أسطولًا هزمهم شرَّ هزيمة في معركة شول بالهند، إلّا أنّ هذا النصر لم يدمْ طويلًا إذْ سرعان ما جمعَ البرتغاليون شتاتهم، وأعادوا مهاجمة الأسطول المملوكي، وقضوا عليهم تمامًا في معركة ديو، وفي الوقت ذاته لم يغفلْ عن الخطر الشّمالي الزاحف نحوه، والمتمثّل في السلطان العثماني سليم الأوّل الطّامع في الاستيلاء على مصر، خاصّة بعد توتّر العلاقة بينه وبين قنصوة الغوري إثرَ تحالفه مع الدّولة الصّفوية ضدّ سليم الأوّل، الذي اعتبر ما حدث بمثابة إعلان الحرب، فتوجّه ناحية الشّام ممّا اضطرّ قنصوة الغوري للخروج له، ومواجهته في معركة مرج دابق، إلّا أنّه بسبب خيانة بعض أمراء المماليك الذين تخلّوا عنه؛ انهزم الجيش المملوكي وسقطَ

الغوري شهيدًا مضرجًا بدمائه، ورغم أنّ دولة المماليك كانت دولة محاربة إلّا أن الغوري كان هو السّلطان الوحيد الذي استشهد في إحدى المعارك، وتولّى بعده الأشرف طومان باي.

جمعَ طومان باي من الجند المماليك والأهالي، وأراد الخروج لقتال العثمانيّين، ولكنّه واجه تخاذلَ المماليك، واستهانتهم بخطورة الموقف، وخلال تلك الفترة أرسل السّلطان سليم رسالة إليه يعرضُ عليه تبعيّته للسّلطنة مقابل إبقائه حاكمًا لمصر، غير أنّه رفض العرض، وخرج طومان باي إلى الرّيدانية وتحصّن بها، وحفر خندقًا على طول الخطوط الأماميّة، لكن عندما علم العثمانيّون بخطّة المماليك تحاشوا عنهم، واتّجهوا صوب القاهرة فتبعهم طومان باي والتحموا بمعركةٍ هائلة قتل فيها سنان باشا الصدر الأعظم بيده ظنًّا بأنّه السّلطان، لكن بسبب كثرة العثمانيّين وقوّتهم لم يتمكّن المماليك من وقْف زحفهم، وهرب العسكرُ الذين حول طومان باي فخاف أن يقبض عليه العثمانيّون؛ فهرب واختفى.

هرب طومان باي إلى القاهرة، وتخفّى بها حتّى أنّ سليم الأوّل خشيَ أنْ يدخل القاهرة مباشرة، ودخلها بعد ثلاثة أيام، ولكنّه سرعان ما واجه مخاوفه إذْ قاد طومان باي حربًا أشبه بحروب الشّوارع، وسقط الكثيرُ من العثمانيّين والمماليك، وقد انضمّ الأهالي وحتّى النساء إلى طومان باي، واستمرّ القتال ثلاثة أيام حتّى ظنّ الناس أن النّصر آتٍ بلا شك، إلّا أنّ سليم لجأ أخيرًا إلى قوّة البنادق

والبارود، وهو ما لم يكنْ متاحًا لدى طومان باي ومَن معه فانسحبوا.

رغمَ ذلك إلّا أنّ طومان باي لم يستسلم، وراح ينظّم الصّفوف، وصار هناك الكرّ والفرّ لكلا الطّرفين، حتّى كاد يقتل السّلطان نفسه بإحدى الغارات في بولاق، مع ذلك فالمعركةُ من حيّ إلى آخر حتّى المعركة الأخيرة بمنطقة وردان (إمبابة حاليًا) حيث انكسرتْ شجاعة المقاومة أمام القوّة الهائلة والعتاد الضّخم، فهرب طومان باي ولجأ إلى الشّيخ حسن بن مرعي الذي أخرجه من السّجن كان قد دخله أيّام عمّه السلطان غوري، ولكنّ الشيخ وشى به، وأبلغ عنه السلطان سليم فقبض عليه..

وقف طومان باي مكبّلًا في حضرة السّلطان سليم الأوّل في قلعة الجبل حيث مقرّ الحكم، وقد بدا طومان باي مشدود القامة، شامخًا معتزًّا بنفسه، دون أنْ يبدو على موقفه ما يبرّر مثل هذه العزّة، وقد تهدّلت ملابسه واتّسخت جرّاء المعارك التي خاضها، ثم توجّه ناحية سليم وقال بقوّة:

- لا تفرح بانتصارِكَ هكذا، فأنتَ لم تنتصر على المماليك بشجاعتِك أو شجاعة جنودك، بل بالخيانة وبالبنادق.

حافظَ سليم على هدوئه، وهو يجيبه قائلًا:

- الحقيقة أنّني مُعجَب جدًّا بشجاعتك يا طومان باي، ولكنّني أودّ أن أسألك سؤالًا، لماذا لم تقم بالتزوّد بهذه الأسلحة وأنتَ على رأس هذه الدّولة الكبيرة؟ فقد قال الله- عزّ وجلّ- في مُحكم تنزيله

«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ»

احتقنَ وجهُ طومان باي بالدّماء ولم يجدْ إجابة لسؤال سليم الملتوي، ففضّل أن يلوذ بالصمت مشيحًا بوجهه، فأمرَ سليم بإعادته للسّجن حتّى ينظر في أمره، وما أنْ خرج به الجنود حتّى أقبل خاير بك وجماعةٌ ممّن خانوا طومان باي، والتحقوا بخدمة سليم الأوّل، قبّلوا الأرض بين يديه، ثمّ تقدّم خاير بك وقال:

- سيّدي السّلطان سليم الأوّل، أرجو أن يتّسع لي صدركم بالسؤال.

فأشارَ إليه سليم بلا اكتراث، فأكمل خاير بك قائلًا:

- ماذا ينوي جلالتكم أنْ يفعل بطومان باي؟

أجابه سليم الأول قائلًا:

- الحقّ أنّني معجَبٌ بشجاعته أيّما إعجاب، وأفكّر جديًّا أن أطلقه.

ارتاعَ خاير بك ومَن معه عند سماعهم الخبر، فكيف يأمنون على أنفسهم من طومان باي بعد أنْ خانوه والتحقوا بخدمة عدوّه، فسارعوا إلى سليم يحرّضونه على قتل طومان باي، ويزيّنون له إعدامَه، ويخوّفونه من خطره، حتّى اقتنعَ بكلامهم بالفعل، وأمرَ بشنق طومان باي، السّلطان المملوكي الأخير.

عند باب زويلة توقّف ركبُ السّلطان الأسير طومان باي.. كان في حراسة أربعمائة جنديّ من الانكشارية، وكان مكبّلًا فوق فرسه،

وكان النّاسُ في القاهرة قد خرجوا ليلقوا نظرةَ الوداع على سلطان مصر، وتطلّع طومان باي إلى (قبْو البوّابة)، فرأى حبلًا يتدلى، فأدرك أنّ نهايته قد حانت، فترجّل.. وتقدّم نحو الباب بخطًى ثابتة، ثمّ توقّف وتلفّت إلى الناس الذين احتشدوا من حول باب زويلة، وتطلّع إليهم طويلًا.. وطلب من الجميع أنْ يقرؤوا له الفاتحة ثلاثَ مرّات، ثمّ التفتَ إلى الجلّاد، وطلب منه أن يقوم بمهمّته.

وقد ظلّت جثّته معلقةً ثلاثة أيام، ثمّ دفنت في قبّة السّلطان الغوري، وبموته انتهت دولة المماليك، وسقطت الخلافةُ العباسيّة، واستتبّ الأمرُ للسّلطان سليم بمصر والشّام، وأصبحت مصر ولايةً عثمانية.

ملاحظات:

- كان طومان باي محبوبًا من المصريّين والأهالي بشدّة لتقواه وورعِه وتخفيفه عنهم، كما أنّه كان قائدًا بارعًا، وكان من المُمكن أن يظلّ حجرَ عثرة طويلًا أمام طموحات سليم الأوّل لولا الخيانة.

- لم ينتهِ دورُ المماليك عند هذا الحدّ، بل أمامهم أدوارٌ هامّة جدًّا ليلعبوها في تاريخ مصر.

- تولّى خاير بك ولاية مصر، فأصبح هو أوّلَ والٍ عثمانيّ لمصر، وقد أطلق عليه المصريون خاين بك نظرًا لخيانته للسّلطان طومان باي.

***

الرّقّ التّاسع: قرّة عثمان.. عثمان الأسود

تسلّلت أشعّة الشّمس من الأفق تتلمّس وجهَ ذلك الفارس المعتلي صهوةَ جواده فوق تلك الرّبوة العالية المشرفة على السّهول التابعة لقبيلته التي يتزعّمها، ملأ الفارس رئتيْه بنسيم الصباح وعيناه تتطلّعان نحو الأفق، بينما قلبُه يحدّثه أنّه يومًا ما سيصبح ملكًا على مملكة عظيمة، مملكة آل عثمان، وكان على حقّ.

انضمّ عثمان بقبيلته لدولة سلاجقةِ الرّوم في صراعها مع الخوارزميّين، وحقّق مع قبيلته انتصاراتٍ رائعة ممّا دفع الملك السلجوقي أنْ ينعم عليه ببعض الإقطاعات الحدودية، وسرعان ما حاول عثمان توسيعَ رقعة ملكه على حساب الدّولة البيزنطية، حتّى استطاع فتح قلعة قره حصار، كما عقد تحالفاتٍ مع الإمارات التّركمانية من حوله، الذين سيسارعون بالالتفاف حوله لاحقًا؛ نظرًا لقدراته السياسيّة والعسكرية، أمّا من الناحية الإدارية، فقد أظهر عثمان مقدرة فائقةً في وضع النّظم الإداريّة لإمارته، بحيث قطع العثمانيّون في عهده شوطًا كبيرًا على طريق التحوّل من نظام القبيلة المتنقّلة إلى نظام الإدارة المستقرّة، ما ساعدها على توطيد مركزها وتطوّرها سريعًا إلى دولةٍ كبرى، وقد أبدى السّلطان السّلجوقي

علاء الدين تقديره العميق لخدمات عثمان، فمنحه لقب «عثمان غازي، حارس الحدود العالي الجاه، عثمان باشا».

الاضطراباتُ تسود دولة السلاجقة، خاصّة مع قدوم الهجمة المغوليّة الشرسة، فانتهز عثمان الفرصةَ ليعلن نفسه حاكمًا مستقلًّا، ويدْعى له في الخطبة، وتسكّ العملات باسمه، وبعد وفاة عثمان سار ابنُه أورخان وحفيدُه مراد الأوّل على نهجه فأكملوا فتوحاته على حساب الدولة البيزنطية، واهتمّوا بالتّنظيم الإداري لدولتهم.

استمرّت الفتوحات بعد ذلك في عهد بايزيد بن مراد، وعند ذلك كانت الدولة قد اتّسعت حدودها بشكل كبير، فانصرف إلى تدعيمها بكلّ ما يملك من وسائل، وانتزع من البيزنطيّين مدينة آلاشهر، وكانت آخرَ ممتلكاتهم في آسيا الصغرى، كما حاصر بايزيد القسطنطينية مرّتين متواليتين، ولكنّ حصونها المنيعة صمدتْ في وجه هجماته العنيفة، على أنّه لم يغفل عن ذلك الخطر القادم من الشّرق المتمثّل في المغول بقيادة تيمور لنك، والذي أعاد لأذهان العالم ذكرى جنكيز خان، وبالفعل التقى الجيشان المغولي والعثماني، إلّا أنّ العثمانيّين انهزموا بعد معركة طاحنة، ووقع بايزيد في الأسْر، وتوفّي فيه.

وبموت بايزيد مرّت الدولةُ العثمانية بأزمةٍ كبيرة حيث انفصلت عنها الكثيرُ من البلدان التي ضمّتها، كما تصارع أبناءُ بايزيد على الحكم، وقامت الحروبُ بينهم، ولكنْ أخيرًا استطاع محمد الأوّل بن بايزيد أن يتولّى الحكم، وحاول استعادة بعض ما فقدته الدّولة

العثمانية، مما أثار انتباهَ دول أوروبا للخطر العثماني من جديد، وبثّ الرّوح الصليبية فيهم وإعلانهم الحرب الدّينية المقدسة.

لم تدمْ فترة الخمول طويلًا حتّى تولّى الحكم محمد الفاتح، والذي يعتبر خامس السلاطين العثمانيّين، واستطاع العبورَ بالدّولة العثمانية من أزماتها، ثم توّج جهوده بفتح القسطنطينية واتّخذها عاصمةً له، وأطلق عليها إسلامبول، كما اتّخذ لنفسه لقبًا جديدًا هو قيصر الروم، وقد ازدانتِ القاهرة آنذاك، وعمّها الفرح والسّرور؛ حيث اعتبر المماليك والمصريّون أنّ هذا نصر للإسلام والمسلمين، خاصّة وأنّ العلاقات بين الدولة المملوكية والعثمانية كانت قوية ومتينة للغاية.

بعد موت السّلطان محمد الفاتح تنازع ابناه «جم» و»بايزيد» على العرش، ولكنّ الغلبة كانت من نصيب بايزيد، ففرّ جم إلى مصر، حيث احتمى بسلطان المماليك «قايتباي»، وفي أواخر عهد بايزيد دبّ النّزاع بين أولاده بسببٍ من ولاية العهد. ذلك أنّ بايزيد اختار ابنه أحمد لخلافته، فغضب ابنُه الآخر سليم، وأعلن الثّورة على والده، وكان النصر حليفه في نهاية المطاف حيث كان الإنكشارية يميلونَ إليه ويقدّرونه، فتخلّص سليم من كلّ إخوته حتّى استتبّ له الأمر، وتوجّه نحو الفتوحات والغزو.

وبالفعل، يخرج سليم على رأس جيوشه، فيقضي على الدولة الصّفوية، ويهرب الشاه إسماعيل ناجيًا بحياته، ثمّ يلتفت بعدها سليم نحو دولة المماليك، القوّة الوحيدة الباقية في الشرق، فيتوجّه نحو

الشّام، ويراسل نائبَ دمشق أن يجمع جيوشه وينضمّ إليه، وبالفعل يذعن نائب دمشق لأوامر سليم، إلّا أنّ السّلطان المملوكي قنصوة الغوري يخرج لملاقاته في مرج دابق فيُهزم الجيشُ المملوكي، ويسقط الغوري شهيدًا في ساحة القتال، وأخيرًا أصبح الطريق إلى مصر خاليًا، فينتصر سليم على بقايا الجيش المملوكي، ويقبض على طومان باي ويشنقه على باب زويلة، ويعيّن خاير بك نائبًا عنه في حكم مصر التي أصبحت ولاية عثمانية، كما تنازل في الوقت ذاته آخر الخلفاء العباسيّين «محمد الثّالث المتوكل على الله» عن الخلافة لسلطان آل عثمان، فأصبح كلّ سلطان منذُ ذلك التاريخ خليفةً للمسلمين، ويحمل لقب «أمير المؤمنين» و»خليفة رسول ربّ العالمين».

ملاحظات:

- سادَ في الدولة العثمانية تقليدٌ يقوم فيها السّلطان العثماني بقتل إخوته حتّى يستتبّ له الحكم، وقد أخرج مشايخ السّلطان فتوى تستندُ على الآية الكريمة «الفتنة أشدّ من القتل»، وبالتّالي فإنّ فتنة الصّراع على الحكم وما يعقبها من ضعفٍ للدّولة أشدّ مِن قتل بعض الأفراد، وبالطبع هو منطق مختلّ ومسوغ غير مبرّر لإزهاق الأرواح (تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد بك - ص ٨٢) / سلاطين الدولة العثمانية - صالح كولن - ص ٢٤)

- تمّ اكتشاف قبر الصّحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري عند فتح القسطنطينية، والتي حاول معاوية بن أبي سفيان فتحها من قبل.

- يعتبر تنازلُ محمّد الثالث المتوكل على الله عن الخلافة لسليم الأوّل تنازلًا غير شرعيّ، ولا يصبح بموجبه خليفة، إذْ إنّ للخلافة شروطًا كان منها أن ينتسب الخليفة إلى قريش، وحتّى مع تحْييد هذا الشّرط وعدم التمسّك به يبقى أنّ الأصل في الحكم في الإسلام هو الشّورى، وهو ما لم يتمّ العمل به منذ تولّى معاوية بن أبي سفيان وتحوّلت الخلافة إلى ملك عضود، هذا بالإضافة إلى أنّ الخليفة لم يعدْ له أيّ سلطة على الإطلاق، وبالتّالي لا معنى لتنازله عن الخلافة سوى تنازله عن الاسم والمعنى الرّوحي له فقط.

- قامت الدّولة العثمانية أصلًا كدولةٍ ومملكة وليست كخلافة، وقد ظلّ كافّة حكّامها يتلقّبون بأسماء الحكم الملكيّة المعروفة لديهم مثل السّلطان والغازي والخان، ولم يكن مِن ضمنها لقب الخليفة حتّى جاء سليم الأوّل وتلقّب به.

- لم يتمّ استخدام أو تداول أو التّعامل بلقب الخليفة إلّا في مرّات معدودة للغاية في طوال التاريخ العثماني، والذي استمرّ قرابة ستّة قرون، ولم يتمّ تداوله والتعامل به إلّا من أجل التّأثير على المسلمين والسّيطرة على الثّورات الانفصالية والقومية للعرب والمسلمين، بالإضافة إلى الضّغط على أوروبا حين تحاول التدخّل في شئون الولايات العثمانية بدعوى حماية الأقليات الأجنبيّة، فحينها يلجأ السّلطان العثماني للقب الخليفة باعتباره أمير المؤمنين المسئول الرّوحي عن كافّة الرّعايا المسلمين في العالم.

لمْ يكنْ فتح مصر صعبًا مقارنةً بالحفاظ عليها ضمنَ رقعة الدولة، حيث أنّ موقع مصر البعيد نسبيًّا عن إسلامبول- عاصمة السلطنة العثمانية- بالإضافة إلى مواردها الوفيرة، تجعل أيّ حاكمٍ يتولّى إدارتها يفكّر في الاستقلال بها عن الدّولة، وهو ما فطن له السّلاطين العثمانيّون فجعلوا مدّةَ حكم الوالي تتراوح بين السّنة والثّلاث سنوات على أقصى تقدير، ويستمدّ الوالي قوّته ونفوذه من القوّة الدولة العثمانية ونفوذها التي رغم قوّتها لم تستطع القضاء تمامًا على المماليك، بل جعلتهم شركاء في الحكم من خلال منصب شيخ البلد ويشغله أكثر المماليك قوة ونفوذًا، وهكذا صار الحكمُ الاسميّ للدولة العثمانية، ولكنّ الحكم الفعلي والإداري بيد المماليك، الذين ظلّ نفوذهم شاحبًا مادامت الدّولة العثمانية قويّة، ولكنّها سرعان ما تراخت قبضتها حول مصر؛ فازداد نفوذُ المماليك حتّى صار الوالي العثماني ألعوبة بأيديهم.

وقف البك المملوكي في شرفة القصر الذي خصّصه له صديقه «ظاهر العمر» والي عكا، بعد اضطراره للفرار من مصر مستعيدًا ذكريات بعيدةً للغاية، ذكريات حول وطنه الذي لم يعدْ يذكره بدقّة، وإنْ مازالت أجراس الكنيسة في بلدته تدوّي في أذنيه، والده يصطحبه إليها في أيام الآحاد، قبل أن يختطفوه وهو في سنّ الثالثة عشرة، ويبيعوه في السوق، ويشتريه أستاذه إبراهيم كتخدا ليصيرَ

من زمرة مماليكه في مصر، وبدأت معه رحلةُ التّعليم والتدريب التي يمرّ كافّة بها المماليك.

- مملوك علي.

هكذا صاح سيّده إبراهيم كتخدا، وهو يشاهده في ساحة التّدريب، فهُرِع إليه في التوّ محنيًا رأسَه في خضوع وأدب قائلًا:

- مولاي.

- أنا فخورٌ بك للغاية، لقد تفوّقت على أقرانك في ركوب الخيل، والضّرب بالسيف والطعن بالرّمح، بل وحتّى استخدام الأسلحة النارية.

- أنا رهنُ إشارتك يا مولاي.

- خذْ يا علي، هذا صكّ عتقك، منذ اليوم أنت حرّ، وستلتحق بخدمتي حيث أوكل لك بعض المهام.

التمعتْ عينا علي بفرح، وهو ينظر لسيّده بامتنان، الذي أوكل إليه بالفعل بعض المهامّ أثبت فيها علي كفاءته، وتدرّج في المناصب حتّى خلف سيّده في منصب شيخ البلد بعد وفاته، لكنّه لم ينجحْ في الاحتفاظ بمنصبه، وأجبره خصومُه على الفرار من القاهرة إلى الصّعيد تارة، وإلى الحجاز تارة، وإلى الشّام تارة أخرى.

على أنّ ذلك لم يثنه عن التطلّع إلى منصب شيخ البلد مرّة ثانية، فلم يقعد به اليأس عن العمل أو يشلّه عن التفكير، حتّى استطاع العودةَ إلى منصبه، وهو أعظم قوّة وأكثر عددًا، ولمّا استتبّ له الأمر

التفتَ إلى مَن بقي من خصومه، فصادر أموالهم وقتلَ بعضهم أو نفاهم، حتّى خلا له الجوّ، وبسط سيطرته على البلاد، ولم يسلمْ من هذه الإجراءات مَن قدّموا له العون والمساعدة فبطشَ ببعضهم، ونفاهم إلى خارج البلاد.

وحده خطر ذلك الصّعيدي العنيد شيخ العرب همّام هو الذي ظلّ صامدًا أمامه طوال ست سنوات كاملة، فقد قام همّام بجمع شمل قبيلته هوّارة وحلفاءها حوله، بل واستطاع ضمّ بعض القبائل العربيّة الأخرى إلى حلفه، وأنشأ منهم جيشًا قويًّا استعان فيه بالمماليك الفارّين من شيخ البلد علي بك، بل لقد انهزم جيشُه أمام جيش همام عدّة هوّارة حتّى كاد يجنّ بعد أن أعلن شيخ العرب همّام انفصالَ الصعيد عن الدولة تمامًا، وكوّن ما يشبه الدّولة في جنوب مصر، ورتّب لها الدّواوين ومنع الخراج عن القلعة، لذا لم يجدْ حلًّا سوى اتّباع وسائله الملتوية، فأرسل مملوكه المقرّب محمد أبو الدّهب لاستمالة قائد جيوش الهوّارة، والذي كان ابن عمّ همام، وبالفعل ينجح أبو الدّهب في مهمّته، وتنكسر شوكةُ الهوّارة، ويفرّ همام إلى النّوبة لتكوين جيشٍ جديد، ولكنْ يبدو أنّ قدر السّماء يحابيه، فقد مات همام قبل أن يدرك هدفه، بذلك استتبّ له الأمر تمامًا في مصر، وبات مستعدًّا للخطوة الجديدة.

مازال يذكر كيف أرسل أبو الدّهب في حملات للحجاز والشام حتّى استطاع إخضاعهم لنفوذه مستغلًّا انشغال الدّولة العثمانية في

حروبها مع روسيا، التي استطاع التحالف معها في سرية لدعمه بالمال والسّلاح، ولكن يبدو أنّ الدّولة العثمانية انتبهت للأمر، فاستطاعت استمالة أبي الدّهب إليها، ووعدته بمنصب شيخ البلد، فعادَ من فلسطين ليحارب سيده، الذي لم يجدْ مفرًّا من الهرب إلى صديقه ظاهر العمر في عكا، وها هو يجلس وحيدًا بلا نفوذ أو مماليك، بينما يجني أبو الدهب ثمرةَ خيانته له.

عندَ هذه النّقطة من التفكير لم يستطعْ تمالك أعصابه، وقال محدّثًا نفسه:

- لا، هذا لنْ يكون أبدًا.

قالها وانطلقَ لمقابلة ظاهر العمر ليساعده على العودة لمصر، ولكنّه نصحه بالتريّث والصبر إلّا أنّ علي بك كان قد استنفذَ كلّ رصيد الصّبر لديه، وأصرّ على العودة، فما كان من صديقه إلّا أن ساعده حتّى إذا وصل إلى الصّالحية بالشّرقية، التقى بجيش أبي الدّهب، في معركة كان النصر فيها حليفَ الأخير، وأصيب علي بك في هذه المعركة بجراح، ونقل إلى القاهرة، حيث قدم له مملوكه أبو الدهب الرّعاية الطبية اللازمة، لكن ذلك لم يغنِ عن الأمر شيئًا فلقي ربه، بعد أن أعلن مصر دولةً مستقلّة عن الدّولة العثمانية ولو لبعض الوقت.

ملاحظات:

- بنى محمد بك أبو الدّهب مسجدًا كبيرًا مقابلَ الجامع الأزهر ويعتبر من أجمل المساجد بالقاهرة.

- استصدر السّلطان العثماني فتوى من قاضي القضاة والمفتي الأعظم باعتبار علي بك ورجاله وحلفاءه وأنصاره بغاةً خارجين على الدولة يجب قتلُهم أينما وجدوا، وزاد من تأثير هذه الفتوى اتّصالُ علي بك الكبير بروسيا، وهي دولة مسيحيّة في حالة حرب مع دولة الخلافة العثمانية.

- ليس معروفًا على وجْه الدّقة هل كان انقلابُ محمد أبو الدهب على سيده نابعًا من ذاته أم بتحريض من الدولة العثمانية أو كلاهما.

- عادت مصرُ إلى الحظيرة العثمانية من جديد، وتولّى محمد أبو الدهب حكمَ مصر كوالٍ، وأنعمت عليه بلقب باشا.

* * *

الرِّقّ الحادي عشر: ودخلَ الفرنسيس مصر

أمسك أبي الرِّقَّ الأخيرَ بيدٍ مُرتعشة وهو يقول:

- وهذا يا بني هو آخرُ ما وصل إلينا من أخبار حيث لم يمرّ عليها سوى بضع سنوات، وبنهاية هذا الرّق أكون قد وفّيت أمانتي، وبدأ دورك لتفي بأمانتك ولا تخنها أبدًا.

- بالتّأكيد يا أبي.

ناولني أبي الرِّق، وبدأت أقرأ..

«بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلّا الله، لا ولد له ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتّسوية، والكبير أمير الجيوش

الفرنساوية ـ بونابرطة، يعرّف أهالي مصر جميعهم أنّ من زمن مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذّل والاحتقار في حقّ الملّة الفرنساوية، ويظلمون تجّارها بأنواع الإيذاء والتعدّي، فحضر الآن ساعة عقوبتهم، واحسرتاه، من مدّة عصور طويلة هذه الزّمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون في الإقليم الحَسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها.

فأمّا ربّ العالمين القادر على كلّ شيء فإنّه قد قضى على انقضاء دولتهم: يا أيّها المصريون: قد قيل لكم أنّني مازلت بهذا الطرف إلّا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذبٌ صريح فلا تصدّقوه، وقولوا للمفترين إنّني ما قدمت إليكم إلّا لأخلّص حقّكم من يد الظالمين، وأنّني أكثر من المماليك أعبدُ الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيّه والقرآن العظيم.

طوبى ثمّ طوبى لأهالي مصر الذين يتّفقون معنا بلا تأخير، فيصلح حالهم، وتعلو مراتبهم، طوبى - أيضًا - للّذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحدٍ من الفريقين المتحاربين، فإذا عرفونا أكثرَ تسارعوا إلينا بكلّ قلبٍ، لكنِ الويلُ ثمّ الويلُ للّذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقًا إلى الخلاص، ولا يبقى منهم أثر».

هكذا تمّ طباعة وتوزيع هذا المنشور في كافّة الأقاليم والمراكز، وعمل المشايخ والأعيان على بثّه بين الأهالي بعد اجتماعهم ببونابرت الذي أقنعهم بإسلامه، وأنّه أتى ليحارب المماليك ويخلّص مصر من

ظلمهم، في حين لم يستطعْ مراد بك وإبراهيم بك اللّذيْن تقاسما حكم مصر الانتصارَ على جيوش الفرنسيس، فدخلت العساكرُ الفرنساوية القاهرة، وقد أرسلت العثمانية تجريدةً لمساعدة المماليك ومحاربة الفرنسيس إلّا أنّها انهزمت، واستقرّ الفرنسيس في مصر.

على أنّ العلاقة الوديّة مع بونابرت لم تدمْ طويلًا، خاصّة بعد انكساره في عكا ومحاولة فرض الضّرائب والجبايات الباهظة على الأهالي، فثار أهلُ القاهرة وقادَ مشايخ الأزهر وعلماؤه هذه الثّورات حتّى اضطر بونابرت لاستخدامه القوّة الغاشمة لإخمادها، فأمر نابليون بأن تقوم المدافع الموجودة على جبل المقطم بضرب القاهرة، فدكّت متاريس وتحصينات الثوّار، ثمّ أمر بضرب الأزهر لكوْنه مركزَ الثّورة، ودخلت الخيولُ الفرنسية الأزهر الشّريف، وقتل الجنود كلّ مَن وجدوه أمامهم، وتمّ حرق الكتب، وبعد أنْ رأى شيوخ الأزهر هذا الوضع الكارثيّ توسّلوا إلى نابليون حتّى يأمر بوقف القمع فوافق، خاصّة بعد تعرّض عسكره للقتل بيد الأهالي تارة وعلى يد المماليك الفارّين، والذين تحالفوا مع الفلّاحين والعربان لمجابهة عسكر الفرنساوية.

نظّم بونابرت الأمورَ العسكرية والإدارية في القاهرة، وعيّن كليبر الذي ما أنْ علم بتكليف نابليون له بقيادة الحملة غضبَ غضبًا شديدًا؛ فقد كانت الخزانة خاويةً، بالإضافة إلى كوْنها مدينةً بستة ملايين فرنك، فقد كانت هناك متأخّراتٌ للجنود وصلت قيمتها إلى أربعة ملايين

فرنك، وكان عددُ الجنود الفرنسيّين يتناقص يومًا بعد يوم، وكذلك معنويّاتهم، بينما أهل البلاد المقاومون يزدادون قوّة، ويتحيّنون الفرصة للقيام بثورةٍ أخرى، وكان من المُمكن في أي وقت أنْ ترسل السّلطنة العثمانية وبريطانيا العظمى قوّات عسكرية إلى مصر يمكنها- بمساعدة أهل البلاد- عاجلًا أو آجلًا إجبارَ الفرنسيّين على التسليم.

وبالفعل يثورُ المصريون للمرّة الثانية، ويكون الأزهر في مقدّمة الصفوف، ويلجأ كليبر للقوة الغاشمة كسلفه، ويُمطرهم بوابلِ مدافعه، ولم يكدْ يقضي بضعة أشهر في قيادة الحملة حتّى قام شابّ حلبيّ من طلاب الأزهر يدعَى سليمان بقتله في منزله جزاءَ ما ارتكبه من جرائم في حقّ المسلمين.

بعد مقتل كليبر على يدِ سليمان الحلبي تسلّم الجنرال جاك فرانسوا مينو، وبعد أن أظهر أنّه أسلم، وسمّي عبد الله جاك مينو، ليتزوّج من امرأة مسلمة كانت تسمّى زبيدة ابنة أحد أعْيان رشيد، في محاولة للتقرّب من الأهالي، إلّا أنّ الأخبار توافدت عن خروج تجريدة عثمانية إنكليزية لطرد الفرنسيس من مصر، فاضطرّ عبد الله مينو إلى الاستسلام، وفشلت حملة الفرنسيس.

ملاحظات:

- تعتبر الحملةُ الفرنسية امتدادًا مباشرًا للحملات الصّليبية بعد التوصيات المتوالية من المستشرقين الفرنسيين لحكّام فرنسا باحتلال مصر.

- لعب المستشرقون دورًا هامًّا في مجيء الحملة الفرنسية من خلال توصياتهم والنصر بالسّيطرة على مصر وطرق التّعامل المثلى مع أهل البلاد الأصليّين، بل منهم مَن تتلمذ على يد الجبرتي الكبير (والد الجبرتي المؤرّخ).
- كانت الحملةُ الفرنسية سببًا رئيسيًّا في تنامي الشّعور الوطني لدى المصريين، وبدأ تشكّل النّواة الأولى للقوى الشّعبية التي تتكلم باسم الشعب.
- كان للحملة العديدُ من النتائج العلميّة، ككتاب وصف مصر، واكتشاف حجر رشيد الذي سيساعد في فكّ طلاسم اللغة المصرية القديمة.

الجـزءُ الرّابـع والأخـيـر

وثائقُ يوسف أفندي مختار

إنّه في يوم ٢٧ مارس ١٩٥٩، ورد إلينا نحنُ يوسف أفندي مختار، مسئول أرشيف دار المحفوظات بالقاهرة عددٌ من الوثائق يرجع تاريخُها إلى العهد البائد من حُكم محمد علي وأسرته؛ حيث تمّ نسخُها وإعادة طبعها، وتفريغ ما وردَ فيها من بيانات ومعلومات طبقًا للوائح والقوانين..

هذا أنا، يوسف أفندي الموظّف بدار المحفوظات، كثيرون يكرهون مثلَ هذا العمل الرّوتيني المملّ، إلّا أنّني سعيدٌ به للغاية، ربّما يرجع ذلك لشغفي بتلك التّفاصيل الصّغيرة التي لا يهتمّ المؤرّخون بذكرها كأسعار الغلال والحوادث الغريبة والقضايا الشّرعية؛ لذا فبمجرّد أن يرد إلينا أيّة وثائق جديدة أهْرَع لمطالعتها فورًا، وها أنا أرتشفُ جرعةً كبيرة من كوب الشّاي بجواري وأطالع الوثيقة الأولى..

الوثيقةُ الأولى: المذبحة

أنهى البكواتُ والمماليك وليمتَهم مع الباشا محمد علي احتفالًا بخروج ابنه طوسون على رأس تجريدةٍ لمحاربة الوهابيّين الذين سيطروا على الحرمين الشّريفين، وتمرّدوا على السّلطان العثماني خليفة المسلمين، كان كلا الفريقين المماليك والباشا يتعاملون بحذر شديد

رغم حرصِهم على تغليف هذا الحذر بالابتسامات والمجاملات، وبعدها خرجوا يمتطون جيادهم المطهمة، وتوجّهوا نحو باب العزب استعدادًا للمغادرة، لم ينتبهوا إلّا على صوت مزلاج الباب يغلَق، بينما ينهمرُ الرّصاص فوق رؤوسهم، حاول بعضهم التّقهقرَ إلّا أنّ الجنود صبّوا عليهم وابلَ رصاصهم، فصاروا بين المطرقة والسندان.

وحدَه أمين بك استطاع الفرارَ من هذه المذبحة العظمى، ألقى بجسده فوق السّور، واستطاع الهروبَ إلى الشّام في الوقت المناسب، بينما ترك زملاءه يذبحون بأيدي جنود الباشا، ولم يتوقّفِ الأمر عند هذا الحدّ؛ بل تتبّع الجند الهاربين والمتوارين عن الأعين، ونهبوا دورهم وأموالهم، حتّى بلغ عددُ القتلى من المماليك ألفَ نفس، وهربَ بقاياهم إلى دنقلة بالسودان، لقد خلص حكم مصر للباشا أخيرًا.

لم تكنْ هذه هي البداية، فمنذُ ستّ سنوات سادتِ الاضطرابات البلاد، وتوالى الولاة من قبل الباب العالي على مصر، ولكنْ سرعان ما يتمّ عزلهم أو قتلهم من قبل المماليك أو الجند أو ثورات الأهالي، وبينما ينهب الجميعُ ما تستطيع أن تصل إليه يدُه من مال الأهالي؛ منع محمد علي قائد فرقة الأرناؤود جنوده من الاحتكاك بالجماهير، وألّا يمسّوهم بأذى، وتقرّب إلى المشايخ والعلماء، خاصّة نقيب الأشراف عمر مكرم، ففي هذه السنوات تبلورت الإرادة الشعبية في شيوخ الأزهر والأشراف الوجهاء، والذين اجتمعَ بهم محمد علي عدّة مرّات حتّى استقروا على توليته حكمَ مصر، وبالفعل يراسلون

السّلطان العثماني، ويستصدرون منه فرمانًا بتولية محمد علي، ورغم كلّ المؤامرات الدّاخلية والخارجية للإطاحة بمحمد علي، استطاع عمر مكرم والمشايخ تثبيت دعائم حكم الباشا، على أن يمثلوا ما يشبه جهة رقابية عليه، وهو ما وافق عليه محمد علي، في بداية الأمر فحسب.

زادَ تضييق عمر مكرم على محمد علي حين أراد فرضَ ضرائب جديدة على الأهالي، فما كان من الباشا إلّا أنِ استغلّ الخلاف الذي دبّ بين المشايخ فقرّب بعضهم واستمالهم ناحيته، ونفى عمر مكرم إلى دمياط، وهكذا تخلّص من وصاية العلماء، وتوجّه نحو الخطر الحقيقي الذي يزعزع ملكه وهُمُ المماليك، فدبّر لهم هذه المذبحة العظمى، وبدأ يرنو للتوسّع، فضمّ محمد علي باشا السّودان والشّام والحجاز، بل وكاد يتوجّه إلى الآستانة لوْلا تدخّل فرنسا وإنجلترا اللّتيْن أجبرتاه على الانسحاب، وتوقيع معاهدة لندن ١٨٤٠.

على أنّ أهمّ ما امتاز به عهد محمد على هو العناية الفائقة بالتعليم، حيث كان يرى أنّه الركيزة الأساسية لبناء أيّ دولة قوية، بدأ بإنشاء المدارس وإرسال البعثات، بل ومتابعة مستوى تحصيلهم للعلوم بنفسه، وإرسال خطابات تشجيع أو لومٍ لهم، ومنها ما ورد إلينا مثل هذا الخطاب الذي قال فيه:

«قدوة الأماثل الكرام الأفنديّة المقيمين في باريس لتحصيل العلوم والفنون، زيدَ قدرُهم، ننهي إليكم أنّه قد وصلنا أخبارُكم الشهرية، والجداول المكتوب فيها مدّة تحصيلكم، وكانت هذه الجداول المشتملة

على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمةً، لم يفهم منها ما حصلتموه في هذه المدّة، وما فهمنا منها شيئًا، وأنتم في مدينة مثلَ مدينة باريس التي هي منبع العلوم والفنون، فقياسًا على قلّة شغلكم في هذه المدّة عرفنا عدمَ غيرتكم وتحصيلكم، وهذا الأمر غمّنا غمًّا كثيرًا، فيا أفنديّة، ما هو مأمولنا منكم؟! فكان ينبغي لهذا الوقت أنّ كلّ واحد منكم يرسل لنا شيئًا من ثمار شغله وآثار مهارته، فإذا لم تغيّروا هذه الباطلة بشدّة الشّغل والاجتهاد والغيرة، وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض الكتب، فظننتُم أنّكم تعلّمتم العلوم والفنون فإنّ ظنّكم باطل، فعندنا ولله الحمدُ والمنّة رفقاؤكم المتعلّمون يشتغلون ويحصلون الشّهرة، فكيف تقابلوهم إذا جئتم بهذه الكيفيّة، وتظهرون عليهم كمالَ العلوم والفنون، فينبغي للإنسان أن يتبصّر في عاقبة أمره، وعلى العاقل ألّا يفوّت الفرصة، وأنْ يجني ثمرة تعبه، فبناءً على ذلك أنّكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة، وتركتُم أنفسكم للسّفاهة، ولم تتفكّروا في المشقّة والعذاب الذي يحصل لكم من ذلك، ولم تجتهدوا في كسبِ نظرنا وتوجّهنا إليكم لتتميّزوا بين أمثالكم، فإنْ أردتم أن تكتسبوا رضاءنا، فكلّ واحدٍ منكم لا يفوّت دقيقةً واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون، وبعد ذلك كلّ واحدٍ منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كلّ شهر، ويبيّن زيادة على ذلك درجته في الهندسة والحساب والرّسم، وما بقي عليه في خلاص هذه العلوم، ويكتبُ في كلّ شهر ما يتعلّمه في هذا الشهر زيادةً على الشّهر السابق، وإنْ قصّرتم في الاجتهاد والغيرة فاكتبوا لنا سببَه، وهو إمّا من عدم

اعتنائكم، أو مِن تشويشكم، وأيّ تشويش لكم، هل هو طبيعي أو عارض؟ وحاصل الكلام أنّكم تكتبون حالتكم كما هي عليه حتّى نفهم ما عندكم، وهذا مطلوبُنا منكم، فاقرءوا هذا الأمر مجتمعين، وافْهموا مقصودَ هذه الإرادة، وقد كتب هذا الأمر في ديوان مصر في مجلسنا في إسكندريّة بمنِّه تعالى، فمتى وصلكم أمرُنا هذا فاعملوا بموجبه، وتجنّبوا وتحاشوا عن خلافه»

ملاحظات:

- بدأ محمد علي حياته كبائع تبغٍ مع عمّه، وبعدها التحقَ بالجنديّة حتّى جاء إلى مصر وهو نائبُ قائد فرقة الأرناؤود، وكان أميًّا لا يقرأ أو يكتب.

- اختلف المؤرخون في الحُكم على محمد علي بخصوص مذبحة القلعة، فمنهم مَن يرى أنّه سفاح، وآخرون يرون أنّه خلّص مصر من شرّ المماليك وظلمهم.

- مثّل محمد علي خطرًا جسيمًا على مصالح فرنسا وإنجلترا والدولة العثمانية؛ حيث رأوا فيه تجديدًا لشباب الدولة العثمانية المتهالكة، وهو ما لم يسمحوا به باتّفاقية لندن.

- كانت النّهضة التي يؤسّسها محمد علي هي نهضة فئوية له ولأبنائه والمنتفعين بحكمه ولم تنعكس هذه النّهضة على عموم الناس أو رفاهية الأفراد، فظلّ المصريّون عبيدًا للأرض، ولم تتحسّن أحوالهم سوى قليلٍ جدًّا (كل رجال الباشا - أحمد فهمي - ص ١٢)

الوثيقةُ الثّانية: هوجةُ عرابي

تزاحم الأهالي في الشّرفات والنّوافذ حول ميدان عابدين يراقبون ذلك المشهدَ المهيب الذي لم تشهدْه مصر منذ أمدٍ بعيد، بينما تراصّت صفوفُ الجنود بانتظام، فبدوا كالبنيان المرصوص، يتقدّمهم قائدُهم بقامته الطّويلة وبنيانه القويّ، شامخًا بأنفه، منتصبَ القامة، وقد امتطى جواده وامتشقَ سيفه، بينما وقف أمامه الخديوي توفيق، وبجواره مستر كوكسن نائب القنصل الإنجليزي والسّير أوكلفن المراقب المالي الإنجليزي، وبعض رجال حرس القصر، في حين وقف خلف عرابي حوالي ثلاثين جنديًّا وضابطًا شاهرين سيوفهم، فما كان من أحدِ الحرّاس إلّا أنْ صاح في عرابي قائلًا:

- أغمدْ سيفك، وترجّل في حضرة خديوي البلاد.

لم يجدْ عرابي غضاضةً في الامتثال للأمر، فهو في النّهاية عسكري، والخديوي يعتبر قائده الأعلى، فترجّل وأغمدَ سيفه، وتقدّم نحو الخديوي إلّا أنّه لمح إشارة مستر كوكسن يشير إلى مسدّس الخديوي وهو يميل على أذنه هامسًا أنْ يقتل عرابي، ولكنّ الخديوي لم يفعل وأجابه قائلًا:

- ألا ترى هذا الحشدَ من الجنود والضباط؟

وقف عرابي أمام الخديوي، وأدّى التحية العسكرية، فبادره الخديوي بغضب قائلًا:

- ما سببُ حضورك بالجيش إلى هنا؟

- جئنا يا مولاي لنعرض عليك طلباتِ الجيش والأمّة، وكلّها

طلبات عادلة.

- وما هي هذه الطلبات؟

- عزل رياض باشا، وتشكيل مجلس النوّاب، وإبلاغ عدد الجيش إلى العدد المعيّن في الفرمانات السّلطانية وهو ثمانية عشر ألفًا.

استشاط الخديوي غضبًا، وأجابه وقد احتقن وجهُه بالدماء وقال:

- كلّ هذه الطّلبات لا حقّ لكم فيها، وأنا خديوي البلد، وأفعل فيها ما أريد.

فأجابه عرابي بغيظٍ مكتوم:

- ونحن لسنا عبيدًا، ولا نورّث بعد اليوم.

لم يجدِ الخديوي جدوى للحوار، فعاد إلى القصر للتّشاور مع القنصل الإنجليزي، وفي النهاية اضطرّ للانصياع لمطالب عرابي وتنفيذها، وكلّف شريف باشا المشهود له بالوطنية والاستقامة بتشكيل الوزارة، ولكنّه سرعان ما استقال بعد المذكّرة المشتركة الأولى التي قدّمتها إنجلترا وفرنسا لتأييد الخديوي، وتشكّلت حكومة جديدة برئاسة محمود سامي البارودي، وشغل عرابي فيها منصبَ وزير الحربية، وقوبلت وزارةُ البارودي بالارتياح والقبول من مختلف الدوائر العسكرية والمدنية؛ لأنّها كانت تحقيقًا لرغبة الأمّة، ومعقد الآمال، وكانت عند حسن الظّن، فأعلنت الدّستور، وصدر المرسومُ الخديوي بذلك، إلّا أنّ فرنسا وإنجلترا كان لديهما رأي آخر، واستغلّا حادثة مذبحة الإسكندرية التي قامت بين

مكاري مالطي وأحدُ المصريّين، ونتج عنها بعضُ أحداث الشّغب، فحاصرت الإسكندرية بأسطولها، وقصفتها بالمدافع ممّا تسبّب في مقتل وتشريد آلاف الأسر واحتلّتها، فما كان من عرابي إلّا أنْ أعلن الكفاح الوطني المسلّح، ورفض قرارات الخديوي بوقف الاستعدادات الحربيّة في كفر الدوار.

وبالفعل، انتصر عرابي في معركته ضدّ جيش الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشّمس، إلّا أن ثقتَه في وعد ديليسبس أنّه لن يسمح بمرور الأسطول الإنجليزي، وخيانة بعض ضبّاطه وبعض العربان الذين دلّوا الإنجليز على أماكن الجيش المصري، بالإضافة إلى إصدار السلطان العثماني عبد الحميد الثّاني فرمانًا بعصيان عرابي، كلّ ذلك أدّى في النّهاية إلى هزيمة الجيش المصري بقيادة عرابي، وتمّ إلقاء القبض عليه ومحاكمته ونفيه إلى جزيرة سيلان، ووقعت بمصر بأسرها في براثن الاحتلال الإنجليزي.

ملاحظات:

- تعتبر ثورةُ عرابي، أو هوجة عرابي كما سمّاها الشعب آنذاك، حركةً محدودة للغاية وغير محسوبة العواقب، ووقع زعيمها في العديد من الأخطاء الكارثيّة التي تسببت في عواقبَ وخيمة عليه وعلى البلاد.

- كان الخديوي توفيق ميّالًا بشدّة للإنجليز منبطحًا للقوى الخارجية، وقد وضع نصب عينيه ديون مصر الخارجية التي بدأت

في عهد سعيد، وتوسّع فيها إسماعيل، كما لم ينسَ أيضًا دور إنجلترا وفرنسا في عزل أبيه وتعيينه.

- ربّما اختلفت نتائجُ هذه الحركة بشدّة إذا كان عرابي أكثر حذرًا وحيطة، وأقلّ ثقة فيمَن حوله.

- تردّد شريف باشا كثيرًا في قبول منصب رئيس الوزراء بعد نجاح مظاهرةِ عابدين حيث خشيَ مِن تدخّل الجيش في أمور السياسة.

- قام عرابي في أواخر حياته بالتودّد إلى الإنجليز الذين حاربهم حتّى يسمحوا له بالعودة إلى مصر، وقد استقبله الشّعب بفتورٍ شديد، ونظّم الشّاعر أحمد شوقي قصيدة يهجوه فيها قال في مطلعها:

أهلًا وسهلًا بحاميها وفاديها
ومرحبًا وسلامًا يا عرابيها
وبالكرامة يا مَن راح يفضحُها
ومقدم الخير يا مَن جاء يخزيها

***

الوثيقةُ الأخيرة: آخرُ الملوك

ظلّت مصرُ في كنف الدّولة العثمانية منذ أنْ دخلها السّلطان سليم الأوّل عام ١٥١٧م، وحتى أعلنت بريطانيا العظمى فرضَ حمايتها عليها عام ١٩١٤م تزامنًا مع نشوب الحرب العالمية الأولى،

وسمّيت بالسّلطنة المصرية، إلّا أنّها بفضل جهود الحراك الشّعبي الوطني، خاصّة بعد ثورة ١٩١٩، وبعد أنْ وضعت الحرب أوزارها؛ رفعت الحماية عن مصر في فبراير ١٩٢٢، فتحوّلت مصر إلى مملكة، وتمّ وضع أوّل دستورٍ للبلاد عام ١٩٢٣ على إثر ذلك الاستقلال مع بقاء التّحفّظات الأربعة لإنجلترا، وهي:

١. حقّ إنجلترا في تأمين مواصلات إمبراطوريتها في مصر.
٢. حقّ إنجلترا في الدّفاع عن مصر ضدّ أيّ اعتداء أو تدخل أجنبي.
٣. حماية المصالح الأجنبية والأقليات.
٤. حقّ إنجلترا في التصرف في السودان.

على أنّ هذا الدّستور ضمن لمصر حياةً ديمقراطية سليمة ومتوازنة؛ حيث يشكّل الوزارة الحزب الذي يحصل على أغلبيّة في مجلس النواب، والذي يعبّر عن إرادة الجماهير والمتمثّلة آنذاك في حزب الوفد، كما كان للأحزاب دورٌ فعّال في الحياة السياسية، إلّا أنّه شابَ هذا الدستورَ مادّةٌ واحدة بدتْ كمسمار يشوّه هذا الدّستور؛ وهو منح الملك الحقَّ في حلّ الوزارة، والذي لولا الخلافات التي دبّت بين القوى السياسية بعد ثورة ١٩١٩ لما استطاع الملك تمرير هذه المادة، إلّا أنّ هذا الجوّ الديمقراطي لم يلبثْ أن تعرّض لمنحنًى خطيرٍ للغاية.

التّوتر يسودُ الأجواء في العالم أجمع الذي وقف يشاهد حربًا من أشرس الحروب التي خاضها، في حين تواترت الأنباءُ في مصر عن تقدّم القوات الألمانية بقيادة روميل نحو العلمين، كان الموقف

العسكري مشحونًا بالاحتمالات الخطيرة على مصر، ولاتّباع التّقليد الدستوري الخاص بتشكيل وزارةٍ ترضَى عنها غالبيةُ الشّعب، وتستطيع إحكامَ قبضة الموقف الداخلي، فطلب السّفير البريطاني منه تأليفَ وزارة تحرص على الولاء لمعاهدة ١٩٣٦ نصًّا وروحًا قادرة على تنفيذها، وتحظى بتأييدِ غالبية الرّأي العام، وأن يتمّ ذلك في موعد أقصاه ٣ فبراير ١٩٤٢، ولذلك قام الملك باستدعاء قادةِ الأحزاب السياسية في محاولةٍ لتشكيل وزارة قومية أو ائتلافية، وكانوا جميعًا مؤيّدين لفكرة الوزارة الائتلافيّة برئاسة مصطفى النحاس باشا، إلّا أنّه رفض بشدّة، وأصرّ أنّه تكون الوزارة مكوّنة من حزب الوفد فقط نظرًا لحصولهم على أغلبية بالبرلمان.

انعكست أشعةُ شمس الصّباح على أجسام الدّبابات الإنجليزية وهي تتحرّك نحو قصر عابدين في صباح ٤ فبراير ١٩٤٢م، وتنجح في محاصرته دون أن يتحرّك واحدٌ من الحرس الملكي، في حين دخل القصر سفيرُ بريطانيا العظمى بصحبة قائد القوات الإنجليزية في مصر الجنرال ستون، ومعهما عددٌ من الضباط والجنود البريطانيّين، ودخلا إلى مكتب الملك، وكان معه رئيس الدّيوان أحمد حسنين باشا، ووضع أمامه وثيقةَ تنازله عن العرش، تناول الملك الوثيقة وقرأ فيها:

«نحن فاروق الأوّل ملك مصر، تقديرًا منّا لمصالح بلدنا؛ فإنّنا هنا نتنازل عن العرش، ونتخلّى عن أيّ حقّ فيه لأنفسنا ولذريّتنا، ونتنازل عن كلّ الحقوق والامتيازات والصلاحيات التي كانت

عندنا بحُكم الجلوس على العرش، ونحن هنا- أيضًا- نحلّ رعايانا مِن يمين الولاء لشخصنا. »

صدرَ في قصر عابدين في هذا اليوم الرّابع من فبراير ١٩٤٢.

(سنوات مع الملك فارق - د. حسين حسني ص ١٦٠)

تردّد الملك للحظة، بينما تتفحّصه نظراتُ الجنرال ستون، وقد بدا له أنّه سيمسك القلم ويوقّع أخيرًا، إلّا أنّ أحمد حسنين باشا عاجله قائلًا:

- لحظة يا مولاي، أرى أنْ يتمهّل جلالتكم في التّوقيع؛ حيث سنجنّب البلاد الوقوع في الفوضى الدّستورية، كما أنّ مصلحة البلاد تقتضى أن يتولّى النحاس باشا الوزارة.

نظرَ له الملك بقلق وقال:

- هل ترى ذلك حقًّا؟

- بالتأكيد يا مولاي.

التفتَ الملك ناحية الجنرال وقال:

- حسنًا يا حضرة الجنرال، إنّ مصلحة بلادي تقتضى استدعاء النحاس باشا وتقليده الوزارة.

أجابه الجنرال قائلًا بخبث:

- على أنْ يُترك له حرية تشكيل الوزارة.

شعرَ الملك بغصّةٍ مريرة في حلقه، وهو يرى حقيقته أنّه ملك لا يستطيع حكمَ مملكته، وقال بصوتٍ مبحوح:

- بكلّ تأكيد.

لم تكدْ تمضي بضعُ سنوات على هذه الواقعة حتّى بُليت مصر والأمّة العربية بنكبة عام ١٩٤٨م؛ حيث انهزمت الجيوش العربية أمام عصابات الصّهاينة في فلسطين، وعاد الجيش يشعر بالمرارة والعار، ثمّ تبعه بعد ذلك حريقُ القاهرة؛ فقرّر الجيش تخليص مصر من الحكم الملكيّ الفاسد، وتكوّن تنظيم الضّباط الأحرار الذي قام بحركته المباركة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، فأجبر الملك على التّنازل عن العرش، وتحوّلت مصر بعد ذلك بأشهرٍ قليلة إلى الجمهورية.

ملاحظات:

- كان مجيء النّحاس باشا إلى الوزارة بهذه الطّريقة، وبدعمٍ من الإنجليز وصمةَ عارٍ في تاريخه الطويل.
- ازدهرتِ الحياة النيابية والديمقراطية في مصر رغم كوْنها ملكية، وكان للشّعب دور فاعلٌ في الأحداث السياسية للبلاد.
- ألغى النّحاس باشا بعد ذلك معاهدة ١٩٣٦م في واقعة شهيرة قائلًا:

«من أجل مصر وقّعنا اتفاقية ١٩٣٦، ومن أجلها نلغي اتفاقية ١٩٣٦ «

- كانت هزيمةُ فلسطين أحدَ الأسباب القويّة لقيام ثورة يوليو، بالإضافة للعديد من الأسباب الأخرى كوضعِ الجيش والاحتلال الإنجليزي، والإقطاع، وعدم وجود عدالة اجتماعية.

- صباحُ الخير يا يوسف أفندي.
- أهلًا محمود أفندي.
- ماذا تفعل؟

تظاهرتُ باللامبالاة، وأنّي أقوم بجمع الوثائق وقلت:

- لا شيء يا محمود أفندي، إنّها بعضُ الوثائق التي وردتْ إلينا مؤخرًا.

كانت هذه هي آخرَ الوثائق التي وردت إليّ هذا الشّهر، فقمت بأرشفتها وتسجيلها في السجلات وحفظتُها في موقعها لحين طلبها للاطّلاع.

تمّ بحمد الله

قائمة المراجع

- فجر الضّمير: هنري بريستد- ترجمة سليم حسن
- موجز تاريخ العالم: هـ. ج. ويلز
- قصّة الحضارة: ول ديورانت
- مختصر تاريخ العالم: إيه إتش غومبريتش- ترجمة د. ابتهال الخطيب
- اللّغة المصرية القديمة: عبد الحليم نور الدين
- تاريخ مصر القديم: د. جمال عبد الرازق- أ.د. عنايات محمد أحمد
- فرعون موسى: عاطف عزت
- فرعون ذو الأوتاد: أحمد سعد الدين
- الفتح الإسلامي لمصر: د. سليم العوا
- تاريخ مصر في العصور الوسطى: ستانلى لين بول- ترجمة: أحمد سالم سالم
- الدّولة الفاطمية في مصر: أيمن فؤاد السيد
- العصر الأيوبي.. قرن من الصّراعات الداخلية: د. منذر الحايك
- السّلوك في معرفة دولة الملوك: المقريزي
- إغاثة الأمّة بكشف الغمّة: المقريزي
- عجائب الآثار في التراجم والأخبار: عبد الرحمن الجبرتي

- دولة المغول والتّتار بين الانتشار والانكسار: علي محمد
- جنكيز خان فاتحُ العالم: الصّاوي محمد الصّاوي
- دولة المغول والتّتار: علي الصّلابي
- كلّ رجال الباشا: خالد فهمي
- الثّورة العرابية والاحتلال الإنجليزي: عبد الرحمن الرافعي

فهرس المحتويات